موسوعة

عباقرة الإسلام

في الطب والجغرافية والتاريخ والفلسفة

الدكتور رحاب خضر عكاوي

الجزء الثاني

دار الفكر العربي
بيروت

موسوعة

عباقرة الإسلام

دار الفكر العربي
للطباعة والنشر
كورنيش المزرعة - مقابل بنك بيروت والرياض
بناية ميدواي سنتر - طابق ٥ - هاتف ٨١٧٢٨٨
ص.ب: ١٤/٥٠٧٠ - بيروت، لبنان

الطبعة الاولى ١٩٩٣

مطابع يوسف بيضون
بيروت - هاتف: ٨٣٧٦٦٧ - ٨٣٧٤٤٩ - ٤٦٠٧٤٣

الإهداء

إلى التقيّة العابدة
والفاضلة الماجدة
و «الحكمة الخالدة»
إلى والدتي حكمت . .
أهدي هذا الكتاب

رحاب

مقدمة

عباقرة العلم وجهابذة الأدب هم الذكر الحسن الذي لا يطويه مرور الزمان، ولا تحدّه رسوم المكان، فالعبقري يدور في الوقت من غير دافع يردُّه، ولا مانع يصدُّه، وتُؤمن عليه غارة الليالي والأيام، وجناية السنين والأعوام، في دروس آثاره، وطموس أنواره، وقليل العلم كثير، بل ليس من العلم قليل، وخير العلم ما ينفع، وأنفعه ما يُحاضر به، ولا يعتاص عند مطلبه، وأجلُّ ما يعين على حفظه حسن تصنيفه، وبراعة تدوينه وتأليفه، وأولى ما يصنف منه ما تعظم الحاجة إليه، ويكثر تطلُّع النفوس إلى معرفته والوقوف عليه، وإن أغفل إتقانه الأولون، وأخلّ باستقصائه المتقدمون.

قال أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل(١): «وقد رأيت أكثر الخاصمة وجلّ العامة لهجين بالسؤال عن أوائل الأعمال، ومتقدمات الأسماء الخاصة، ولم يجدوا في ذلك كتاباً يجمع فنونها ويحوي ضروبها وأخبارها، وشرح وجوهها وأبوابها، إلّا نبذاً متفرقة في تضاعيف الصحف وابتداء الكتب، لم تذكر أسبابها، ولم تشرح أبوابها، فعملت كتابي هذا مشتملاً على هذا النوع من الأخبار، وحاوياً لهذا الفن من الآثار، مشروحاً ملخصاً، ومهذباً مخلصاً، لا يشوبه كدر، ولا يرهق وجهه قتر، ليكون عوناً على المذاكرة وقوة المؤانسة.

وعلى نمط ما ذكرنا من مقدمة أبي هلال، كان تطلُّعنا إلى تأليف هذه الموسوعة العلمية الأدبية، لتكون شاهداً على نبوغ المسلمين في ميادين العلم والمعرفة، وشموخ هؤلاء في كل فن من فنون الصنعة، وجعلنا دأبنا ضمّ أخبارهم وآثارهم، وجمع ما تناثر من أقوالهم وأفكارهم، بحيث لا يطول الشرح فيُملّ، ولا يختصر فيخلّ، وكان هدفنا من الموسوعة إلقاء الضوء على ما غمض من تاريخنا الذهبي، ورد ادعاء الغرب

(١) في مقدمة كتابه الأوائل.

أنه السبّاق في عالم الفنّ العلمي والأدبي، فاجتهدنا ـ بعون الله ـ في استقصاء الخبر من مصادره، والإلماع إلى من عبّر في نوادره، لتكون مادة هذه الموسوعة المبسطة أساساً لعمل أكثر شمولاً وأوفر فصولاً، تشهد للعرب والمسلمين بالسبق في جميع الميادين.

وقد حمل إلينا الكتاب الأول من الموسوعة تعريفاً بثلاثة وسبعين عبقرياً مسلماً في مادة وافية، ومعلومات كافية، في أربعة فروع من فروع المعرفة هي: العلم، الفكر، الأدب، والقيادة، وكان الكتاب ثبتاً لسيرة العبقري، ومفاصل حياته المهمة، ومنهجه، مع ذكر مقتطفات من إنجازاته وتواليفه.

أما كتابنا الثاني من هذه الموسوعة فقد تناول ثلاثة فروع من فروع المعرفة هي: الطب، التاريخ والجغرافية (باعتبار أن كلا منهما مكمل للآخر)، ثم الفلسفة. بحيث ضمّ الكتاب بين دفّتيه تأريخاً لثمانية وسبعين عبقرياً إسلامياً تنوعت تواليفهم بين هذه العلوم الثلاثة.

وفي هذا الكتاب أسقطنا ذكر بعض الأعلام النابهين والعلماء المشهورين، لأنّ ثمة ذكراً لهم ورد في الكتاب الأول، فرأينا أن نستعيض عنهم بذكر النابهين أمثالهم، ليكون العمل متمماً لما سبقه، فلا يكون في إغفالهم مضنة، ولا في إعادة ذكرهم مظنة، إلّا حيث دعت الحاجة إلى ذكر عبقري من هؤلاء العباقرة، فإذا ما كان المترجم له ألمعيًّا في فنين من الفنون، حاولنا أن نلم بالوجه الآخر من وجهي نبوغه، وبلغنا في ما أراد لنا بلوغه، من مثل ما أوردنا من فلسفة ابن رشد وطبّه، وابن طفيل في آرائه الفلسفية وعنايته الطبية العلمية، فكان لا بد لنا من ذكر بعض هؤلاء، وإن حاولنا أن ننشط للتعريف من مصادر أخرى تعين على ذلك.

في الطبّ، جمعنا بين طب المغاربة والمشارقة، وإن كان الطب في الأندلس قد تأخر قليلاً، إلّا أنّ أطباء الأندلس بلغوا مرتبة عالية في صنعتهم، وتركوا لنا تراثاً ضخماً ذاخراً لا يقل عظمة عمّا خلفه لنا أطباء المشرق، فقد أصبحت بغداد في الشرق وقرطبة في الغرب من أهم مراكز الثقافة الطبية الإسلامية، حتى إنّ قرطبة نافست عواصم الشرق الإسلامي، فأصبحت حاضرة الأندلس كعبة رجال العلم والأدب، فجذبت إليها الأوروبيين الذين وفدوا لارتشاف العلم من مناهله، والتزود من الثقافة الإسلامية.

وفي الجغرافية وصنوها التاريخ، وضع المسلمون الكتب والأسفار ووصفوا ما شاهدوه في البلدان التي وصلوا إليها وصفاً دقيقاً مبنياً على المشاهدة، وبذلك خلف لنا جغرافيو المسلمين ثروة كبيرة هي خلاصة مشاهداتهم وتجاربهم التي اكتسبوها من أسفارهم في كثير من الأقاليم والممالك. وقد امتاز جغرافيو العرب المسلمين بأنهم كانوا مؤرخين في معظم كتبهم ومقالاتهم ورسائلهم، فالجغرافي كان مؤرخاً والمؤرخ كان جغرافياً، كالذي نجده عند ياقوت الحموي في «معجم البلدان» الذي حوى وصفاً مفصلاً للأقاليم والمدن والجبال، إلى جانب التأريخ لبعض الرجال الأعلام الذين عاشوا في هذا الإقليم أو ذاك، فنقرأ الجغرافية والتاريخ والأدب أحياناً في مصنف واحد.

ثم كان لنا مع فلاسفة الإسلام وقفة في ما حاولوا فيه التوفيق بين الفلسفة والدين، فالفلسفة عند المسلمين تعني إيثار الحكمة، أو حبّ الحكمة، أي الجهد المتواصل إلى معرفة الله، والفيلسوف هو الذي يجعل الوكد من حياته والغرض من عمره الحكمة التي تعني المعرفة بالله وتتضمن المعرفة بالخير. يقول ابن رشد عن ماهية الفلسفة: «النظر في الموجودات، واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع، أعني جهة ما هي مصنوعات».

وعلى أمل أن يكون الذي قدّمنا في هذا الكتاب عوناً للباحثين في تاريخ الإسلام والمسلمين، وعباقرة العلم منهم والنابغين، نرجو أن نكون قد وفقنا ـ ولو بنذرٍ يسير ـ في تقديم بعض ما تركه لنا هؤلاء الأفذاذ من تراث يعتزُّ به العرب المسلمون في ميادين العلم والمعرفة.

والله نسأل أن نتمكّن من متابعة العمل على نشر المزيد من حياة عباقرة الإسلام في كل فن من الفنون التي برعوا فيها وانتصبوا لأجلها عمالقة في التاريخ، إنه سميع مجيب.

د. رحاب عكاوي

بيروت ١٩٩٣/٥/١

الطب عند العرب

حركة النقل في تاريخ الثقافة لا تقل أهمية عن حركة الابتكار نفسها، فلو أن أبحاث أرسطو وجالينوس وبطليموس فقدت، لكان العالم في افتقاره إليها بالوضع نفسه كما لو كانت غير موجودة أصلاً. وقد أثبت العرب أنهم لم يكتفوا باقتباس تراث فارس القديم وتراث اليونان العلمي وهضمه، بل حوّلوا هذين التراثين إلى حاجاتهم وطرق تفكيرهم الخاصة، وأضافوا إليهما ما استطاعوا أن يستنبطوه. وقد ظهرت مآثرهم في الطب والفلسفة، ولكنها تجلّت بنوع خاص في الكيمياء والفلك والرياضيات والجغرافية. بل قد تفردوا عرباً ومسلمين بمذاهب في البحث والابتكار في ميادين الشريعة وعلوم الدين وفقه اللغة وعلومها. أما الترجمات التي قاموا بها فقد طبعتها العقلية العربية بطابعها الخاص في الأجيال التي تلت، ثم اتصلت مع ما اتصل بالدول الغربية من مبتكراتهم الخاصة سالكة طريق سورية وإسبانية وصقلية، وما لبثت أن وضعت أساس حركة العلم والمعرفة التي سيطرت على العالم كله آنذاك.

لقد كان الطب معروفاً عند عرب الجاهلية تماماً كما عند غيرهم من الشعوب، لأن الطب من العلوم البدهية التي لا يستغني عنها البشر، ولعل ما يختلف عليه قومان من الأقوام في أمر الطب هو كيفية العلاج لا أهميته، ولذلك نجد أن عرب الجاهلية تداووا بأساليب مجرّبة كاستعمال الكيّ والتداوي بالأعشاب، وصولاً إلى الاستعانة بالسحر والشعبذة. وقد استمرت هذه الأساليب في طرق العلاج معمولاً بها خلال العصر الأموي، أما ما يتعلق منها بالسحر فقد طمسه الإسلام وسطوع شمس معارفه.

ولعلّ من الأمراض التي عالجها عرب الجاهلية وانتقلت طرق علاجها إلى العصر الأموي مرض الكلب، فقد ذكر الجاحظ[1] في الحيوان أن الأسود بن أوس ابن حمرة أتى النجاشي ومعه امرأته، وهي بنت الحارث، فقال النجاشي: لأعطينّك شيئاً يشفي من داء الكلب. فأقبل حتى إذا كان ببعض الطريق أتاه الموت، فأوصى امرأته أن تتزوج ابنه قُدامة بن الأسود، وأن تعلّمه دواء الكلب، ولا يخرج ذلك منهم إلى أحد، فتزوّجته وعلّمته دواء الكلب، فتوارث أبناؤه العلاج حتى العصر العباسي.

وفي عهد الخلفاء الراشدين كان الطب يمارس من قبل بعض الأعراب أحياناً، وأحياناً أخرى من غير المسلمين، وذلك أن المسلمين كانوا قد بدأوا الاختلاط بغيرهم من الأمم بعد الفتوحات العظيمة، ويُروى أن أحد الأعراب أصابته جراح في عهد الخليفة عثمان، فجيء به جريحاً إلى الخليفة فأرسل به إلى طبيب نصراني لمداواته. وهكذا نرى أن الطب عند عرب الجاهلية عرف التأثير الخارجي، مروراً بالعهد الإسلامي الذي سبق العهد الأموي، ثم دخل العصر الأموي فاستمرت المعالجة بطب الأعراب مع ما حملته الشعوب الأخرى إلى الإسلام من معارف أخرى ومنها علوم الطب آنذاك.

ففي الوقت الذي فتح فيه العرب آسيا الغربية كان الطب الإغريقي قد فقد حيويته وقوته التي كانت له من قبل، ولم يبق منه إلا تقاليد رثة في أيدي شارحي الأسفار القديمة ممّن يكتبون اليونانية أو السريانية وسواهم من محترفي مهنة الطب. وكان أطباء البلاط الأموي من هذا النفر، وقد تفرّد منهم ابن أثال طبيب معاوية وتياذوق طبيب الحجاج الذي يدل اسمه على أنه إغريقي. وقد اشتهر طبيب يهودي بصري الأصل فارسي الجنس يدعى ماسرجويه وكان يعرف السريانية، فتولى في أيام مروان بن الحكم ترجمة كناش سرياني كان قد وضعه في الأصل باليونانية قس من أهل الإسكندرية اسمه أهرون فنقله من السريانية إلى العربية، وهو أول كتاب طبي علمي بلغة الإسلام.

اهتمّ الأمويون بالطب وعملوا على نشره بين الناس، وذلك عائد إلى تفشي

(١) الحيوان ٢/١٠ ـ ١١.

بعض الأمراض في أبناء الرعية بسبب العمران وتكتل الناس في بيئات اجتماعية. فها هو والي العراق زياد ابن أبيه يكتب صفة دواء داء الكلب وعلته على باب المسجد الأعظم بالبصرة ليعرفه جميع الناس[1]. ولمّا تولّى الوليد بن عبد الملك السلطة شغف بالعمران والإصلاحات العمرانية، وكان من ضمن ما اهتمّ به بناء المستشفيات، وتخصيص مرتبات للعميان والمجذومين والزمنى[2].

وقد ذكر الشطي أنه أقام في دمشق مستشفى للمجذومين بالقرب من الباب الشرقي، ذلك لأن في ماء دمشق على ما قيل خاصّيّة دفع مرض الجذام عن أهلها فلا يصيبهم إلاّ فيما ندر، وإذا حل الغريب به تكسرت عنه عاديته أو يتوقف سيره في جسمه، ثم قال: «وذكر بعضهم أن الوليد لما ولى إسحاق بن قبيصة الخزاعي ديوان الزمنى بدمشق قال: لأدعنّ الزمن أحب إلى أهله من الصحيح، وكان يؤتى بالزمن حتى توضع في يده الصدقة»[3].

وقد ظهر اهتمام العرب بالطب وعلم الشفاء في الحديث النبوي الشريف «العلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان». وكان علم الأبدان (وهو الطب) بدائياً بسيطاً للغاية عند عرب الجزيرة، وقد اختلطت فيه العلاجات الصحيحة بالشعوذة والطلاسم التي اعتمد عليها الناس في مقاومة الإصابة بالعين. وكان من الوصفات التي أشاروا بها لمعالجة بعض الأدواء استعمال العسل أو الالتجاء إلى الحجامة أو الفصد أو غير ذلك مما تضمنته التقاليد المعروفة بطب النبي ﷺ التي توارثها الخلف عن السلف. وقد ذكر العلامة ابن خلدون في مقدمته[4] هذا النوع من الطب في شيء من الاستخفاف. وقد كان الطبيب في ذلك العهد يجمع إلى علمه بالطب معرفة بما وراء الطبيعة (علم الإلٰهيات) والفلسفة والحكمة، ومن هنا كان يطلق على من يحوز هذه العلوم لقب الحكيم. وقد كانت مهنة الطب رابحة، يدل على ذلك أن جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد والمأمون والبرامكة، كانت أملاكه ثمانية وثمانين مليوناً وثمانمائة ألف درهم[5].

---

(١) الحيوان ٢/١٣.

(٢) العيون والحدائق ٤ـ ١٢.

(٣) موجز تاريخ الطب عند العرب ص ٥.

(٤) ص ٤١٢.

(٥) أخبار الحكماء للقفطي ص ١٤٣.

لقد خطا العرب خطوات واسعة في استعمال العقاقير للتداوي، فهم أول من أنشأ حوانيت خاصة لبيع الأدوية، وأقدم من أسس مدرسة للصيدلة، بل أول من وضع الأقراباذين (كتب الأدوية). وقد ألفوا كثيراً من الرسائل في الصيدلة كان من أوائلها ما وضعه جابر بن حيّان. وكان يفرض على المطببين زمن المأمون والمعتصم أن يجتازوا امتحاناً خاصاً، وفرض على الصيادلة مثل ذلك. فقد رفع إلى المقتدر أن رجلاً من العامة جاء يتداوى فلحقه ضرر من سوء المعالجة، فأمر سنان بن ثابت بن قرة بامتحان الأطباء، وإجازة من ينجح منهم وأن يطرد من الصناعة من اتضح قلة علمه في الأمور الطبية.

وأوعز علي بن عيسى وزير المقتدر إلى سنان بأن يُنفذ جماعة الأطباء يطوفون البلاد ومعهم خزانة الأدوية والأشربة ويعالجون من يرونهم من المرضى، وأن ينفذ آخرين لزيارة المرضى في السجون. تظهر هذه المعلومات اهتمام أولي الأمر بالصحة العامة، وهو أمر لم يكن معروفاً في سائر الممالك آنذاك، ولقد نال سنان ما ناله من الشهرة بفضل الجهود التي بذلها لرفع المستوى العلمي لمهنة الطب وبفضل حسن إدارته للبيمارستان الكبير في بغداد، وهو أول بيمارستان في الإسلام، وقد أنشأه هارون الرشيد على الطراز الفارسي كما يتضح من اسمه، ولم يطل الأمر كثيراً حتى ظهر في العالم الإسلامي بيمارستانات أخرى بلغ عددها أربعة وثلاثين.

ولعلّه من الصعوبة بمكان تعيين الحد الفاصل بين الترجمة والتأليف، فقد كان معظم المترجمين واضعي كتب في الوقت عينه. وهذا ما نجده عند يوحنا بن ماسويه وحنين بن إسحاق. ويذكر أن يوحنا لمّا عجز عن الحصول على جثث بشرية للتشريح لما في ذلك من مغايرة لروح الإسلام، عمد إلى القردة فشرّحها، وكان ملك النوبة قد أهدى إلى المعتصم واحداً منها، ولم يكن تقدم علم التشريح ممكناً في مثل تلك الأوضاع إلا في بعض الفروع كدراسة العين. وقد كان انتشار مرض العين في العراق وغيره من البلدان الإسلامية الحارة داعياً إلى أن تركيز جهود الأطباء في هذه الناحية. وقد ترك لنا ابن ماسويه رسالة في معالجة أمراض العين، وكانت أقدم أثر عولج فيه هذا الموضوع بشكل علمي منظم.

ثم ظهر الأطباء المسلمون بعد عصر الترجمة، وكان منهم من أصل فارسي، كالطبري والرازي وعلي بن العباس وابن سينا. وكان الطبري هذا طبيب المتوكل، وفي عهده وضع كتابه «فردوس الحكمة» وهو من أقدم الكتب العربية في الطب. وفي هذا الكتاب أبواب تلم إلى حد ما بالفلسفة والفلك، وهو موضوع على أساس المصادر اليونانية والهندية. وكان من الذين خلفوا علياً هذا (الطبري) في الطب الفيلسوف الرازي(١).

ومع حلول هذا الزمن، أخذ الأطباء العرب بالاعتماد على مصادرهم ومنابع علومهم الخاصة بهم ويتقدمون بها بأنفسهم. فبهذا راحت العلوم الطبية تنتقل بسرعة من أيدي النصارى والصابئة إلى أيدي المسلمين، وبرزت موسوعات منتظمة صنفت فيها معارف الأجيال السابقة تصنيفاً دقيقاً عوضاً عن المجموعات المأخوذة من المصادر الإغريقية الفارسية الهندية القديمة.

وفي الوقت الذي كان فيه العالم الإسلامي في الشرق يصعد سلم السيادة الطبية تدريجاً، كان الغرب الإسلامي أيضاً بموازاة الشرق في تصدّر المركز العلمي الطبي. فنجد في الأندلس أطباء شهروا وداووا وألفوا ووضعوا الموسوعات، فأضافوا إلى التراث الطبي الإسلامي جملة من المفاخر التي اعتزّ بها الإسلام والمسلمون.

---

(١) تاريخ العرب، فيليب حتي ص ٤٣٧.

عباقرة الطب

خالد بن يزيد

ت ٩٠ هـ

خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي القرشي، أبو هاشم، حكيم قريش وعالمها في عصره، اشتغل بالكيمياء والطب والنجوم، فأتقنها وألف فيها رسائل. كان موصوفاً بالعلم والدين والعقل. قال عنه البيروني: كان خالد أول فلاسفة الإسلام. وفي سبائك الذهب ومعجم قبائل العرب أن الحمداني ذكر أقواماً في ناحية تندة وما حولها من بلاد الأشمونيين من الديار المصرية يسمّون بني خالد نسبة إلى خالد بن يزيد. وكان فاضلاً ذا همّة ومحبة للعلوم، خطر بباله حب الصنعة «الكيمياء» فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممّن كان ينزل مصر، وقد تفصّح بالعربية وأمرهم بنقل الكتب من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي، وكان هذا أول نقل في الإسلام من لغة إلى لغة. قال عنه الجاحظ: خالد بن يزيد خطيب شاعر وفصيح جامع، جيد الرأي كثير الأدب، وهو أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء.

وقد وصلنا من مؤلفات خالد بن يزيد ديوان النجوم، وهو أبيات شعرية في التنجيم، ذكر بروكلمان أن نسخة منه موجودة بمكتبة كوبرللي وثانية بمكتبة جار الله في اسطنبول، كما ذكر كرنكو أن نسخة كانت موجودة بمكتبة أنستاس الكرملي ببغداد. وقد أورد البيروني شيئاً من ديوان خالد في الفلك والحساب الفلكي، حيث قال بأنّ عدد السنين بين آدم أبي البشر والإسكندر المقدوني هو ٥١٨٠ سنة، وإن هجرة الرسول ﷺ كانت سنة ٩٣٣ للإسكندر أو ٦١١٣ لآدم، والرقم الأخير من حساب السنين هو ما ورد في شعر خالد. قال البيروني: قال خالد بن يزيد بن

معاوية، وكان أول فلاسفة الإسلام، وقيل إن علمه من الذي استخرجه دانيال من غار الكنز وهو الذي أودعه آدم ما علم:

وفي تمام العشر من أعوام ... إلى ثلاث معها تمام
ومائدة معدودة قد جمعت ... إلى ألوف سدست ونظمت
أظهر دين ربه الإسلاما ... فالتأم بالهجرة واستقاما[1]

وقد بقيت الأدوات التي استخدمها خالد في عمله بالتنجيم زمناً طويلاً بعده.

كان خالد بن يزيد من نوادر أقرانه في الثقافة الغزيرة، فقد كان خطيباً شاعراً أديباً فصيحاً. وقد كانت الثقافات الأوروبية قد بدأت تتوافد على بلاد العرب وخاصة البلاط الأموي بدمشق، حيث كان العلماء النصارى يترجمون الكتب ويحفظونها، ومن الكتب التي وصلت إلى البلاط الأموي كتاب ملك الصين الذي أهداه إلى معاوية، والذي كان محتوياً على قدر جيد من العلوم التطبيقية، وقد وصل هذا الكتاب وغيره إلى يد خالد بن يزيد، فبدأ اهتمامه بأمر العلوم الطبيعية. قال ابن النديم في الفهرست[2]: كان جواداً، يقال إنه قيل له: لقد جعلت أكثر شغلك في طلب الصنعة، فقال خالد: ما أطلب بذلك إلّا أن أغني أصحابي وإخواني، إني طمعت بالخلافة فاختزلت دوني، فلم أجد منها عوضاً إلّا أن أبلغ آخر هذه الصناعة، فلا أحوج أحداً عرفني يوماً وعرفته إلى أن يقف بباب السلطان رغبة أو رهبة. ويقال والله أعلم إنه صح له عمل الصنعة، وله في ذلك عدة كتب ورسائل، وله شعر كثير في هذا المعنى، رأيت فيه نحو خمسمائة صفحة، ورأيت من كتبه كتاب الحرارات، كتاب الصحيفة الكبير، كتاب الصحيفة الصغير، كتاب وصيته إلى ابنه في الصنعة.

وعن كتب خالد بن يزيد قال ابن خلكان: «وله فيها ثلاث رسائل تضمّنت إحداهن ما جرى له مع مريانس المذكور، وصورة تعلمه منه والرموز التي أشار إليها[3]».

---

(١) الآثار الباقية للبيروني ص ٣٠٢.
(٢) الفهرست ص ٤٩٧.
(٣) وفيات الأعيان ٢ / ٤.

ثم هناك الكتب التي ذكرها كارل بروكلمان[1]:

١ ـ ديوان النجوم.

٢ ـ رسالة الكيمياء، بمكتبة رامبور بالهند.

٣ ـ فردوس الحكمة.

٤ ـ رسائله لماريانس الراهب، بمكتبة شهيد علي باستنبول.

٥ ـ رسالة ماريانس، بمكتبة الفاتح باستنبول.

٦ ـ اختيارات خالد، وهو ديوان في الكيمياء مع مقدمة نثرية، بمكتبة لاللي باستنبول.

وتتحدث المصادر عن اهتمام خالد بن يزيد أيضاً بالطب، فتروي لنا الكتب المتأخرة أنه درس الطب على يد يحيى النحوي الملقب بالبطريق، والذي عاش بالديلم بفارس على عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وذكر بعض المؤلفين[2] أن خالداً طلب من مترجميه أن يترجموا كتب جالينوس في الطب ووضع بذلك أساس التعاليم الطبية. وسواء عرف خالد الطب على يد يحيى النحوي أو غيره، فإنه لا شك أن خالداً اهتمّ بالطب من جملة العلوم التي اهتمّ بها.

اختلفت المصادر التي ترجمت لخالد في تحديد سنة وفاته، إلى أن قال الذهبي: «وفيها ـ أي سنة ٩٠ هـ ـ على الأصح، توفي خالد بن يزيد، وذكر ابن عساكر أيضاً في التهذيب[3] أن وفاته كانت سنة ٩٠ هـ.

(١) تاريخ الأدب العربي ١ / ٢٦٣.

(٢) تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن ١ / ٥١٢.

(٣) ٥ / ١١٦.

إسحاق بن عمران
سمّ ساعة

ت حوالى سنة ٢٩٤ هـ

إسحاق بن عمران المشهور بسم ساعة(*)، بغدادي الأصل، كان معاصراً لدولة الأغالبة في إفريقية في أيام زيادة الله بن الأغلب الثالث (٢٩٠ - ٢٩٦ هـ)، وهو استجلبه وأعطاه شروطاً ثلاثة لم يفِ له بأحدها: بعث إليه عند وروده عليه راحلة أقلّته وألف دينار لنفقته وكتاب أمانٍ بخط يده، أنه متى أحب الانصراف إلى وطنه انصرف.

دخل القيروان وبه ظهر الطب في المغرب وعرفت الفلسفة، وكان طبيباً حاذقاً متميّزاً بتأليف الأدوية المركّبة، بصيراً بتفرقة العِلل، أشبه الأوائل في علمه وجودة قريحته. استوطن القيروان حيناً، وألّف كتباً منها كتابه المعروف بنزهة النفس، وكتابه في المالخوليا[١] لم يسبق إلى مثله، وكتابه في الفصد، وكتابه في النبض[٢]. ودارت له مع زيادة الله بن الأغلب محنة أوجبت الوحشة بينهما.

وكان إسحاق قد استأذنه في الانصراف إلى بغداد فلم يأذن له، وكان إسحاق يشاهد أكل ابن الأغلب، فيقول له: كل هذا ودع هذا، حتى ورد على ابن الأغلب حَدَث يهودي أندلسي، فاستقربَه وخفّ عليه، وأشهدَه أكله، فكان إذا قال إسحاق

(١) وردت في عيون الأنباء والمسالك «المالنخوليا» وهي المرض المعروف بالسوداوي ومرض الوسواس، ويسمى الآن طبياً النوروستانيا «Neurasthenie» ويرد اسم هذا المرض في الكتب العربية على أشكال مختلفة منها: «مالنخونية» و «مالنخوليا» و«ملخوليا».

(٢) وزاد عليها ابن البيطار مصنفاً بعنوان «العنصر والتمام» في المادة الطبية، ألفه برسم زيادة الله الثالث ونقل منه كثيراً في كتابه «الجامع في الأدوية المفردة».

(*) في عيون الأنباء، ص ٤٧٨: ويعرف باسم ساعة.

له: اترك هذا لا تأكله، قال اليهودي: نُصلحه عليك. وكـان بابن الأغلب علة النسَمة، وهي ضيق النفس، فقدِّم بين يديه لبن مُريّب، فهمّ بأكله فنهاه إسحاق، وسهّل عليه اليهودي، فوافقه بالأكل، فعرض له في الليل ضيق نفس حتى أشرف على الهلاك. فأرسل لإسحاق، وقيل له: هل عندك من علاج؟ فقال: قد نهيْته فلم يقبل مني، ليس عندي علاج. فقيل لإسحاق: هذه خمسمائة دينار وعالج، فأبى حتى انتهى إلى ألف مثقال، فأخذها وأمر بإحضار الثلج، وأمره بالأكل منه حتى يمتلىء، ثم قيّأه فخرج جميع اللبن قد تجبّن ببـرد الثلج. فقال إسحـاق: أيها الأمير، لو وصل هذا اللبن إلى أنابيب رئتك ولحج فيها أهلكك بتضييقه للنفس، لكني أجمدته وأخرجته قبل وصوله. فقال زيادة الله: باع إسحاق روحي في النداء، اقطعوا رزقه، فلما قطع عنه الرزق، خرج إلى موضع فسيح من رحاب القيروان ووضع هناك كرسيّاً ودواة وقراطيس، فكان يكتب الصفات كل يوم بدنانير، فقيل لزيادة الله: عرضت بإسحاق للغنى فأمر بضمّه إلى السجن، فتبعه الناس هناك، ثم أخرجه بالليل إلى نفسه.

وكانت له معه حكايات ومعاتبات، حتى غضب عليه زيادة الله وأمر بفصده في ذراعيه جميعاً وسال دمه حتى مات وأمر بصلبه على الجذع الذي كان صلب عليه الفزاري[١]. وقد ذكر أبو جعفر أحمد بن إبراهيم[٢] قال: طال مقام إسحاق مصلوباً حتى عشّش في جوفه صقر لطول مقامه. وكان طويل اللحية فما تساقط شعرها، ولقد كان يهتز بالـريح. وكـان مما قـال لزيـادة الله في تلك الليلة: يا ملخوني، والله إنك لتُدعى سيد العرب، وما أنت لها بسيد، ولقد سقيتك منذ دهر دواء ليفعلن في عقلك، وكان زيادة الله مجنوناً فتملخن[٣] ومات.

---

(١) هو إبراهيم الفزاري، كان من أهل المناظرة والجدل، رُمي بالتعطيل وأشهد عليه أنه يستهزىء بالله وكتابه وأنبيائه ونبيه محمد ﷺ وحكم عليه القاضي أبو العباس عبدالله بن طالب بن سفيان الذي تولى القضاء في القيروان بالصلب، فطعن بسكين في حنجرته وصلب منكساً ثم أنـزل بعد ذلـك وأحرق بالنار.

(٢) هو الطبيب الذي أوردنا ذكره، المعروف بابن الجزار، والمرجح أنه ذكر الخبر في كتابـه «أخبار الدولة» وهو في ظهور دولة العبيديين وابتداء حكم أبي محمد عبيدالله المهدي في المغرب.

(٣) ذكر بعض المعلقين على الأصل فوق هذه الكلمة: «أساء الأدب، وخان من وجده، فليس بحكيم،=

ولإسحاق بن عمران من الكتب أيضاً:
- كتاب الأدوية المفردة.
- كتاب العنصر والتمام في الطب.
- مقالة في الاستسقاء.
- مقالة في علل القولنج وأنواعه وشرح أدويته.
- كتاب في البول من كلام أبقراط وجالينوس وغيرهما.
- كتاب جمع فيه أقاويل جالينوس في الشراب.
- كلام له في بياض المعدة ورسوب البول وبياض المني.
- مقالة وجيزة كتب بها إلى سعيد بن توفيل المتطبب في الإبانة عن الأشياء التي يقال إنها تشفي الأسقام وفيها يكون البرء مما أراد إتحافه به من نوادر الطب ولطائف الحكمة.

= وله من اسمه (أي سم ساعة) نصيب».
وتملخن مشتق من المالنخوليا.

سعيد بن عبد ربِّه

ت نحو ٣٤٢ هـ

سعيد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد ربّه، أبو عثمان، وهو ابن أخي صاحب العقد الفريد أحمد بـن عبد ربّه. أندلسي، كان طبيباً نبيلاً شاعراً أديباً، منقبضاً عن الملوك لم يخدم أحداً منهم. له في الطب رجزٌ أحسن فيه، دلّ على تمكّنه من العلم ودرايته بمذهب[١] القدماء، وكان مذهبه في مداواة الحميّات أن يخلط بالمبردات شيئاً من الحوار[٢] ولـه في ذلك مـذهب جميل، وكـان بصيراً بتقدمة المعرفة وتغيير الأهوية ومهب الرياح وجرية[٣] الكواكب.

حدّث عنه سليمان بن أيوب الفقيـه[٤]، قال: اعتللتُ بحمّى، فـطاولتني وأشرفت منها، إذ مرّ بأبي وهو يمرُّ إلى صاحب المدينة[٥] أحمد بن عيسى[٦] فقام إليه أبي، وقضى واجب حقّه بالسلام عليه، ثم سأله عن علّتي، فاستخبر أبي عما عولجتُ به فأخبره، فسفّه علاج من عالجني، وبعث إلى أبي بثمـاني عشرة حبة من حبوب مدوّرة، وأمر أن أشرب منها كل يوم شيئاً، فما استوعبتها حتى أقلعت الحمّى وبرئت برءاً تامّاً.

---

(١) وتحققه بمذاهب في العيون والطبقات.

(٢) وهي الحارّة. وفي نسخة وردت «الحرار».

(٣) وحركة، في عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة.

(٤) هو أبو أيوب سليمان بن أيوب بن سليمان بن حكم بن عبد الله بن بلكايش القوطي، من أهل قرطبة، توفي سنة ٣٧٧ هـ.

(٥) هو صاحب الشرطة أيضاً، وكان يُسمى الحاكم. والذي جاز بأبيه هو أبو عثمان الطبيب.

(٦) أحمد بن عيسى بن أبي عبدة، ولاه الناصر عبد الرحمن منصب صاحب المدينة سنة ٣١٥ هـ.

وقصد في بعض الأيام فبعث إلى عمه أحمد (وهو الشاعر الأديب أحمد) أن يحضره فلم يجبْه إلى ذلك، وأبطأ عنه، فكتب إليه:

لمّا عدمتُ مؤانساً وجليسا ... نادمتُ بقراطاً وجالينوسا
وجعلتُ كتبهما شفاء تفرّجي ... وهما الشفاء لكل جرحٍ يوسا
ووجدتُ علمهما إذا حصّلته ... يُذكي ويحيي للجسوم نفوسا

فأوصل الأبيات إلى عمّه أحمد، فجاوبه بأبيات منها:

ألفيت بقراطاً وجالينوسا ... لا يأكلان ويزرءان جليسا
فجعلتهم دون الأقارب جُنّةً ... ورضيت منهم صاحباً وأنيسا
وأظنّ بخلك لا يُرى لك تاركاً ... حتى تجالسَ بعدهم إبليسا

وأنشد العايدي[1] قال: أنشدني ابن عبد ربّه لابن أخيه أبي عثمان:

أمِن بعد غوصي في علوم الحقائق ... وطول انبساطي في مواهبِ خالقي
وفي حين إشرافي على ملكوته ... أُرى طالباً رزقاً إلى غير رازقِ
فأيام عمر المرءِ متعة ساعةٍ ... تمرُّ سريعاً مثل لمعة بارقِ
وقد آذنتُ نفسي بتقويض رَحْلها ... وأعنف في سوقي إلى الموتِ سائقي
وإني وإن بُقّيت أو زُغت هارباً ... من الموت في الآفاق فالموت لاحقي

وكان متقدماً في صناعته، وعمِيَ أخريات أيامه. توفي سنة ٣٤٢ هـ.

مؤلفاته:

- أرجوزة في الطب.
- الأقراباذين، وهو تعاليق ومجرّبات.

(١) هو أبو زكريا يحيى بن مالك بن عايد (أو عائذ)، ويعرف بالعايدي من أهل طرطوشة (٣٠٠ - ٣٧٥ هـ).

ابن الجزّار، أبو جعفر

ت نحو ٣٥٠ هـ

أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد الجزار، قيرواني الدار، طبيب ابن طبيب، وعمه أبو بكر[١]. كان ممّن لقي إسحاق بن سليمان وصحبه، وله في الطب تواليف عجيبة. وكان من أهل الحفظ والتطلع والدراسة للطب وسائر العلوم، وله تآليف في غير الطب، كتأليفه التواريخ[٢] وتأليفه كتاب الفصول والبلاغات[٣]. وكان قد أخذ بنفسه مأخذاً عجيباً في سمته وهديه وقعوده، ولم تحفظ عليه بالقيروان زلّة قط، ولا أخلد إلى لذّة. وكان يشهد الجنائز والعرائس ولا يأكل فيها، ولم يركب إلى أحد من رجال إفريقية، ولا إلى سلطانها، إلاّ إلى أبي طالب[٤] عم معد[٥]، كان له صديقاً. وكان يركب إليه كل جمعة لا غير. وكان ينهض في كل عام إلى المنستير ـ رابطة على البحر ـ فيكون هنالك طول أيام القيظ، ثم ينصرف إلى إفريقية. وكان قد وضع على باب داره سقيفة، أقعد فيها غلاماً له يسمى برشيق، أعدّ بين يديه جميع المعجونات والأشربة والأدوية، فلما رأى القوارير بالغداة أمر بالجواز إلى الغلام وأخذ الأدوية منه، نزاهة بنفسه أن يأخذ من أحد شيئاً.

حدّث عنه ثقة قال: كنت عنده غداة في دهليزه وقد غصّ بالناس، إذ أقبل

(١) أبو بكر محمد بن أبي خالد الجزار، عاش في النصف الأول من القرن الرابع له عدة أدوية من أشربة ومعاجين وترياقات ذكر بعضها ابن أخيه أحمد في كتاب «طب المشايخ».

(٢) له في التاريخ كتاب «التعريف بصحيح التاريخ» و«أخبار الدولة» و«مغازي إفريقية» وعجائب البلدان».

(٣) لم يرد ذكره في الكتب التي ترجمت للأطباء وطبقاتهم وأخبارهم.

(٤) هو أحمد بن عبيدالله المهدي.

(٥) هو الخليفة المعزّ لدين الله أبو تميم معد، مؤسس دولة الفاطميين بمصر. توفي سنة ٣٦٥ هـ.

ابن أخي النعمان القاضي [١]، وكان حدثاً جليلاً بإفريقية يستخلفه إذا منعه مانع من الحكم، فلم يجد في الدهليز موضعاً يجلس فيه، إلّا مجلس أبي جعفر، فخرج أبو جعفر، فقام له ابن أخي القاضي على قدم، فما أقعده ولا أنزله، وأراه قارورة بماء كانت معه لابن عمه ولد [٢] النعمان، واستوفى جوابه عليها وهو واقف، ثم ركب ونهض وما كلدح ذلك في نفسه، وجعل يتكرّر عليه بالماء في كل يوم حتى برىء العليل.

قال الثقة: فكنت عنده ضحوة نهار، إذ أقبل رسول النعمان القاضي بكتابٍ يشكره فيه على ما تولّى من علاج ابنه، ومعه منديل بكسوة وثلاثمائة مثقال، فقرأً الكتاب وجاوب شاكراً ولم يقبض المال والكسوة. فقلت له: أبا جعفر، رزق ساقه الله إليك، تردّه! قال لي: والله لا كان لأحد من رجال دولة معد قِبَلي نعمة.

عاش نيّفاً وثمانين سنة. ولما مات وُجد له أربعة وعشرون ألف دينار، وخمسة وعشرون قنطاراً من كتب طبية وغيرها. وكان قد همّ بالرحلة إلى الأندلس، ولم ينفذ ذلك، وكان في دولة معدّ. توفي سنة (نحو ٣٥٠ هـ).

مؤلفاته:

- زاد المسافر.
- الاعتماد في الأدوية المفردة.
- البغية في الأدوية المركّبة.
- ذم إخراج الدم.
- رسالة في النفس.
- أسباب الوباء بمصر والحيلة في دفعه.
- طب الفقراء.

---

(١) هو أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور بن حيون. صحب المعز لدين الله الفاطمي عند دخوله مصر وتولى القضاء بها. توفي بمصر سنة ٣٦٣ هـ.

(٢) للقاضي النعمان ولدان هما: أبو الحسن علي بن النعمان توفي سنة ٤٧٣ هـ، وأبو عبيدالله محمد بن النعمان توفي سنة ٣٨٩ هـ.

أحمد بن يونس وأخوه عمر

القرن الرابع الهجري

أحمد بن يونس وأخوه عمر، ابنا يونس بن أحمد الحراني

رحلا إلى المشرق في دولة الناصر في سنة ثلاثين وثلاثمائة ، وأقاما عشرة أعوام، ودخلا بغداد، وتأدّبا هنالك بالطب، وخدما الرؤساء منهم: ثابت بن سنان بن قرة[1]، وقرأا عليه كتب جالينوس عرضاً. وخدما ابن وصيف[2] في عمل علل العين. ثم انصرفا إلى الأندلس ودخلاها في دولة المستنصر في سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة وغزوا معه غزاته إلى شنت استبين[3] وانصرفا، وألحقهما لخدمته بالطب وسكّنهما مدينة الزهراء واستخلصهما لنفسه دون غيرهما ممن كان في ذلك الوقت من الأطباء، ومات عُمر بعلة المعدة، وَرِمتْ له فلحقه ذبول من أجلها ومات، وبقي أحمد مُستخلصاً، وسكّنه المستنصر في قصره وكان لطيف المكانة عنده. كان يقعد بين يديه في غلالة في الصيف، وكان يرتب أكله بين يديه، وكذلك كان يصل إلى أمير المؤمنين، وكان عنده أميناً مؤتمناً يطلعه على العيال والكرائم، وكان رجلاً صحيح العقل حليماً عالماً بما شاهد علاجه ورآه عياناً بالمشرق.

حدّث عن نفسه قال: وصفت لأمير المؤمنين المستنصر بالله حوانيت (رأيت

---

(١) أحد أفاضل الأطباء والمؤرخين، انتهت إليه رئاسة بيمارستان بغداد، توفي سنة ٣٦٥ هـ.

(٢) ابن وصيف الصاري، كان طبيباً ببغداد في حدود سنة ٣٥٠ هـ. وجاء في عيون الأنباء أن اسمه أحمد بن وصيف الحراني.

(٣) من بلاد الأندلس، مدينة حصينة تحت أصل جبل ممتنع، وكانت غزاة المستنصر لها سنة ٣٥٢ هـ، عندما طمع الجلالقة - وهم ملوك الأندلس النصارى - في الثغور، وهزمهم واستباحهم.

بالبصرة للطباخين وإتقانها) وحسن ترتيب الأطعمة، وأنها موضوعة في غضاير[1] وعليها مكاب الزجاج، ولهم خدّام وقوف بالمناديل والأباريق، والحوانيت مسطحة بالرخام الملون، الفائت في الحسن. فركب المستنصر يوماً من الزهراء إلى قرطبة، وأنا في موكبه، فلما أتى المدى - موضع الطباخين - نظر إلى الملل[2] التي يطبخ فيها الشحوم فتأمّلها، فلما نزل القصر، افتقدني، فأوصلني إلى نفسه، وقال لي: يا أحمد! أين هذه الملل من تلك الغضاير التي بالبصرة؟ وضحك على ذلك ثم قال لي: ما في تلك الملل؟ فقلت له: أطراف وشحوم يا أمير المؤمنين، فضحك على ذلك وعجب منه.

تولى إقامة خزانة بالقصر للطب لم يكن قط مثلها، ورتب لها اثني عشر صبيّاً من الصقالبة طباخين للأشربة، صانعين للمعجونات، واستأذن أمير المؤمنين أن يُعطِيَ منها من احتاج من المساكين والمرضى، فأباح له ذلك. وكان بصيراً بالأدوية المفردة، وصانعاً للأشربة والمعجونات، معالجاً لما وقف عليه. وكان يداوي العين مداواة نفيسة وله بقرطبة في ذلك آثار.

وكان لا يعذر أهل الدنيا في الإرسال إليه بالمال عند علاجه لهم. وكان يواسي بعلمه صديقه وجاره ورجلاً مسكيناً. وولاّه المؤيد بالله خطّة الشرطة وخطّة السوق. وكان بكيء[3] اللسان، رديء الخط، لا يقيم هجاء حروف كتابه. مات بالحمى الربعية (حمّى الربع)[4] وعلة الإسهال.

---

(١) صحاف متخذة من الطين الأخضر اللازب الحر.

(٢) الملة: الرماد الحار والجمر، والجمع ملل.

(٣) ألكن اللسان في عيون الأنباء. وبكيء: ألكن أيضاً.

(٤) وهي الحمى السوداوية.

أحمد بن أبي الأشعث

ت نحو ٣٦٦ هـ

أبو جعفر أحمد بن محمد بن أبي الأشعث، كان وافر العقل، سديد الرأي محبّاً للخير، كثير السكينة والوقار، متفقهاً في الدين، وعمر عمراً طويلاً وله تلاميذ كثر. وكان فاضلاً في العلوم الحكمية متميزاً فيها، وله تصانيف كثيرة تدل على ما كان عليه من العلم وعلو المنزلة. وله كتاب في العلم الإلٰهي في نهاية الجودة. كان عالماً بكتب جالينوس خبيراً بها، متطلعاً إلى أسرارها، وقد شرح كثيراً من هذه الكتب، وهو الذي فصل كل واحد من الكتب الستة عشر إلى جمل وأبواب وفصول، وقسمها تقسيماً لم يسبقه إلى ذلك أحد غيره. وفي ذلك معونة كثيرة لمن يشتغل بكتب الفاضل جالينوس، وفصّل أيضاً كثيراً من كتب أرسطو طاليس وغيره.

ذكر عبيدالله بن جبرائيل بن بختيشوع قال: ذكر لي من خبر أحمد بن أبي الأشعث أنه لم يكن منذ ابتدأ عمره يتظاهر بالطب، بل كان متصرفاً وصودر، وكان أصله من فارس، فخرج من بلده هارباً ودخل الموصل بحالة سيئة من العري والجوع. واتفق أنه كان لناصر الدولة ولد عليل في حالة من قيام الدم والأغراس، وكان كلما عالجه الأطباء ازداد مرضه، فتوصّل إلى أن دخل عليه وقال لأمه أنا أعالجه. وبدأ يريها غلط الأطباء في التدبير، فسكنت إليه، وعالجه فبرأ، وأعطي وأحسن إليه، وأقام بالموصل إلى آخر عمر، واتخذ له تلاميذ عدة، إلّا أن الخاص به والمتقدم عنده كان أبو الفلاح، وبرع في صناعة الطب.

وكانت وفاة أحمد بن أبي الأشعث في سنة ثلاثمائة ونيف وستين للهجرة، وكان له عدة أولاد، عرف منهم واشتهر في صناعة الطب ولده محمد.

وله من الكتب: كتاب الأدوية المفردة، ثلاث مقالات، وكان السبب الباعث له على تصنيفه قوم من تلامذته سألوه ذلك، وهذا نص كلامه في صدر الكتاب: «سألني أحمد بن محمد البلدي أن أكتب هذا الكتاب، وقديماً كان سألني محمد بن ثواب، فتكلمت في هذا الكتاب بحسب طبقتهما وكتبته إليهما وبدأت به في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة.

- كتاب الحيوان.

- كتاب العلم الإلٰهي، مقالتان فرغ من تأليفه في ذي القعدة سنة خمس وخمسين وثلاثمائة.

- كتاب في الجدري والحصبة والحميقاء، مقالتان.

- كتاب في السرسام والبرسام ومداواتهما، ثلاث مقالات، صنفه لتلميذه محمد بن ثواب.

- كتاب في القولنج وأصنافه ومداواته والأدوية النافعة منه، مقالتان.

- كتاب في البرص والبهق ومداواتهما، مقالتان.

- كتاب في الصرع، وكتاب ثانٍ في الصرع.

- كتاب في الاستسقاء.

- كتاب في ظهور الدم، مقالتان.

- كتاب الماليخوليا.

- كتاب تركيب الأدوية.

- مقالة في النوم واليقظة كتبها إلى أحمد بن الحسين بن زيد بن فضالة البلدي بحسب سؤاله على لسان عزور ابن الطبيب اليهودي البلدي.

- كتاب الغاذي والمغتذي، مقالتان، فرغ من تأليفه بقلعة برقى من أرمينية في صفر سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة.

- كتاب أمراض المعدة ومداواتها.

- شرح كتاب الفرق لجالينوس، مقالتان، فرغ منه في رجب سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة.

- شرح كتاب الحمّيات لجالينوس.

التميمي

ت نحو ٣٨٠ هـ

أبو عبدالله محمد بن سعيد التميمي، كان مقامه أولاً بالقدس ونواحيها، وله معرفة جيدة بالنبات وماهياته والكلام فيه. وكان متميزاً أيضاً في أعمال صناعة الطب والاطلاع على دقائقها، وله خبرة فاضلة في تركيب المعاجين والأدوية المفردة، واستقصى معرفة أدوية الترياق الكبير الفاروق وتركيبه وركب منه شيئاً كثيراً على أتم ما يكون من حسن الصنعة. انتقل إلى الديار المصرية وأقام بها إلى أن توفي. وكان قد اجتمع في القدس بحكيم راهب فاضل يقال له أنبا زخريا بن ثوابه. وكان هذا الراهب يتكلم في شيء من أجزاء العلوم الحكمية والطب، وكان مقيماً في القدس في المائة الرابعة من الهجرة وكان له نظر في أمر تركيب الأدوية. ولما اجتمع به محمد التميمي لازمه وأخذ عنه فوائد وجملاً كثيرة مما يعرفه، وقد ذكر التميمي في كتابه «مادة البقاء» صفة سفوف الرجفان الحادث عن المرة السوداء المحترقة، وذكر أنه نقل ذلك عن أنبا بن زخريا.

وقال جمال الدين بن القفطي في كتاب «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» إن التميمي محمد بن أحمد بن سعيد كان جده سعيد طبيباً، وصحب أحمد بن أبي يعقوب مولى ولد العباس، وكان محمد من بيت المقدس، وقرأ علم الطب به وبغيره من المدن التي ارتحل إليها. وكان له غرام وعناية تامة في تركيب الأدوية وحسن اختيار في تأليفها، وعنده غوص على أمور هذا النوع، واستغراق في طلب غوامضه، وهو الذي أكمل الترياق الفاروق بما زاده فيه من المفردات، وذلك بإجماع الأطباء على أنه الذي أكمله. وله في الترياق عدة تصانيف ما بين كبير ومتوسط وصغير. وقد كان مختصاً بالحسن بن عبدالله بن طغج المستولي على

مدينة الرملة، وما انضاف إليها من البلاد الساحلية، وكان مغرماً بما يعالجه من المفردات والمركبات. وعمل له عدة معاجين ولخالخ[1] طبية ودخناً دافعة للوباء وسطر ذلك في أثناء مصنفاته. ثم أدرك الدولة العلوية[2] عند دخولها إلى الديار المصرية وصحب الوزير يعقوب بن كلس[3] وزير المعز والعزيز، وصنّف له كتاباً كبيراً في عدة مجلدات سماه «مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء» وكل ذلك بالقاهرة المعزية. ولقي الأطباء بمصر ونـاظرهم، واختلط بأطباء الخاص القادمين من أهل المغرب في صحبة المعز عند قدومه والمقيمين بمصر من أهلها.

ولما كان التميمي ببلده بيت المقدس معانياً لصناعة الطب وأحكام التركيبات، صنف وركب ترياقاً سماه «مخلص النفوس» وقال فيه: «هذا ترياق ألفته بالقدس وأحكمت تركيبه، مختصر نافع الفعل، دافع لضرر السموميات القاتلة المشروبة والمصبوبة في الأبدان بلسع ذوات السم من الأفاعي والثعابين وأنواع الحيات المهلكة السم، والعقارب والجرارات وغيرها، وذوات الأربع والأربعين رِجلاً، ومن لدغ الرتيلاء والعظايات، مجرب ليس له مثل». ثم ساق مفرداته وصورة تركيبه في كتابه المسمى بمادة البقاء. ولما كان بمصر صنف جوارشن وركبه وسماه: «مفتاح السرور من كل الهموم ومفرح النفس» ألفه لبعض إخوانه بمصر، وذكر صورة تركيبه وأسماء مفرداته، غير أنه ركّبه بمصر وسماها الفسطاط، اسمها الأول في زمن عمرو بن العاص عند افتتاحها، وذلك مذكور في كتابه مادة البقاء، وكان التميمي موجوداً بمصر في سنة سبعين وثلاثمائة.

وللتميمي من الكتب:

- رسالة إلى ابنه عليّ بن محمد في صنعة الترياق الفاروق، والتنبيه على ما

(١) مراهم وأطلية.

(٢) الفاطمية.

(٣) يهودي من بغداد (٩٣٠ - ٩٩١) اشتهر بإدارته المالية، أصبح وزيراً للخليفة الفاطمي، وأسلم وأصبح حجة في العلوم الإسلامية.

يغلط فيه من أدويته، ونعت أشجاره الصحيحة وأوقات جمعها وكيفية عجنه وذكر منافعه وتجربته.

- كتاب آخر في الترياق، وقد استوعب فيه تكميل أدويته وتحرير منافعه.
- كتاب مختصر في الترياق.
- كتاب في مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرر من ضرر الأوباء، صنّفه للوزير أبي الفرج يعقوب بن كلس بمصر.
- مقالة في ماهية الرمد وأنواعه وأسبابه وعلاجه.
- كتاب الفاحص والإخبار.

ابن جلجل

ت بعد ٣٨٤ هـ

سليمان بن حسان أبو داود المعروف بـابن جلجل، هكـذا ورد اسمه في جميع المصادر التي ترجمت له، ولم تقدم هذه المصادر لنا من أسماء آبائه وأجداده أكثـر من هذا القـدر. حتى إن بعض الكتب ترجمت لأخيـه محمـد بن حسـان المعروف بابن جلجل أيضاً ولم تزد شيئاً عن اسمه واسم أبيه. وهذه الشهرة التي عرف بها لم يعرف أحد تسمى بها أو نسب إليها من رجال الأندلس أو المشرق، على كثرة المصادر التي تذكر هذه الأسماء. وأغلب الظن أن هذا الاسم أو الشهرة رغم أنَّ له معنى في اللغة العربية وهو «الجرس»، فهو اسم لاتيني إسباني لأحد أجداده على نحو عربي، ومعنى ذلك أن ابن جلجل يمكن أن يكون من المسلمين الذين دخل أجدادهم في الإسلام بعد افتتاح الأندلس.

وقد اصطلحت كتب التراجم الأندلسية على أن تترجم لكثيـر من العلماء بأسمائهم العربية، ثم تذكر «ويعرف بابن فلان». وبالعـودة إلى بعض هؤلاء في صفحات الترجمة نجد أن الأسماء التي يعرفون بها هي أسماء إسبانية من مثل: ابن بشكـوال وابن غـرسيـه وابن فيـره وابن البغـونش وابن قـطيـل وابن قـوشـره وابن فورتش وابن غوتيل وابن سيده وابن قزمان. إن هذه الأسماء من غير شك ليست عربية، بعضها معروف بأصله اللاتيني، فنـذكر اسم غـرسيه Gracia وبشكـوال Pascual وفيره Ferro وفورتش Fortes والقوطية Gothica. ومن الدلائل على أن من عرف آباؤهم أو أجدادهم بأسماء لاتينية أنهم من أصل إسباني، أننا نرى الكتب التي ترجمت لهم لا تعطينا أكثر من اسمين أو ثـلاثة أسمـاء عربيـة في سلسلة أسمائهم، مع أن بعضهم من رجال القرن الرابع أو الخامس، في حين أننا نجد في

تراجم العلماء الذين من أصل عربي سلسلة من الأسماء العربية قد تصل إلى الستة أو السبعة وقد تزيد، وهذا يعود إلى عناية العرب المعروفة بالأنساب والأحساب.

إن جميع المصادر التي ترجمت لابن جلجل لم تقدم لنا إلّا نذراً يسيراً عن سيـرة حياته ودراسته وشيوخه، والبارز أن المصادر كافة لم تعط تاريخاً لميلاده أو سنة محدودة لوفاته، باستثناء ابن الأبار في كتابه «التكملة»[1] الذي قدم لنا أهم ترجمة عن ابن جلجل تضمنت حياته ودراسته وأسماء شيوخه وتلاميـذه وتاريـخ مولده فقط. يقول ابن الأبار في ترجمة ابن جلجـل لنفسه: «سليمـان بن حسان المتطبب، من أهل قرطبة، يعرف بابن جلجل، ويكنّى أبا أيوب، سمع الحديث بقرطبة في سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة وهو ابن عشر سنين من أبي بكر أحمد بن الفضل الدينوري[2] وأبي الحزم وهب بـن مسرة[3] بمسجد أبي علاقة وبجـامع قرطبة والزهراء وغيرهما مع أخيه محمد بن حسان.

ثم تـرعرع وسمـع أحمد بن سعيـد الصدفي المنتجـالي[4] وأبـا عبـدالله محمد بن هلال[5] وأبا إبراهيم إسحاق بـن إبراهيم[6] والأسعد بن عبد الوارث[7]، وأخذ العربية عن محمد بن يحيى الرباحي[8]، قرأ عليه كتاب سيبويه في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وهو آخر القراءة عليه، وفي تلك السنة كانت وفاته، وصحب

---

(١) وردت ترجمة ابن جلجل في القسم الذي نشر من التكملة في مدريد سنة ١٩١٥، وهو لم ينشر في طبعة ١٨٨٣.

(٢) البهراني الدينوري الخفاف، دخل الأندلس سنة ٣٤١ هـ وتوفي بقرطبة سنة ٣٤٩ هـ.

(٣) كان حافظاً فقيهاً بصيراً بالحديث مع ورع وفضل. أقام بقرطبة وتوفي سنة ٣٤٦ بوادي الحجارة.

(٤) أبو عمر احمد بن سعيد بن حزم بن يونس الصدفي، من أهل قرطبة، عني بالآثار وسنن وجمع الاحاديث، ورحل إلى المشرق سنة ٣١١ هـ ثم رجع إلى الأندلس. ولد سنة ٢٨٤ وتوفي سنة ٣٥٠.

(٥) من محدثي قرطبة بجامعها.

(٦) لعله المعروف بالفارابي وكان أديباً غزير مادة العلم، توفي نحو سنة ٣٥٠ هـ.

(٧) أبو القاسم الأسعد بن عبد الوارث بن يونس بن محمد القيسي من أهل قرطبة، كان معلم كتاب وسمع الحديث عن شيوخ عصره.

(٨) هو محمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدي النحوي المعروف بالرباحي، من أهل قرطبة وأصله من جيّان. رحل إلى المشرق وسمع من أعلام عصره. كان فقيهاً إماماً موثوقاً. توفي سنة ٣٥٨ هـ.

أبا بكر بن القوطية[1] وأبا أيوب سليمان بن محمد الفقيه[2] وغيرهما، وعني بطلب الطب فغلب عليه وعرف به وبلغ منه الغاية وطلبه وهو ابن أربع عشرة سنة وأفتى فيه وهو ابن أربع وعشرين. وألف كتاباً حسناً في طبقات الأطباء والحكماء وفرغ منه في صدر سنة سبع وسبعين وثلاثمائة، ومولده سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة. روى عنه سعيد بن محمد الطليطلي المعروف بابن البغونش[3]، ذكر ذلك صاعد القاضي، وذكره أبو محمد بن حزم في رسالته».

وقد كان ابن جلجل شديد العناية بتحصيل العلوم المختلفة، فقد سمع الحديث على أساتذة عصره من المحدّثين، وتلقى النحو وعلوم العربية على أستاذ عصره الرباحي الذي رحل إلى المشرق ولقي أئمة العلم فيه، وحمل عنهم بعض الكتب الهامة بالرواية ومنها كتاب سيبويه الذي كان ابن جلجل آخر من قرأه عليه من تلاميذه سنة ٣٥٨ هـ ومات الرباحي كما ذكرنا في هذه السنة. وكانت عنايته بالطب ودراسته والاشتغال به في سن مبكرة بدأ بطلبه في الرابعة عشرة، وأفتى فيه في الرابعة والعشرين، وفيه وفي رجاله كانت مؤلفاته، ومع أنه كان خبيراً بالمعالجات جيد التصرّف في صناعة الطب، فإنه كان على علم كبير بقوى الأدوية المفردة وصناعتها وتركيبها.

ورغم أن ابن جلجل عاصر عبدالرحمن الناصر والحكم المستنصر وأسهم في عصرهما بقسط كبير من علمه ومجهوده، إلاّ أنه نبغ واشتهر في ولاية المؤيد بالله هشام الأول (٣٦٦ ـ ٣٩٩ هـ) الذي كان طبيبه الخاص، وألف في عهده أكثر كتبه، ومنها كتابه تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدوس الذي ألفه بمدينة قرطبة في ربيع الآخر سنة ٣٧٢ هـ وكتاب «طبقات الأطباء والحكماء».

---

(١) هو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن القوطية صاحب كتاب «الأفعال» و«تاريخ افتتاح الأندلس». كان عالماً بالنحو حافظاً للغة متقدماً فيهما على أهل عصره. توفي سنة ٣٦٧ هـ.

(٢) أبو أيوب سليمان بن محمد بن سليمان مولى لهمذان، من أهل شذونة. رحل إلى المشرق سنة ٣٣٤ هـ ورجع إلى الأندلس سنة ٣٣٧ هـ. من مواليد سنة ٣٣٠، توفي سنة ٣٧١ هـ.

(٣) أبو عثمان سعيد بن محمد الطليطلي المعروف بابن البغونش. من أهل طليطلة. رحل إلى قرطبة وتلقى علوم الطب فيها على ابن جلجل ومحمد بن عبدون الجبلي العددي. ولد سنة ٣٦٩ وتوفي سنة ٤٤٤ هـ.

لم تذكر المصادر التي ترجمت لابن جلجل تاريخ وفاته، سوى ما ذكره حاجي خليفة في «كشف الظنون» من أنه توفي بعد سنة ٣٧٢ هـ، وهو التاريخ الذي ذكر ابن جلجل أنه ألف فيه كتابه «تفسير أسماء الأدوية المفردة». أما باقي المصادر فتذكر أنه كان طبيب المؤيد بالله هشام بن الحكم، وهو ما ذكره ابن جلجل في كتابه المذكور.

وإذا كانت المصادر نفسها لم تذكر في أي سنة مات ابن جلجل في ولاية المؤيد الأولى، والتي طالت ثلاثة وثلاثين عاماً، إلّا أنه من المعروف أنه ألف كتابه «طبقات الأطباء والحكماء» في صدر سنة ٣٧٧ هـ، كما يذكر ابن الأبار في التكملة نقلاً عن ابن جلجل نفسه في ترجمته، والمعروف أيضاً أن من تلاميذه سعيد بن محمد الطليطلي المعروف بابن البغونش المولود سنة ٣٦٩ هـ المتوفى سنة ٤٤٤ هـ، ولد في طليطلة وارتحل إلى قرطبة لتلقي العلم، وإذا افترضنا أنه بدأ دراسة الطب بحيث كان سنه خمسة عشر عاماً، وهي السن التي بدأ فيها ابن جلجل دراسة الطب، فيكون ذلك سنة ٣٨٤ هـ، ومن هنا يمكن أن نقول إنّ ابن جلجل توفي بعد هذه السنة.

مؤلفاته

- تفسير أسماء الأدوية المفردة، من كتاب ديسقوريدوس.
- مقالة في ذكر الأدوية، التي لم يذكرها ديسقوريدوس في كتابه.
- مقالة في أدوية الترياق.
- رسالة التبيين فيما غلط فيه بعض المتطببين.
- طبقات الأطباء والحكماء، فرغ من تأليفه صدر سنة ٣٧٧ هـ.

ابن مندويه الأصفهاني

القرن الرابع الهجري

أبو علي أحمد بن عبد الرحمن بن مندويه، من الأطباء المذكورين، وكانت له أعمال مشهورة مشكورة في صناعة الطب، وكان من البيوتات الأجلاء بأصفهان ولمّا عمّر عضد الدولة فناخسرو البويهي البيمارستان ببغداد جمع إليه الأطباء من كل موضع فاجتمع فيه أربعة وعشرون طبيباً وهو واحد منهم. وكان أبوه عبد الرحمن بن مندويه فاضلاً في علم الأدب، وافر الدين، وله أشعار حسنة.

ولأبي علي بن مندويه من الكتب رسائل عدة:

أربعون رسالة مشهورة إلى جماعة من أصحابه في الطب، وهي: رسالة إلى أحمد بن سعد في تدبير الجسد، رسالة إلى عباد بن عباس في تدبير الجسد، رسالة إلى أبي الفضل العارض في تدبير الجسد، رسالة إلى أبي القاسم أحمد بن علي بن بحر في تدبير المسافر، رسالة إلى حمزة بن الحسن في تركيب طبقات العين، رسالة إلى أبي الحسن الوارد في علاج انتشار العين، رسالة إلى عباد بن عباس في وصف انهضام الطعام، رسالة إلى أحمد بن سعد في وصف المعدة والقصد لعلاجها، رسالة إلى مستفسر في تدبير جسده وعلاج دائه، رسالة إلى أبي جعفر أحمد بن محمد بن الحسن في القولنج، رسالة أخرى إليه في تدبير أصحاب القولنج، رسالة إلى أبي محمد بن أبي جعفر في تدبير ضعف الكلى لمن يستبشع الحقنة، رسالة إلى أبي الفضل في علاج المثانة، رسالة إلى الأستاذ والرئيس في علاج شقاق البواسير، رسالة في أسباب الباه، رسالة في الإبانة عن السبب الذي يولِّد في الأذن القرقرة عند اتقاد النار في خشب التين، رسالة إلى الوثاي في علاج

وجع الركبة، رسالة إلى أبي الحسن بن دليل في علاج الحكة العارضة للمشيخة، رسالة في فعل الأشربة في الجسد، رسالة في وصف مسكر الشراب ومنافعه ومضاره، رسالة إلى حمزة بن الحسن في أن الماء لا يغذو، رسالة في نعت النبيذ ووصف أفعاله ومنافعه ومضاره، رسالة إلى ابنه في علاج بثور خرجت بجسده بماء الجبن وهو صغير، رسالة في منافع الفقاع ومضاره، رسالة إلى أبي الحسن أحمد بن سعد في الخنديقون والبقاع وجوابه إليه، رسالة إلى بعض إخوانه في التمر الهندي، رسالة في الكافور، رسالة إلى حمزة بن الحسن في النفس والروح على رأي اليونانيين، رسالة أخرى إليه في الاعتذار عن اعتلال الأطباء، رسالة في الرد على كتاب نقض الطب المنسوب إلى الجاحظ، رسالة إلى حمزة بن الحسن في الرد على من أنكر حاجة الطبيب إلى علم اللغة، رسالة إلى المتقلدين علاج المرضى ببيمارستان أصفهان، رسالة إلى أبي الحسن بن سعيد في البحث عما ورد من أبي الحكيم إسحاق بن يوحنا الطبيب الأهوازي في شأن علته، رسالة إلى يوسف بن يزداد المتطبب في إنكاره دخول لعاب بزر الكتان في أدوية الحقنة، رسالة إلى أبي محمد عبدالله بن إسحاق الطبيب ينكر عليه ضروباً من العلاج، رسالة في شأن التكميد بالجاورس، رسالة في أوجاع الأطفال، كناش.

- كتاب المدخل إلى الطب.
- كتاب الجامع المختصر من علم الطب، وهو عشر مقالات.
- كتاب المغاث في الطب.
- كتاب في الشراب.
- كتاب الأطعمة والأشربة.
- كتاب نهاية الاختصار في الطب.
- كتاب الكافي في الطب ويعرف بكتاب القانون الصغير.

علي بن رضوان

ت ٤٥٣ هـ

أبو الحسن علي بن رضوان بن علي بن جعفر، مولده ومنشؤه بمصر، وبها تعلم الطب، وقد ذكر علي بن رضوان في سيرته عن كيفية تعلمه صناعة الطب وأحواله، قال: إنه لما كان ينبغي لكل إنسان أن ينتحل أليق الصنائع به وأوفقها له، وكانت صناعة الطب تتاخم الفلسفة طاعة لله عز وجل، وكانت دلالات النجوم في مولدي تدل على أنّ صناعتي الطب، وكان العيش عندي من الفضيلة ألذ من كل عيش، أخذت في تعلم صناعة الطب وأنا ابن خمس عشرة سنة، ثم قال: ولدت بأرض مصر، فلما بلغت السنة السادسة أسلمت نفسي في التعليم، ولما بلغت السنة العاشرة انتقلت إلى المدينة العظمى وأجهدت نفسي في التعلم. ولما أقمت أربع عشرة سنة أخذت في تعلم الطب والفلسفة ولم يكن لي مال أنفق منه، فلذلك عرض لي في التعلم صعوبة ومشقة. فكنت مرة أتكسب بصناعة القضايا بالنجوم، ومرة بصناعة الطب، ومرة بالتعليم، ولم أزل كذلك وأنا في غاية الاجتهاد في التعليم، إلى السنة الثانية والثلاثين، فإني اشتهرت فيها بالطب، وكفاني ما كنت أكسبه بالطب، بل وكان يفضل عني إلى وقتي هذا، وهو آخر السنة التاسعة والخمسين».

كان مولده في مصر بالجيزة ونشأ بمدينة مصر، وكان أبوه فراناً، ولم يزل ملازماً للاشتغال والنظر في العلم إلى أن تميّز وصار له الذكر الحسن والسمعة العظيمة، وخدم الحاكم وجعله رئيساً على سائر المتطببين، وكانت دار ابن رضوان بمدينة مصر في قصر الشمع وهي الآن تعرف به وقد تهدمت ولم يتبين إلا بقايا يسيرة من آثارها.

وكان ابن رضوان قد تغيّر عقله في آخر عمره، وكان السبب في ذلك أنه في

أثناء الغلاء الذي ضرب مصر في زمنه، كان قد أخذ يتيمة ربّاها وكبرت عنده، فلما كان في بعض الأيام خلا لها الموضع، وكان قد ادخر أشياء نفيسة، ومن الذهب نحو عشرين ألف دينار، فأخذت الجميع وهربت، ولم يظفر منها على خبر، ولا عرف أين توجهت، فتغيّرت أحواله من حينئذٍ.

وكان ابن رضوان كثير الرد على من كان يعاصره من الأطباء وغيرهم، وكذلك على كثير ممن تقدمه. وكانت عنده سفاهة في بحثه وتشنيع على من يريد مناقشته، وأكثر ذلك كان عندما يرد على حنين بن إسحاق وأبي الفرج بن الطيب وأبي بكر محمد بن زكريا الرازي. ولم يكن لابن رضوان في صناعة الطب معلم ينسب إليه، وله كتاب في ذلك يتضمن أن تحصيل الصناعة من الكتب أوفق من المعلمين، وقد رد عليه ابن بطلان هذا الرأي وغيره في كتاب مفرد، وذكر فصلاً في العلل التي لأجلها صار المتعلم من أفواه المعلمين أفضل من المتعلم من الكتب إذا كان القول واحداً.

ومن كلام علي بن رضوان: إذا كانت للإنسان صناعة ترتاض بها أعضاؤه، ويمدحه بها الناس، ويكسب بها كفايته في بعض يومه، فأفضل ما ينبغي له في باقي يومه أن يصرفه في طاعة ربه، وأفضل الطاعات النظر في الملكوت وتمجيد المالك لها سبحانه، ومن رزق ذلك فقد رزق خير الدنيا والآخرة، وطوبى له وحسن مآب.

وقال: البدن السليم من العيوب هو البدن الصحيح الذي كل واحد من أعضائه باقٍ على فضيلته، أعني أن يكون يفعل فعله الخاص على ما ينبغي.

ومن كلامه أيضاً: إذا دعيت إلى مريض فاعطه ما لا يضره إلى أن تعرف علّته فتعالجها عند ذلك، ومعنى معرفة المرض هو أن تعرف في أي خلط حدث أولاً، ثم تعرف بعد ذلك في أي عضو هو، وعند ذلك تعالجه.

لعلي بن رضوان من الكتب:

- شرح كتاب العرق لجالينوس، فرغ من شرحه له في سنة ٤٣٢ هـ.
- شرح كتاب الصناعة الصغيرة لجالينوس.

- شرح كتاب النبض الصغير لجالينوس.
- شرح كتاب جالينوس إلى أغلوقن في التأني لشفاء الأمراض.
- شرح كتاب الأسطقسات لجالينوس.
- كتاب الأصول في الطب، أربع مقالات.
- رسالة في علاج الجذام.
- كتاب تتبع مسائل حنين، مقالتان.
- كتاب النافع في كيفية تعليم صناعة الطب، ثلاث مقالات.
- كتاب الانتصار لأرسطوطاليس، وهو كتاب التوسط بينه وبين خصومه، ٣٩ مقالة.
- تفسير ناموس الطب لأبقراط.
- تفسير وصية أبقراط المعروفة بترتيب الطب.
- كتاب في الأدوية المسهلة.
- كتاب في عمل الأشربة والمعاجين.
- تعليق من كتاب التميمي في الأغذية والأدوية.
- تعليق من كتاب فوسيدونيوس في أشربة لذيذة للأصحّاء.
- مقالة في الطريق إلى إحصاء عدد الحميّات.
- رسالة في أجوبة مسائل سأل عنها الشيخ أبو الطيب أزهر بن النعمان في الأورام.
- رسالة في علاج الصبي أصابه المرض المسمى بداء الفيل وداء الأسد.
- كتاب في حل شكوك الرازي على كتب جالينوس، سبع مقالات.
- مقالة في حفظ الصحة.
- رسالة في أزمنة الأمراض.
- مقالة في أسباب مدد حميات الأخلاط وقرائنها.

ابن وافد

٣٨٧ - نحو ٤٦٥ هـ

هو الوزير أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن يحيى بن وافد بن مهند اللخمي أحد أشراف الأندلس، وذوي السلف الصالح منهم، عني عناية بالغة بقراءة كتب جالينوس وتفهمها، ومطالعة كتب أرسطوطاليس وغيره من الفلاسفة. قال القاضي صاعد: وتمهّر بعلم الأدوية المفردة حتى ضبط منها ما لم يضبطه أحد في عصره، وألف فيها كتاباً جليلاً لا نظير له، جمع فيه ما تضمن كتاب ديسقوريدس وكتاب جالينوس في الأدوية المفردة، ورتبه أحسن ترتيب.

وروي عنه أنه عانى جمعه، وحاول ترتيبه وتصحيح ما ضمنه من أسماء الأدوية وصفاتها، وأودعه إياه من تفصيل قواها وتحديد درجاتها نحواً من عشرين سنة، حتى كمل موافقاً لغرضه، وتم مطابقاً لبغيته. وله في الطب منزع لطيف ومذهب نبيل، ذلك أنه كان لا يرى التداوي بالأدوية ما أمكن التداوي بالأغذية أو ما كان قريباً منها، فإذا دعت الضرورة إلى الأدوية فلا يرى التداوي بمركبها ما وصل إلى التداوي بمفردها، فإن اضطر إلى المركب منها لم يكثر التركيب بل اقتصر على الأقل ما يمكنه منه. وله نوادر محفوظة وغرائب مشهورة في الإبراء من العلل الصعبة والأمراض المخوفة بأيسر العلاج وأقربه.

استوطن ابن وافد مدينة طليطلة، وكان في أيام ابن ذي النون، وكان مولد ابن وافد في ذي الحجة من سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، وكان في الحياة سنة ستين وأربعمائة.

من كتبه:

- كتاب الأدوية المفردة.
- كتاب الوساد في الطب.
- مجربات في الطب.
- كتاب تدقيق النظر في علل حاسة البصر.
- كتاب المغيث.

ابن أبي صادق

ت نحو ٤٧٠ هـ

أبو القاسم عبد الرحمن بن علي بن أحمد بن أبـي صادق النيسـابوري، طبيب فاضل بارع في العلوم الحكمية، كثير الدراية للصناعة الطبية، له حرص بالغ في التطلع على كتب جالينوس، وما أودعه فيه من غوامض صناعة الطب وأسرارها، وما فسره من كتب جالينوس فهو في نهاية الجودة والإتقان، وقد أجهد نفسه في تفسير كتاب منافع الأعضاء لجالينوس وأجاد في تلخيص معانيه، وهو يقول في أوله: «وأما نحن فقد حررنا معاني هذا الكتاب شرحاً للعويص وحذفاً للزائد ونظماً للمشتت، وإضافة إليه مما وجدته من الزيادات في مصنفات جالينوس ومصنفات غيره من المحصلين في هذا الباب، ورتبنا كل مقالة تعليمـاً تعليماً، وألحقنا بأواخر كل منها ما يتبيّن به من تشريح عضو عضـو يتضمن منافعـه تلك المقالة، ليسهل على من أراد تشريح أي عضو كان أو منافع أي جزء من أجزائه». وكان فراغه من هذا الكتاب في سنة تسع وخمسين وأربعمائة.

ذكر بعض الأطباء أن ابن أبي صـادق كان قد اجتمع بالشيخ ابن سينا وقرأ عليه، وكان من جملة تلامذته والآخذين عنه، وهذا ممّا لا يستبعد بل هو أقرب إلى الصحـة، فـإنّ ابن أبي صـادق لحق زمـان ابن سينـا وكـان في بـلاد العجم، وسمعة ابن سينا كانت عظيمة، وكذلك غزارة علمه وكثرة تلامذته، وكان أكبر من ابن أبي صادق قدراً وسناً.

له من الكتب:

ـ شرح كتاب المسائل في الطب لحنين بن إسحاق.

- اختصار شرحه الكبير لكتاب المسائل لحنين بن إسحاق.

- شرح كتاب الفصول لأبقراط، ووجد خطه على هذا الشرح بتاريخ سنة ستين وأربعمائة على قراءة من قرأه عليه.

- شرح كتاب تقدمة المعرفة لأبقراط.

- شرح كتاب منافع الأعضاء لجالينوس، فرغ منه سنة ٤٥٩ هـ.

- رسالة في شكوك الرازي على كتب جالينوس.

- كتاب التاريخ.

أبو العلاء بن زهر

ت ٥٢٥ هـ

أبو العلاء بن زهر بن أبي مروان عبد الملك بن محمد بن مروان، مشهور بالحذق والمعرفة، وله علاجات مختارة تدل على قوته في صناعة الطب واطلاعه على دقائقها. وكانت له نوادر في مداواته المرضى ومعرفته لأحوالهم، وما يجدونه من الآلام من غير أن يستخبرهم عن ذلك بل بنظره إلى قواريرهم أو عندما يجسّ نبضهم. كان في دولة الملثمين[١]، ويعرفون أيضاً بالمرابطين، وحظي في أيامهم ونال المنزلة الرفيعة والذكر الجميل.

كان قد اشتغل بصناعة الطب وهو صغير في أيام المعتضد بالله أبي عمرو عباد بن عباد[٢] واشتغل أيضاً بعلم الأدب، وهو حسن التصنيف جيد التأليف. وفي زمانه وصل كتاب القانون لابن سينا إلى المغرب، وقال ابن جميع المصري في «كتاب التصريح بالمكنون في تنقيح القانون» إن رجلاً من التجار جلب من العراق إلى الأندلس نسخة من هذا الكتاب قد بُولغ في تحسينها فأتحف بها لأبي العلاء بن زهر تقرباً إليه، ولم يكن هذا الكتاب وقع إليه قبل ذلك، فلما تأمله ذمه واطرحه، ولم يدخله خزانة كتبه، وجعل يقطع من طرره[٣] ما يكتب فيه نسخ الأدوية لمن يستفتيه من المرضى.

(١) اسم يطلق على قبائل صنهاجة في إفريقية الشمالية الغربية، كان رجالهم يضعون اللثام على وجوههم، والسلالة التي ترتكز عليهم هي المرابطون، فتحت المغرب وبسطت سلطانها على الأندلس، مؤسسها يحيى بن إبراهيم الجدلي وأشهر ملوكها يوسف بن تاشفين.

(٢) صاحب إشبيلية وأعمالها، خلف والده في الحكم واستبد، وكان معه وزراء فأفناهم، حارب البربر وظفر بهم.

(٣) طُرَّة الكتاب: حاشيته.

وذكر أبو يحيى أليسع بن عيسى بن حزم بن أليسع في كتاب «المغرب عن محاسن أهل المغرب» أن أبا العلاء بن زهر كان مع صغر سنّه تصرخ النجابة بذكره وتخطب المعارف بشكره. ولم يزل يطالع كتب الأوائل متفهماً، ويلقى الشيوخ متفهّماً، والسعد ينهج له مناهج التيسير، والقدر لا يرضى له من الوجاهة باليسير، حتى برز في الطب إلى غاية عجز الطب عن مرامها، وضعف الفهم عن إبرامها، وخرجت عن قانون الصناعة إلى ضروب من الشناعة، يخبر فيصيب، ويضرب في كل ما ينتحله من التعاليم بأوفى نصيب، ويشعر سابق مدى، ويغبر في وجوه الفضلاء علماً ومحتدى، ويفوق الجلة سماحة وندى».

وكان من جملة تلاميذ أبي العلاء بن زهر في الطب أبو عامر بن ينق الشاطبي. وقد توفي أبو العلاء في سنة[1] ودفن بإشبيلية خارج باب الفتح.

من كتب أبي العلاء بن زهر:

- كتاب الخواص.
- كتاب الأدوية المفردة.
- كتاب الإيضاح بشواهد الافتضاح في الرد على ابن رضوان فيما ردّه على حنين بن إسحاق في كتاب المدخل إلى الطب.
- كتاب على شكوك الرازي على كتب جالينوس، مجربات.
- مقالة في الرد على أبي علي بن سينا في مواضع من كتابه الأدوية المفردة ألّفها لابنه أبي مروان.
- كتاب النكت الطبية، كتب بها إلى ابنه أبي مروان.
- مقالة في بسطه لرسالة يعقوب بن إسحاق الكندي في تركيب الأدوية.
- نسخ ومجربات له أمر بجمعها علي بن يوسف بن تاشفين بعد موت أبي العلاء، فجمعت بمراكش وبسائر بلاد الأندلس، وانتسخت في جمادى الآخرة سنة ست وعشرين وخمسمائة.

(١) لم يشر ابن أبي أُصيبعة في عيون الأنباء ص ٥١٨ إلى السنة.

أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت

٤٦٠ - ٥٢٩ هـ

أبو الصلت، من دانية[1]، من شرقي الأندلس، وهو من أكابر الفضلاء في صناعة الطب وفي غيرها من العلوم، وله فيها التصانيف المشهورة والمآثر المذكورة. وكان قد بلغ في صناعة الطب مبلغاً لم يصل إليه غيره من الأطباء، وحصل من معرفة الأدب ما لم يدركه كثير من سائر الأدباء. وكان مميزاً في العلم الرياضي، متقناً لعلم الموسيقى وعمله، جيد اللعب بالعود. وكان مع ذلك لطيف النادرة فصيح اللسان جيد المعاني.

رحل أبو الصلت من الأندلس إلى مصر وأقام بالقاهرة مدة، ثم عاد بعد ذلك إلى الأندلس، وكان دخوله إلى مصر في حدود سنة عشر وخمسمائة، ولما كان في الإسكندرية حبس بها.

وقد ذكر الشيخ سديد الدين المنطقي في القاهرة سنة ٦٣٢ هـ أن سبب حبس أبي الصلت أمية بن عبد العزيز في الإسكندرية أن مركباً كان قد وصل إليها، وهو موقر بالنحاس فغرق قريباً منها، ولم تكن لهم حيلة في تخليصه لطول المسافة في عمق البحر، ففكر أبو الصلت في أمره وأجال النظر في هذا المعنى حتى تلخص له فيه رأي، واجتمع بالأفضل ابن أمير الجيوش ملك الإسكندرية وأعلمه أنه قادر إن تهيّأ له جميع ما يحتاج إليه من الآلات أن يرفع المركب من قعر البحر، ويجعله على وجه الماء مع ما فيه من الثقل، فتعجب من قوله وفرح به وسأله أن يفعل ذلك. ثم آتاه على جميع ما يطلبه من الآلات وغرم عليها جملة من المال. ولما تهيّأت وضعها في مركب عظيم على موازاة المركب الذي غرق، وأرسى إليه حبالاً مبرومة من الإبريسم، وأمر قوماً لهم خبرة في البحر أن يغوصوا ويوثقوا ربط

الحبال بالمركب الغارق، وكان قد صنع آلات بأشكال هندسية لرفع الأثقال في المركب الذي هم فيه، وأمر الجماعة بما يفعلونه في تلك الآلات. ولم يزل شأنهم ذلك والحبال الإبريسم ترتفع إليهم أولاً فأولاً وتنطوي على دواليب بين أيديهم حتى بان لهم المركب الذي كان قد غرق، وارتفع إلى قريب من سطح الماء، ثم عند ذلك انقطعت الحبال الإبريسم وهبط المركب راجعاً إلى قعر البحر. ولقد تلطف أبو الصلت جدّاً فيما صنعه، وفي التحيُّل لرفع المركب، إلا أن القدر لم يساعده وحنق عليه الملك لما غرمه من الآلات وأمر بحبسه وأن يستوجب ذلك. وبقي أبو الصلت في الاعتقال إلى أن شفع به بعض الأعيان وأطلق،وكان ذلك في خلافة الآمر بأحكام الله ووزارة الملك الأفضل ابن أمير الجيوش.

وكانت وفاة أبي الصلت يوم الاثنين مستهل محرم سنة تسع وعشرين وخمسمائة بالمهدية[١] ودفن في المنستير[٢].

لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز من الكتب:

- الرسالة المصرية، ذكر فيها ما رآه في مصر من هيئتها وآثارها، ومن اجتمع بهم فيها من الأطباء والمنجمين والشعراء وغيرهم من أهل الأدب، وألف هذه الرسالة لأبي الطاهر يحيى بن تميم بن المعزّ بن باديس.

- كتاب الأدوية المفردة على ترتيب الأعضاء المتشابهة الأجزاء والآلية.

- كتاب الانتصار لحنين بن إسحاق على ابن رضوان في تتبعه لمسائل حنين.
- كتاب حديقة الأدب.

كتاب الملح العصرية من شعراء أهل الأندلس والطارئين عليها.
- ديوان شعر.
- رسالة في الموسيقى.
- كتاب في الهندسة.
- رسالة في العلم بالأسطرلاب.
- كتاب تقويم منطق الذهن.

(١) مدينة في القيروان أنشأها المهدي عبيدالله سنة ٩٢١ م.
(٢) بلدة في تونس (الغرب).

ابن باجّه

ت نحو ٥٣٣ هـ

أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ ويعرف بابن باجه، من الأندلس، وكان في العلوم الحكمية علامة وقته. بُلي بمحن كثيرة وشناعات من العوام، وقصدوا هلاكه مرات. كان عارفاً في اللغة العربية والأدب حافظاً للقرآن، ويعد من الأفاضل في صناعة الطب، متقناً لصناعة الموسيقى جيد اللعب بالعود.

قال أبو الحسن علي بن عبد العزيز بن الإمام، في صدر المجموع الذي نقله من أقاويل أبي بكر محمد بن الصائغ بن باجه ما نصّه: هذا مجموع ما قيد من أقوال أبي بكر بن الصائغ رحمه الله في العلوم الفلسفية. وكان ذا ثقابة الذهن، ولطف الغوص على تلك المعاني الشريفة الدقيقة أعجوبة دهره، ونادرة الفلك في زمانه.

فإن هذه الكتب كانت متداولة بالأندلس، من زمان الحكم مستجلبها، ومستجلب غرائب ما صنف بالمشرق، ونقل من كتب الأوائل وغيرها، وتردد النظر فيها، فما انتهج فيها الناصر قبله سبيلاً، مما تقيد عنهم فيها إلا ضلالات وتبديل، كما تبدد عن ابن حزم الإشبيلي[1]، وكان من أجلّ نظار زمانه وأكثرهم لمن تقدم على إثبات شيء من خواطره، وكان أحسن منه نظراً وأثقب لنفسه تمييزاً، وإنما انتهجت سبل النظر في هذه العلوم بهذا الحبر وبمالك بن وهيب الإشبيلي، فإنهما كانا متعاصرين، غير أن مالكاً لم يقيّد عنه إلا قليل نزر في أول الصناعة الذهنية، وأضرب الرجل عن النظر ظاهراً في هذه العلوم، وعن التكلم فيها لما لحقه من المطالبات في دمه لسببها، ولقصده الغلبة في جميع محاوراته في فوز المعارف.

وأقبل على العلوم الشرعية فرأس فيها أو زاحم ذلك، لكنه لم يَلُحْ على أقواله

---

(١) فقيه وطبيب وشاعر وفيلسوف ومؤرخ، ولد في قرطبة(٩٩٤ - ١٠٦٤).

ضياء هذه المعارف، ولا قيد فيها باطناً شيئاً أُلفي بعد موته. وأما أبو بكر فنهضت به فطرته الفائقة، ولم يدع النظر والتقييد لكل ما ارتسمت حقيقته في نفسه على أطوار أحواله، وكيفما تصرف به زمنه، وأثبتت في الصناعة الذهنية في أجزاء العالم الطبيعي ما يدل على حصول هاتين الصناعتين في نفسه صورة ينطق عنها، ويفصل ويركب فيها فعل المستولي عليها.

وكان أبو الحسن علي بن الإمام هذا من غرناطة، وكان كاتباً فاضلاً متميزاً في العلوم، وكان قد صحِبَ أبا بكر بن باجه مدة واشتغل عليه، وسافر أبو الحسن علي من المغرب وتوفي بقوص[1]، وكان من جملة تلاميذ ابن باجه أيضاً أبو الوليد محمد بن رشد.

وكانت وفاة ابن باجه شاباً بمدينة فاس ودفن بها.

وذكر القاضي أبو مروان الإشبيلي أنه رأى قبر ابن باجه، وقريباً من قبره قبر أبي بكر بن العربي الفقيه.

ومن كلام ابن باجه: الأشياء ينفع تعلمها بعد زمان طويل لا يضيع ذكرها.

من كتب ابن باجه:

- شرح كتاب السمع الطبيعي لأرسطوطاليس.
- رسالة الوداع.
- كتاب اتصال العقل بالإنسان.
- كتاب تدبير الموحد.
- كتاب النفس.
- تعاليق على كتاب أبي نصر في الصناعة الذهنية.
- تعاليق حكمية وجدت متفرقة.
- كلام على شيء من كتاب الأدوية المفردة لجالينوس.

---

(١) مدينة في صعيد مصر.

ـ كتاب التجربتين على أدوية ابن وافد، واشترك في هذا الكتاب أبو الحسن سفيان.

ـ كتاب اختصار الحاوي للرازي.

وله مقالات وكلام في الغاية الإنسانية والاسم والمسمى والبرهان والأسطقسات وعن النفس النزوعية وكيف هي ولِمَ تنزع وبماذا تنزع، وكلام في المزاج بما هو طبي.

أبو مروان بن أبي العلاء بن زهر

٤٦٤ - ٥٥٧ هـ

أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء، زهر بن أبي مروان عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر، لحق أباه في صناعة الطب، وكان جيد الاستقصاء في الأدوية المفردة والمركبة، حسن المعالجة، قد ذاع ذكره في الأندلس وفي غيرها من البلاد، واشتغل الأطباء بمصنفاته، ولم يكن في زمانه من يماثله في مزاولة أعمال صناعة الطب، وله حكايات كثيرة في تأتّيه لمعرفة الأمراض ومداواتها مما لم يسبقه أحد من الأطباء إلى مثل ذلك. وكان قد خدم الملثّمين ونال من جهتهم من النعم والأموال شيئاً كثيراً.

وفي الوقت الذي كان فيه أبو مروان عبد الملك دخل المهدي إلى الأندلس، وهو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن تومرت[1]، ومعه عبد المؤمن[2] وشرع في بث الدعوة لعبد المؤمن، وتمهيد أمره إلى أن انتشرت كلمته واتسعت مملكته، وملك البلاد وأطاعه الخلق. ولما استقل عبدالمؤمن بالمملكة وعرف بأمير المؤمنين واستولى على خزائن المغرب، بذل الأموال وأظهر العدل، وقرب أهل العلم وأكرمهم، واختص أبا مروان عبد الملك بن زهر لنفسه، وجعل اعتماده عليه في الطب، وأناله من الأنعام والعطاء فوق أمنيته، وكان مكيناً عنده، عالي القدر، متميزاً على كثير من أبناء زمانه، وألف له أبو مروان الترياق السبعيني، واختصره عشارياً، واختصره سباعياً، ويعرف بترياق الأنتلة.

(١) مصلح ديني مراكشي عُرف بمهدي الموحدين، ولد في جبل السوس.

(٢) مؤسس سلالة الموحدين في المغرب. توفي في سلا.

رُوي أن الخليفة عبد المؤمن احتاج إلى شرب دواء مسهـل، وكان يكـره شرب الأدوية المسهلة، فتلطف له ابن زهر في ذلك، وأتى إلى كرمة في بستانه فجعل الماء الذي يسقيها به ماء قد أكسبه قوة أدوية مسهلة بنقعها فيه أو بغليانها معه، ولما تشرّبت الكرمة قوة الأدوية المسهلة التي أرادها وطلع فيها العنب وله تلك القوة، أحمّ الخليفة ثم أتاه بعنقود منها وأشار عليه أن يأكل منه، وكان حسن الاعتقاد بابن زهر، فلمّا أكل منه وهو ينظر إليه قال له: يكفيك يا أمير المؤمنين فإنك قد أكلت عشر حبات من العنب، وهي تخدمك عشر مجالس، فاستخبره عن علة ذلك وعرفه به، ثم قام على عدد ما ذكره له ووجد الراحة فاستحسن منه فعله هذا وتزايدت منزلته عنده.

ورُوي عنه أنه كان في وقت مروره إلى دار أمير المؤمنين بإشبيلية، يجد في طريقه عند حمّام أبي الخير بالقرب من دار ابن مؤمل مريضاً به سوء قتبه[1] وقد كبر جوفه واصفرّ لونه، فكان أبداً يشكو إليه حاله ويسأله النظر في أمره. فلما كان في بعض الأيام سأله مثل ذلك فوقف أبو مروان عنده، ونظر إليه فوجـد عند رأسـه إبريقاً عتيقاً يشرب منه الماء، فقال: اكسر هذا الإبريق فإنه سبب مرضك. قال له: لا بالله يا سيدي فإني ما لي غيره. فأمر بعض خدمه بكسره فكسره فظهر منه لما كسر ضفدع وقد كبر مما له فيـه من الزمان. فقال له ابن زهر: خلصت يا هذا من المرض، انظر ما كنت تشرب. وبرأ الرجل بعد ذلك.

وممّا أثر من أخباره أنه كان بإشبيلية حكيم فاضل في صناعة الطب يعرف بالفار، وله كتاب جيد في الأدوية المفردة في سفرين، وكان أبو مروان كثيراً ما يأكل التين ويميل إليه. وكان الفار لا يغتذي منه بشيء، وإن أخذ منه شيئاً فيكون واحدة في السنة، فكان يقول لأبي مروان بن زهر إنه لا بد أن تعرض لك نغلة صعبة بمداومتك أكل التين، والنغلة هي الدبيلة بلغتهم. وكان أبو مروان يقول له لابد لكثرة حميتك وكونك لم تأكل شيئاً من التين أن يصيبك الشناج. فلم يمت الفار إلّا بعلّة التشنج، وكذلك عرض لأبي مروان دبيلة في جنبه وتوفي بها.

وكان من تلاميذ أبي مروان بن زهر في صناعة الطب والآخذين عنه: أبو

---

(١) مرض معوي.

الحسين بن أسدون المعروف بالمصدوم، وأبو بكر بن الفقيه القاضي، وأبو محمد الشذوني، والفقيه الزاهد أبو عمران بن أبي عمران.

وتوفي أبو مروان عبد الملك في سنة[1] سبع وخمسين وخمسمائة ودفن بإشبيلية خارج باب الفتح.

ومن كتب أبي مروان بن أبي العلاء بن زهر:

- كتاب التيسير في المداواة والتدبير، ألفه للقاضي أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد.
- كتاب الأغذية، ألفه لأبي محمد عبد المؤمن بن علي.
- كتاب الزينة، تذكرة إلى ولده أبي بكر في أمر الدواء المسهل وكيفية أخذه.
- مقالة في علل الكلى.

رسالة كتب بها إلى بعض الأطباء بإشبيلية في علّتي البرص والبهق.

- كتاب تذكرة، ذكر بها لابنه أبي بكر أول ما تعلق بعلاج الأمراض.

(١) بياض في عيون الأنباء ص ٥٢١.

أبو المجد بن أبي الحكم

ت ٥٧٠ هـ

أفضل الدولة أبو المجد محمد بن أبي الحكم عبيدالله بن المظفر بن عبدالله الباهلي. من الحكماء المشهورين والعلماء المذكورين والأفـاضل في الصنـاعة الطبية وعلم الهندسة والنجوم. وكان يعرف الموسيقى ويلعب بالعود، ويجيد الغناء والإيقاع والزمر وسائر الآلات، وعمل أرغناً وبالغ في إتقانه، وكان اشتغاله على والده وعلى غيره بصناعة الطب وتميز في علمها وعملها، وصار من الأكابـر في أهلها. وكان في دولة السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي[1]، وكان يجلّه ويحترمه، ويعرف مقدار علمه وفضله. ولما انشأ الملك العادل نور الدين البيمارستان الكبير جعل أمر الطب فيه إليه وأطلق له جراية وكان يتردد إليه ويعالج المرضى فيه.

ذكر شمس الدين أبو الفضل بن أبي الفرج الكحال المعروف بالمطواع: أنه شاهده في البيمارستان، وأن أبا المجد بن أبي الحكم كان يدور على المرضى به ويتفقد أحوالهم، ويعتبر أمورهم وبين يديه المشارفون والقوام لخدمة المرضى. فكان جميع ما يكتبه لكل مريض في المداواة والتدبير لا يُؤخّر عنه ولا يتوانى في ذلك.

وكان بعد فراغه من ذلك وطلوعه إلى القلعة وافتقاده المـرضى من أعيان الدولة يأتي ويجلس في الإيوان الكبير الذي للبيمارستان وجميعه مفروش ويحضر الاشتغال. وكان نور الدين قد وقف على هذا البيمارستان جملة كبيرة من الكتب

(١) أتابك حلب ودمشق (١١١٨ ـ ١١٧٤) حارب الصليبيين وأجلاهم عن البلاد السورية وفلسطين.

الطبية، وكانت في الخرستانين الذي في صدر الإيوان، فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ويقعدون بين يديه، ثم تجري مباحث طبية ويقرىء التلاميذ، ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات ثم يعود إلى داره.

توفي أبو المجد بن أبي الحكم بدمشق في سنة[1] سبعين وخمسمائة.

(١) بياض في الأصل، وكذلك في عيون الأنباء ص ٦٢٨.

ابن البذوخ

ت ٥٧٥/٥٧٦ هـ

أبو جعفر عمر بن علي بن البذوخ القلعي المغربي، كان فاضلاً خبيراً بمعرفة الأدوية المفردة والمركبة، وله حسن نظر في الاطلاع على الأمراض ومداواتها. أقام بدمشق سنيناً كثيرة، وكانت له دكان عطر باللبادين يجلس فيها ويعالج من يأتي إليه أو يستوصف منه. وكان يهيّىء عنده أدوية كثيرة مركبة يصنعها من سائر المعاجين والأقراص والسفوفات وغير ذلك، يبيع منها وينتفع الناس بها. وكان معتنياً بالكتب الطبية والنظر فيها وتحقيق ما ذكره المتقدمون من صفة الأمراض ومداواتها. وله حواش على كتاب القانون لابن سينا. وكان له أيضاً اعتناء بعلم الحديث، وله شعر ورجز كثير. وكان قد عمّر عمراً طويلاً وضعف عن الحركة حتى أنه كان لا يأتي إلى دكانه إلّا محمولاً على محفّة. ثم إنه عمي في آخر عمره بماء نزل في عينيه، لأنه كان يغتذي كثيراً باللبن ويقصد بذلك ترطيب بدنه. وكانت وفاته بدمشق سنة خمس (أوست) وسبعين وخمسمائة.

ومما قاله ابن البذوخ في مدح كتب جالينوس:

أكـرم بكتب جالينـوس قـد جمعت ... مـا قال بقـراط والمـاضـون في القـدم
كـديسقـوريـدوس علم الـدواء لـه ... مـسلم عند أهـل الـطب فـي الأمـم
فـالـطب عن ذين مـع بقـراط منتشـر ... من بعـدهم كانتشـار النـور في الـظلم
بـطبهم تقتـدي الأفـكـار مشـرقـة ... تـرى ضيـاء الشفـا في ظلمـة السقم
لا تبتغي فـي شفـاء الـداء غيـرهم ... فـإن وجدانـه في الـطب كـالعـدم
لأنـهـم كـمـلوا مـا أصّـلوه فـمـا ... يحتـاج فـيهـم إلى إتـمـام غيـرهـم
إلا الـدواء فـمـا تحـصى منـافعـه ... وعـدّه كـثـرة في الـعـرب والعـجم

عــد النجـوم نبــات الأرض أجمعهـا من ذا يعــد جميــع الــرمــل والأكـم
في كـل يـوم تـرى في الأرض معجـزة مـن التـجــارب والآيــات والـحـكـم

ولابن البذوخ من الكتب:

- شرح كتاب الفصول لأبقراط، أرجوزة.
- شرح كتاب تقدمة المعرفة لأبقراط، أرجوزة.
- كتاب ذخيرة الألباء.
- المفرد في التأليف عن الأشباه.
- حواش على كتاب القانون لابن سينا.

ابن طفيل

٤٩٤ - ٥٨١ هـ

أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل القيسي، من بني قيس بن عيلان بن مضر من العرب المستعربة الشمالية، وينسب أيضاً فيقال: الأندلسي والقرطبي والإشبيلي ويكنّى بأبي جعفر. ولد في وادي آش على مسافة ٥٣ كلم في الشمال الشرقي من قرطبة، ولا نعرف تاريخ ميلاده، ولكن من المرجح أنه ولد في السنوات العشر الأولى من القرن الثاني عشر الميلادي، أي بين سنة ٤٩٤ إلى سنة ٥٠٥ هـ. لم يرد في المصادر ذكر أسماء شيوخه الذين تلقى عنهم العلم، غير أن مراكز العلم في ذلك الوقت كانت على الأخص قرطبة وإشبيلية ونسمع عبد الواحد المراكشي يقول[١]: «قرأ على جماعة من المتحققين بعلم الفلسفة منهم أبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجّه وغيره». لكن ابن طفيل نفسه يقول[٢] غير ذلك عن ابن باجّه، إذ ذكر صراحة، وهو يشير إلى ابن باجّه: «فهذا حال ما وصل إلينا من علم هذا الرجل، ونحن لم نلق شخصه»، وهذا يقطع بأن ابن طفيل لم يكن تلميذاً بالفعل لابن باجه، وإن كان من دون شك قد تأثر به من الناحية الفلسفية تأثراً بارزاً».

ولا شك أيضاً أن ابن طفيل قد درس العلوم الدينية، والفقه خاصة، بدليل أن تلميذه البطروجي يذكر أن ابن طفيل كان قاضياً[٣]. وكذلك درس ابن طفيل العلوم العقلية والطب، وقد مارس مهنة الطب في غرناطة زمناً، واشتغل أيضاً كاتباً لعامل

---

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٤٠.

(٢) حي بن يقظان ص ١٤.

(٣) أمشاج من الفلسفة اليهودية والعربية، مونك، ص ٥١٨.

غرناطة في وقت يسير. وفي سنة ٥٤٩ هـ كتب لأبي سعيد بن عبد المؤمن لما كان والياً على سبتة وطنجة[1].

ولكن الفترة الهامة في حياة ابن طفيل هي تلك التي أمضاها بحضرة أبي يعقوب يوسف بن أبي محمد عبد المؤمن بن علي القيسي سلطان الموحدين، وكان عالي الثقافة ذا حظ من العلوم العقلية إلى جانب معرفته التامة بأخبار العرب، جمع من كتب الحكمة شيئاً كثيراً، وكان ممن صحبه من العلماء بهذا الشأن أبو بكر محمد بن طفيل وأبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد. وقد ذكر ابن أبي زرع أن ابن طفيل وزّر لأبي يعقوب يوسف، لكن تلميذه البطروجي، وكذلك سائر المؤرخين الذين أرخوا لدولة أبي يعقوب يوسف لم يذكروا ابن طفيل من بين وزرائه. ولكن المحقق أنّه كان طبيبه الأول، ولعل طبه واطلاعه على العلوم العقلية هما اللذان قرّباه من السلطان أبي يعقوب، باعتبار أن هذا كان مشاركاً في الحكمة مقرّباً لأهلها. ويظهر أنه نال حظوة كبيرة لديه، وأبلغ شاهد على ذلك أنه هو الذي قدّم ابن رشد إلى السلطان فقد ذكر عبد الواحد المراكشي في «المعجب»[2]: «ولم يزل أبو بكر هذا يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار وينبهه عليهم، ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم، وهو الذي نبّه على أبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، فمنه حينئذٍ عرفوه ونبه قدره عندهم.

ويورد الفقيه أبو بكر بندود بن يحيى القرطبي، تلميذ ابن رشد، خبر هذه الواقعة يقول: سمعت الحكيم أبا الوليد بن رشد يقول غير مرة: لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب وجدته هو وأبو بكر بن طفيل ليس معهما غيرهما. فأخذ أبو بكر يثني عليّ ويذكر بيتي وسلفي، ويضم بفضله إذ ذاك أشياء لا يبلغها قدري. فكان أول ما فاتحني به أمير المؤمنين أن قال لي: ما رأيهم في السماء - يعني الفلاسفة - أقديمة هي أم حادثة؟ فأدركني الحياء والخوف، فأخذت أتعلّل وأنكر اشتغالي بعلم الفلسفة، ولم أكن أدري ما قرّر معه ابن طفيل. ففهم أمير المؤمنين مني الروع والحياء، فالتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسألة التي سألني

(١) روض القرطاس، لابن أبي زرع ج ١ ص ١٢٦.

(٢) ص ٢٤٢ وما يليها.

عنها، ويذكر ما قاله أرسطوطاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة ويورد مع ذلك احتجاج أهل الإسلام عليهم. فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له، ولم يزل ينشطني حتى تكلمت، فعرف ما عندي من ذلك، فلما انصرفت أمر لي بمال وخلعة ومركب.

وظل ابن طفيل في بلاط السلطان أبي يعقوب يوسف طبيباً أول، وربما وزيراً أيضاً، إلى أن تقدمت سنه فتخلى عن وظيفة الطب لابن رشد في سنة ٥٨٧ هـ والذي صار الطبيب الأول للسلطان. ولما توفي أبو يعقوب سنة ٥٨٠ هـ، وقام بالأمر ولده أبو يوسف يعقوب، أبقى على مكانة ابن طفيل في حضرته كما كان في عهد أبيه.

وتوفي ابن طفيل في سنة ٥٨١ هـ في مدينة مراكش، ودفن هناك، واشترك السلطان أبو يوسف في تشييع جنازته(١).

مؤلفات ابن طفيل:

ـ له مؤلفات في الطب، فقد ذكر لسان الدين بن الخطيب أنه ألّف كتاباً في الطب في مجلدين. وذكر ابن أبي أصيبعة أن لابن رشد كتاباً عنوانه «مراجعات ومباحث بين أبي بكر بن طفيل وبين ابن رشد في رسمه للدواء في كتابه الموسوم بالكليات»(٢). كما ذكر ابن الخطيب أن له «أرجوزة في الطب».

ـ وله مؤلفات في الفلك، أشار ابن رشد إلى أحدها في شرحه الأوسط على كتاب «الآثار العلوية» لأرسطوطاليس، ويشير تلميذ ابن طفيل البطروجي إلى هذا أيضاً في مقدمة كتابه في الفلك.

ـ أما آثاره الفلسفية فلم يبق منها غير كتاب واحد هو «حي بن يقظان»، وإن كان عبد الواحد المراكشي يذكر أن له رسالة في النفس رآها بخطه، بيد أن هذه الرسالة فقدت، ثم إنّ جوتييه يشكك في رواية المراكشي زاعماً أنه اختلط عليه

---

(١) روض القرطاس لابن أبي زرع ص ١٣٥.

(٢) طبقات الأطباء والحكماء ج ٢ ص ٧٨.

الأمر بين رسالة حي بن يقظان وبين ما ادّعى أنه رسالة في النفس وهي في الحقيقة حي بن يقظان، لكن المراكشي ذكر حي بن يقظان فقال: «فمن رسائله الطبيبيات رسالة سماها رسالة حي بن يقظان غرضه فيها بيان مبدأ النوع الإنساني على مذهبهم، وهي رسالة لطيفة الجرم كبيرة الفائدة في ذلك الفن». ثم إن المراكشي ربما رأى الرسالة «في النفس» التي بخط المؤلف لدى ابنه الذي كان يعرفه معرفة جيدة، ولا بد أن يكون ابنه يحيى هذا هو الذي دلّه على هذه الرسالة، ولا يمكن أن يخطىء الابن فلا يميزها من رسالة «حي بن يقظان».

الشيخ السديد

ت ٥٩٢ هـ

القاضي الأجل السديد أبو المنصور عبدالله بن الشيخ السديد أبي الحسن علي، وكان لقب القاضي أبي المنصور شرف الدين وإنما غلب عليه لقب أبيه وعرف به وصار له علماً بأن يقال الشيخ السديد، وكان عالماً بصناعة الطب خبيراً بأصولها وفروعها، جيّد المعالجة كثير الدربة، حسن الأعمال باليد. خدم الخلفاء المصريين وحظي في أيامهم ونال من جهتهم الأموال الوافرة والنعم الجسيمة ما لم ينله غيره من سائر الأطباء الذين كانوا في زمانه، وكانت له عندهم المنزلة العليا والجاه الذي لا مزيد عليه. عمّر عمراً طويلاً، وكان من بيتوتة صناعة الطب، وكان أبوه أيضاً طبيباً للخلفاء المصريين مشهوراً في أيامهم.

قال الشيخ السديد رئيس الطب: إن أول من مثلت بين يديه من الخلفاء وأنعم عليّ الآمر بأحكام الله[1] وذلك أن أبي كان طبيباً في خدمته وكان مكيناً عنده، وكنت صبياً في ذلك الوقت، فكان أبي يهب لي كل يوم دراهم وأجلس عند باب الدار التي لنا، وأفصد جماعة في كل نهار، حتى تمرّنت وصارت لي دربة جيدة في الفصد، وكنت قد شدوت شيئاً من صناعة الطب، فذكرني أبي عند الآمر وأخبره بما أنا عليه وأنني أعرف صناعة الفصد، ولي دربة جيدة فيها، فاستدعاني فتوجهت إليه وأنا بحالة جميلة من الملبوس الفاخر والمركوب الفاره. وإنني لما دخلت إليه القصر مشيت مع أبي حتى صرنا بين يديه فقبلت الأرض وخدمت. فقال لي: أفصد هذا الأستاذ وكان واقفاً بين يديه. ثم جيء بطشت فضة وشددت

(١) أبو علي الآمر بأحكام الله (١١٠١ ـ ١١٣٠) وهو تاسع الخلفاء الفاطميين.

عضده، وكانت له عروق بيّنة الظهور ففصدته وربطت موضع الفصادة. فقال لي: أحسنت وأمر لي بأنعام كثيرة وخلع فاخرة، وصرت من ذلك الوقت متردداً إلى القصر.

وحصل للشيخ السديد في يوم واحد من الخلفاء في بعض معالجاته لأحدهم ثلاثون ألف دينار. وذكر أنه لما طهر ولدي الحافظ لدين الله[1] حصل له في ذلك الوقت من المال نحو خمسين ألف دينار وأكثر، سوى ما كان في المجلس من أواني الذهب والفضة فإنها وهبت جميعها له وكانت له همة عالية.

وكان الشيخ السديد قد قرأ صناعة الطب واشتغل على أبي نصر عدنان بن العين زربي، ولم يزل مبجّلاً عند الخلفاء وأحواله تنمى وحرمته عندهم تتزايد من حين الآمر بأحكام الله إلى آخر أيام العاضد[2] بالله. ثم بقي في خدمة الحافظ لدين الله، وهو الميمون عبد المجيد ابن الأمير أبي القاسم محمد ابن الإمام المستنصر بالله، ولم يزل في خدمة الحافظ إلى أن توفي، ثم خدم بعده للظافر بأمر الله وهو أبو منصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله ولم يزل في خدمته إلى أن استشهد الظافر. ثم بعد ذلك خدم الفائز بنصر الله وهو أبو القاسم عيسى بن الظافر بأمر الله، ولم يزل في خدمته إلى أن انتقل الفائز بنصر الله ثم خدم بعده العاضد لدين الله وهو آخر الخلفاء المصريين. ثم لمّا استبد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب[3] بالملك في القاهرة واستولى على الدولة، كان يفتقد الشيخ السديد بالعطايا الكثيرة والهبات المتواترة، وكان يستطبه ويعمل على وصفاته وما يشير به أكثر من بقية الأطباء، ولم يزل الشيخ السديد رئيساً على سائر الأطباء إلى حين وفاته. وكان يسكن في القاهرة عند باب زويلة، وكانت وفاته في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة.

وكانت قد جرت عليه في أواخر عمره محنة، وذلك أن داره قد احترقت وذهب له فيها من الأثاث والآلات والأمتعة شيء كثير جداً، ولما تهدم بعضها من

(١) أبو الميمون (١١٣٠ - ١١٤٩) عاشر الخلفاء الفاطميين.

(٢) آخر الخلفاء الفاطميين.

(٣) صلاح الدين الأيوبي (١١٣٨ - ١١٩١) ولد في تكريت وتوفي في دمشق. مؤسس الدولة الأيوبية.

النار وقعت براني كبار وخوابي ممتلئة من الذهب المصري، وتكسرت وتناثر فيما بعد الحريق والهدم منها الذهب إلى كل ناحية، وشاهد الناس بعضه قد انسبك من النار وكان مقدار ذلك ألوفاً كثيرة جداً.

وقد حدّث القاضي نفيس الدين بن الزبير: أن الشيخ السديد كان قد رأى في منامه قبل ذلك بقليل أن داره التي هو ساكنها قد احترقت، فاشتغل سره بذلك وعزم على الانتقال منها، ثم إنه شرع في بناء دار قريبة منها، وحثّ الصناع في بنائها، وعند كمالها حيث لم يبق منها إلا مجلس واحد وينتقل إليها احترقت داره التي كان ساكنها، وذلك في السادس والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وخمسمائة، والدار التي عمّرها قريباً منها هي التي صارت بعده للصاحب صفي الدين بن شكر[1] وزير الملك العادل أبي بكر بن أيوب[2] وهي التي تعرف به الآن.

(١) صفي الدين أبو محمد عبدالله بن شكر (١١٥٣ ـ ١٢٢٥) كان داهية بالسياسة مكرماً لأهل العلم.
(٢) أحد سلاطين بني أيوب في مصر. ولد في المنصورة ومات سجيناً في القاهرة سنة ١٢٤٨.

أبو الوليد بن رشد

٥٢٠ ـ ٥٩٥ هـ

القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، مولده ومنشؤه بقرطبة، مشهور بالفضل معتنٍ بتحصيل العلوم، أوحد في علم الفقه والخلاف، اشتغل على الفقيه الحافظ أبي محمد بن رزق. تميّز في علم الطب، وهو جيّد التصنيف حسن المعاني، وله في الطب كتاب الكليات أجاد في تأليفه، وكان بينه وبين أبي مروان بن زهر مودة، ولما ألف كتابه هذا في الأمور الكلية قصد من ابن زهر أن يؤلف كتاباً في الأمور الجزئية لتكون جملة كتابيهما ككتاب كامل في صناعة الطب. ولذلك يقول ابن رشد في آخر كتابه، ما نصّه: فهذا هو القول في معالجة جميع أصناف الأمراض بأوجز ما أمكننا وأبينه، وقد بقي علينا من هذا الجزء القول في شفاء عرض عرض من الأعراض الداخلة على عضو عضو من الأعضاء. وهذا وإن لم يكن ضرورياً لأنه منطوٍ بالقوة فيما سلف من الأقاويل الكلية، ففيه تتميم ما وارتياض، لأنا ننزلُ فيها إلى علاج الأمراض بحسب عضو عضو، وهي الطريقة التي سلكها أصحاب الكنانيش، حتى نجمع في أقاويلنا هذه إلى الأشياء الكلية الأمور الجزئية. فإن هذه الصناعة أحق صناعة ينزل فيها إلى الأمور الجزئية ما أمكن إلا أنا نؤخر هذا إلى وقت نكون فيه أشد فراغاً لعنايتنا في هذا الوقت بما يهم من غير ذلك، فمن وقع له هذا الكتاب دون هذا الجزء، وأحب أن ينظر بعد ذلك إلى الكنانيش فأوفق الكنانيش له الكتاب الملقب بالتيسير الذي ألفه في زماننا هذا أبو مروان بن زهر، وهذا الكتاب سألته أنا إياه وانتسخته فكان ذلك سبيلاً إلى خروجه، وهو كما قلنا كتاب الأقاويل الجزئية التي قلت فيه شديد المطابقة للأقاويل الكلية، إلاّ أنه مزج هنالك مع العلاج العلامات وأعطاه الأسباب على

عادة أصحاب الكنانيش، ولا حاجة لمن يقرأ كتابنا هذا إلى ذلك بل يكفيه من ذلك مجرد العلاج فقط، وبالجملة من تحصّل له ما كتبناه من الأقاويل الكليّة أمكنه أن يقف على الصواب والخطإ من مداواة أصحاب الكنانيش في تفسير العلاج والتركيب.

كان ابن رشد اشتغل بالتعاليم والطب على أبي جعفر بن هارون، ولازمه مدة وأخذ عنه كثيراً من العلوم الحكمية. وكان ابن رشد قد قضى مدة في إشبيلية قبل قرطبة، وكان مكيناً عند المنصور وجيهاً في دولته، وكذلك كان ولده الناصر يحترمه كثيراً. ثم إن المنصور فيما بعد نقم على أبي الوليد بن رشد وأمر بأن يقيم في أليسانة، وهي بلد قريب من قرطبة، وأن لا يخرج منها. ثم إن جماعة من الأعيان بإشبيلية شهدوا لابن رشد أنه على غير ما نسب إليه، فرضي المنصور عنه، وذلك في سنة خمس وتسعين وخمسمائة. ومما كان في قلب المنصور من ابن رشد أنه كان متى حضر مجلس المنصور، وتكلم معه أو بحث عنده في شيء من العلم، يخاطب المنصور بأن يقول: تسمح يا أخي. وكان ابن رشد قد صنّف كتاباً في الحيوان، ونعت كل واحد منها، فلما ذكر الزرافة وصفها قال: وقد رأيت الزرافة عند ملك البربر يعني المنصور، فلما بلغ المنصور قوله صعب عليه وكان أحد الأسباب الموجبة في أنه نقم عليه وأبعده. ويقال إن ممّا اعتذر به ابن رشد أنه قال: إنما قلت ملك البرين، وإنما تصفّحت على القارىء، فقال ملك البربر.

وكانت وفاة القاضي أبي الوليد بن رشد في مراكش أول سنة خمس وتسعين وخمسمائة. وذلك في أول دولة الناصر، وكان ابن رشد قد عمّر عمراً طويلاً، وخلّف ولداً طبيباً عالماً بالصناعة يقال له أبو محمد عبدالله وخلف أيضاً أولاداً اشتغلوا بالفقه واستخدموا في قضاء الكور.

ومن كلام ابن رشد: من اشتغل بعلم التشريح ازداد إيماناً بالله.

ومن كتبه:

- كتاب التحصيل، جمع فيه اختلاف أهل العلم في الصحابة والتابعين وتابعيهم.

- كتاب المقدمات في الفقه.
- كتاب نهاية المجتهد، في الفقه.
- كتاب الكليات.
- شرح الأرجوزة المنسوبة إلى الشيخ الرئيس ابن سينا في الطب.
- كتاب الحيوان.
- جوامع كتب أرسطوطاليس في الطبيعيات والإلٰهيات.
- كتاب الضروري في المنطق، ملحق به تلخيص كتب أرسطوطاليس.
- تلخيص الإلٰهيات لنيقولاوس.
- تلخيص كتاب ما بعد الطبيعة لأرسطوطاليس.
- تلخيص كتاب المزاج لجالينوس.
- تلخيص كتاب العلل والأعراض لجالينوس.
- تلخيص كتاب الحميات لجالينوس.
- تلخيص أول كتاب الأدوية المفردة لجالينوس.
- تلخيص النصف الثاني من كتاب حيلة البرء لجالينوس.
- مقالة في المزاج.
- مسألة في نوائب الحمّى.
- مقالة في حميات العفن.
- مقالة في الترياق.

أبو بكر بن زهر الحفيد

٥٠٧ ـ ٥٩٦ هـ

أبو بكر محمد بن أبي مروان بن أبي العلاء بن زهر، الوزير الحكيم، والأديب الحسيب، مولده بمدينة إشبيلية بها نشأ وتميز في العلوم - وأخذ صناعة الطب عن أبيه، وباشر أعمالها. كان معتدل القامة صحيح البنية قوي الأعضاء. صار في سن الشيخوخة ونضارة لونه وقوة حركاته لم يتبيّن فيها تغيّر، وإنما عرض له في أواخر عمره ثقل في السمع، وكان حافظاً للقرآن، وسمح الحديث واشتغل بعلم الأدب والعربية، ولم يكن في زمانه أعلم منه بمعرفة اللغة، وصف بأنه قد أكمل صناعة الطب والأدب، وله موشحات مشهورة يُغنّى بها وهي من أجود ما قيل في ذلك.

كان أوحد زمنه في صناعة الطب خدم الدولتين، وذلك أنه لحق دولة الملثمين واستمر في الخدمة مع أبيه في آخر دولتهم، ثم خدم دولة الموحدين وهم بنو عبد المؤمن. وذلك أنه كان في خدمة عبد المؤمن هو وأبوه، وفي أيام عبد المؤمن مات أبوه وبقي هو في خدمته، ثم خدم لابن عبد المؤمن أبي يعقوب يوسف[١]، ثم لابنه يعقوب أبي يوسف[٢] الذي لقب بالمنصور، ثم خدم ابنه أبا عبدالله محمد الناصر[٣]، وفي أول دولته توفي أبو بكر بن زهر الحفيد، وكانت

(١) صاحب إشبيلية، خليفة من خلفاء الموحدين، قاتل الإفرنج، توفي سنة ١١٨٤.

(٢) سلطان من سلاطين الموحدين (١١٨٤ ـ ١١٩٩).

(٣) رابع سلاطين الموحدين في المغرب حكم (١١٩٩ ـ ١٢١٣)، حارب الإسبان، والناصر لقب شرف.

وفاته في عام ستة وتسعين وخمسمائة بمراكش، وقد أتاها ليزور بها ودفن هناك في الموضع المعروف بمقابر الشيوخ، وعمّر نحو ستين سنة.

كان الحفيد أبو بكر بن زهر قد أتى إليه من الطلبة اثنان ليشتغلا عليه بصناعة الطب فترددا إليه ولازماه مدة وقرأا عليه شيئاً من كتب الطب ثم إنهما أتيا يوماً وبيد أحدهما كتاب صغير في المنطق، وكان يحضر معهما أبو الحسين المعروف بالمصدوم، وكان غرضهم أن يشتغلوا فيه، فلما نظر ابن زهر إلى ذلك الكتاب، قال: ما هذا؟ ثم أخذه ينظر فيه، فلمّا وجده في علم المنطق رمى به ناحية، ثم نهض إليهم حافياً لضربهم، وتبعهم يعدو على حالته تلك وهو يبالغ في شتمهم، وهم يركضون قدامه إلى أن رجع عنهم عن مسافة بعيدة فبقوا منقطعين عنه أياماً لا يجسرون أن يأتوا إليه، ثم إنهم توسلوا إلى أن حضروا عنده واعتذروا بأن ذلك الكتاب لم يكن لهم ولا لهم فيه غرض، فتخادع لهم وقبل معذرتهم واستمروا في قراءتهم عليه بصناعة الطب.

ذكر القاضي أبو مروان الباجي قال: كان أبو زيد عبد الرحمن بن يوجان وزير المنصور يعادي الحفيد أبا بكر بن زهر ويحسده لما يرى من عظم مكانته وعلو منزلته وعلمه، فاحتال عليه في سم صيّره مع أحد ممن كان عند الحفيد، فقدمه إلى الحفيد في بيض، وكانت مع الحفيد أيضاً بنت أخته، وكانت أخته وابنتها هذه عالمتين بصناعة الطب والمداواة، ولهما خبرة جيدة بما يتعلق بمداواة النساء، وكانتا تدخلان إلى نساء المنصور، ولا يقبل[1] للمنصور وأهله ولداً إلّا أخت الحفيد أو ابنتها لمّا توفيت أمها. فلما أكل الحفيد من ذلك البيض وبنت أخته ماتا جميعاً ولم ينفع فيهما علاج.

ومن تلامذة الحفيد في الطب أبو جعفر بن الغزال.

ومن موشحاته المغنّاة:

أيها الساقي إليك المشتكى   قد دعوناك وإن لم تسمعِ

(١) أي يتولى قبالة نساء أهله وتوليدهنّ.

مهذب الدين بن هبل

٥١٥ - ٦١٠ هـ

أبـو الحسن علي بن أحمـد بن علي بن هبـل البغـدادي ويعــرف أيضـاً بالخلاطي. كان أوحد زمانه في صناعة الطب والعلوم الحكمية، وكان متميزاً في صناعة الأدب وله شعر حسن وألفاظ بليغة، وكان متقناً لحفظ القرآن. ولد ببغداد في باب الأزج بدرب ثمل في ثالث وعشرين ذي القعدة من سنـة خمس عشرة وخمسمائة، ونشأ ببغداد وقرأ الأدب والطب، وسمع بها من أبي القاسم إسماعيل ابن أحمد بن السمرقندي، ثم صار إلى الموصل واستوطنها إلى حين وفاته.

ذكر عفيف الدين أبو الحسن علي بن عدنان النحوي الموصلي قال: كان مهذب الدين بن هبل من بغداد وأقام بالموصل ثم بخلاط عند شاه أرمن صاحبها وبقي عنده مدة، وحصل من جهته من المال العين مبلغاً عظيماً. وقبل رحيله من خلاط بعث جملة ما له من المال العين إلى الموصل إلى مجـاهد الـدين قيماز الزيني وديعة عنده، وكان ذلك نحو مائة وثـلاثين ألف دينار. ثم أقـام ابن هبل بماردين عند بدر الدين لؤلؤ[١] والنظام إلى أن قتلهما ناصر الدين بن أرتق صاحب ماردين. وعمِيَ مهذب الدين بن هبل بماء نزل في عينيه عن ضربة، وكان عمـره إذ ذاك خمساً وسبعين سنة، ثم توجه إلى الموصل وحصلت له زمانة فلزم منزله بسكة أبي نجيح، وكان يجلس على سرير ويقصـده كل أحـد من المشتغلين عليه بـالطب وغيره.

(١) عتيق نور الدين زنكي أتابك الموصل، حارب الأمراء المتخاصمين في بلاد الموصل وجـوارها، (١١٨٠ - ١٢٥٩).

وكان مهذب الدين بن هبل أوحد الزمان في صناعة الطب، وكان في أول أمره قد اجتمع بعبدالله بن أحمد بن أحمد بن أحمد الخشاب النحوي، وقرأ عليه شيئاً من النحو، وتردد أيضاً إلى النظامية وقرأ الفقه، ثم اشتهر بعد ذلك بصناعة الطب وفاق بها أهل زمانه من الأطباء.

توفي مهذب الدين بن هبل بالموصل ليلة الأربعاء ثالث عشر محرم سنة عشر وستمائة، ودفن بظاهرها بباب الميدان بمقبرة المعافى بن عمران بالقرب من القرطبي.

له من الكتب:

- كتاب المختار في الطب، وهو كتاب جليل يشتمل على علم وعمل، صنفه سنة ٥٦٠ هـ.

- كتاب الطب الجمالي، صنّفه لجمال الدين محمد الوزير المعروف بالجواد.

كمال الدين الحمصي

ت ٦١٢ هـ

أبو المنصور المظفر بن علي بن ناصر القرشي من الفضلاء المشهورين والعلماء المذكورين. كان كثير الخير وافر المروءة كريم النفس محباً لاصطناع المعروف. اشتغل بصناعة الطب على رضي الدين الرحبي، وشرع في قراءة كتاب القانون على الحكيم القاضي بهاء الدين أبي الثناء محمود بن أبي الفضل منصور ابن الحسن بن إسماعيل الطبري المخزومي عندما قدم دمشق، وقرأ عليه منه إلى علاج الإسهال الدماغي، ثم سافر الشيخ بهاء الدين إلى بلد الروم في سنة ٦٠٨ هـ. وكان كمال الدين الحمصي قد اشتغل بالأدب أيضاً وقرأ على الشيخ تاج الدين الكندي وكان محباً للاتجار وأكثر معيشته منه، وقد كانت له دكان في الخواصين بدمشق يجلس فيها ويكره التكسب بصناعة الطب، وإنما كان الملوك والأعيان يطلبونه ويستطبونه لما ظهر من علمه وبان من فضله.

طلبه الملك العادل أبو بكر بن أيوب وغيره ليخدمهم ويبقى معهم في الصحبة فلم يرضَ، وبقي سنين يتردد إلى البيمارستان الكبير الذي أنشأه نور الدين بن زنكي يعالج المرضى فيه احتساباً، ثم أُلزم بعد ذلك بأن قررت له فيه جراية، وبقي كذلك إلى أن توفي يوم الثلاثاء تاسع شهر شعبان سنة اثنتي عشرة وستمائة.

له من الكتب:

- مقالة في الباه، وهي مستقصاة في فنّها.
- شرح بعض كتاب العلل والأعراض لجالينوس.

- الرسالة الكاملة في الأدوية المسهلة.
- اختصار كتاب الحاوي للرازي، لم يتمه.
- مقالة في الاستسقاء.
- تعاليق على الكليات من كتاب القانون.
- تعاليق في الطب.
- تعاليق في البول، ألفها في أول رجب سنة ٦٠٣ هـ.
- اختصار كتاب المسائل لحنين بن إسحق.

ابن أبي الحوافر

ت نحو ٦٢٠ هـ

جمال الدين أبو عمرو عثمان بن هبة الله بن أحمد بن عقيل القيسي، ويعرف بابن أبي الحوافر. أفضل الأطباء وسيد العلماء. أتقن الصناعة الطبية وتميز في أقسامها العلمية والعملية. وله اشتغال جيد بعلم الأدب وعناية فيه، وله شعر كثير.

ولد ونشأ بدمشق، واشتغل بصناعة الطب على الإمام مهذب الدين بن النقاش وعلى الشيخ رضي الدين الرحبي. وخدم في صناعة الطب الملك العزيز[1] عثمان ابن الملك الناصر صلاح الدين، وأقام معه في الديار المصرية، وولاه رئاسة الطب، ولم يزل في خدمته، وهو كثير الإحسان إليه والإنعام عليه، إلى أن توفي الملك العزيز. وبقي ابن أبي الحوافر في مصر وقطن بها. ثم خدم بعد ذلك الملك الكامل[2] محمد بن أبي بكر بن أيوب، وبقي معه سنين.

وكانت وفاة جمال الدين بن أبي الحوافر بالقاهرة.

ذكر بعض أصدقائه قال: كان يوماً راكباً فرأى في بعض النواحي على مصطبة بياع حمص مسلوق، وهو قاعد، وقدامه كحال يهودي، وهو واقف، وبيده المكحلة والميل، وهو يكحل ذلك البياع. فحين رآه على تلك الحال ساق بغلته نحو وضربه بالمقرعة على رأسه وشتمه، وعندما مشى معه قال له: إذا كنت أنت سفلة في نفسك، أما للصناعة حرمة؟ كنت قعدت إلى جانبه وكحلته ولا تبقى واقفاً بين يدي عامي بياع حمص. فتاب أن يعود يفعل مثل ذلك الفعل وانصرف.

وقد اشتغل على جمال الدين بن أبي الحوافر جماعة وتميزوا في صناعة الطب، وأفضل من اشتغل عليه منهم وأجل تلامذته رشيد الدين علي بن خليفة.

(١) تولى الحكم سنة ١١٩٣ م.

(٢) تولى الحكم سنة ١٢١٨ م.

مهذب الدين عبدالرحيم بن علي

٥٦٥ ـ ٦٢٨ هـ

مهذب الدين أبو محمد عبدالرحيم بن علي بن حامد ويعرف بالدخوار. انتهت إليه رئاسة صناعة الطب ومعرفتها على ما ينبغي وتحقيق كلياتها وجزئياتها، ولم يكن في اجتهاده من يجاريه ولا في علمه من يماثله. أتعب نفسه في الاشتغال وكد خاطره في تحصيل العلم حتى فاق أهل زمانه في صناعة الطب. كان مولده ومنشؤه بدمشق، وكان أبوه علي بن حامد كحالاً مشهوراً، وكذلك كان أخوه حامد بن علي كحالاً. وكان مهذب الدين في مبدإ أمره يكحل وهو مع ذلك مواظب على الاشتغال والنسخ. واشتغل بالعربية على الشيخ تاج الدين الكندي أبي اليمن، ولم يزل مجتهداً في تحصيل العلوم وملازمة القراءة والحفظ حتى في أوقات خدمته وهو في سن الكهولة.

وكان في أول اشتغاله بصناعة الطب قد قرأ شيئاً من الملكي على الشيخ رضي الدين الرحبي، ثم بعد ذلك لازم موفّق الدين بن المطران وتتلمذ له واشتغل عليه بصناعة الطب، ولم يزل ملازماً له في أسفاره وحضره إلى أن تميّز ومهر. واشتغل بعد ذلك على فخر الدين المارديني عندما جاء إلى دمشق في سنة تسع وسبعين وخمسمائة بشيء من القانون لابن سينا، وكان المارديني كثير الدراية لهذا الكتاب والتحقيق لمعانيه.

وخدم مهذب الدين الملك العادل أبا بكر بن أيوب بصناعة الطب، وكان السبب في ذلك أنه في أول أمره كان يعاني صناعة الكحل ويحاول أعمالها، وخدم بها في البيمارستان الكبير الذي أنشأه نور الدين محمود بن زنكي، ثم بعد ذلك لما اشتغل على ابن المطران ووسم بصناعة الطب أطلق له الصاحب صفي الدين بن

شكر وزير الملك العادل جراية على الطب وخدم بها، وهو مع ذلـك يشتغل ويتزيد في العمل والعلم، ولا يخل بخدمة الصاحب صفي الدين والتردد إليه، وعرف الصاحب منزلته في صناعة الطب وعلمه وفضله. ولما كان في شهر شوال سنة أربع وستمائة كان الملك العادل قد قال للصاحب بن شكر: نريد أن يكون مع الحكيم موفق الدين عبـد العزيـز حكيم آخر، بـرسم خدمـة العسكر والتـردد إليهم في أمراضهم، فإن الحكيم عبد العزيز ما يلحق لذلك، فامتثل أمره وقال: ههنا حكيم فاضل في صناعة الطب يقال له المهذب الـدخوار يصلح أن يكـون في خدمـة مولانا، فأمره باستخدامه.

ولما حضر مهذب الدين عند الصاحب قال له: إني شكرتك للسلطان وهذه ثلاثون ديناراً ناصرية لك في كل شهر وتكون في الخدمة. فقال: يا مولانا، في كل شهر مائة دينار ورواتب مثلها، وأنا أعرف منزلتي في العلـم وما أخدم به بـدون مقرره. ثم انفصل عن الصاحب ولم يقبل. ثم إن جماعة ذمت مهذب الدين على امتناعه، وما بقي يمكنه أن يعاود الصاحب ليخدم، وكان مقرره في البيمارستان شيء يسير. واتفق أنه بعد ذلك الحدث بنحو شهر، وكان يعاود الموفق عبد العزيز قولنج صعب فعرض له وتزايد به ومات منه. ولما بلغ الملك العـادل موتـه قال للصاحب: كنت قد شكرت لنا حكيماً يقال له المهذب نزله على مقـرر الموفق عبدالعزيز، فتنزل على جميع مقرره، واستمر في خدمة الملك العادل من ذلك الوقت، ثم لم تزل تسمو منزلته عنده وتتـرقى أحوالـه حتى صار جليسـه وأنيسه وصاحب مشورته.

وظهر في أول خدمته له ما أكد معرفته الطبية، ممّا أحسن الظن به والاعتماد عليه. ومن ذلك أن الملك العادل كان قد مرض ولازمه أعيان الأطباء، فأشار عليه مهذب الدين بالفصد فلم يستصوب الأطباء ذلك، فقال: والله لم نخرج له دماً إلّا خرج الدم بغير اختيارنا. ولم يوافقوه في قوله. فما كان بعد ذلك إلّا والسلطان قد رعف رعافاً كثيراً وصلح، فعرف أن ما في الجماعة من الأطباء مثله. ومن ذلك أيضاً أنه كان يوماً على باب دار السلطان ومعه جماعة من أطباء الدور، فخرج خادم ومعه قارورة جارية يستوصف لها من شيء يؤلمها، فلما رآها الأطباء وصفوا لها ما

حضرهم، وعندما عاينها الحكيم مهذب الدين قال: إن هذا الألم الذي تشكوه لم يوجب هذا الصبغ الذي للقارورة، يوشك أن يكون هذا الصبغ من حنّاء قد اختضبت به، فأعلمه الخادم بذلك وتعجب منه، وأخبر الملك العادل فزاد حسن اعتقاده به واعتماده عليه.

وكان مهذب الدين يظهر من ملح صناعة الطب ومن عجائب المداواة والتقصي في المعالجة بصفات الأدوية التي تبرىء في أسرع وقت ما يفوق به أهل زمانه، ويحصل من تأثيرها شيء كأنه السحر. ومن ذلك أنه أتى يوماً بمحموم بحمى محرقة وقواريره في غاية الحدة، فاعتبر قوته، ثم أمر بأن يترك له في قدح بزور من الكافور مقداراً صالحاً عيّنه لهم، وأن يشربه ولا يتناول شيئاً غيره. فلما أتى من الغد وجد ذلك المريض والحمى قد انحطت عنه وقارورته ليس فيها شيء من الحدة. ومثله أيضاً أنه وصف في قاعة الممرورين لمن به المرض المسمّى مانيا، وهو الجنون السبعي، أن يضاف إلى ماء الشعير في وقت إسقائه إياه مقدار متوفر من الأفيون، فصلح ذلك الرجل وزال ما به من تلك الحال.

وكانت وفاته يوم الاثنين خامس عشر صفر سنة ثمان وعشرين وستمائة ودفن بجبل قاسيون.

له من الكتب:

- اختصار كتاب الحاوي في الطب للرازي.
- اختصار كتاب الأغاني الكبير لأبي الفرج الأصفهاني.
- مقالة في الاستفراغ، ألفها بدمشق سنة ٦٢٢ هـ.
- كتاب الجنينة في الطب.
- تعاليق ومسائل في الطب، وشكوك طبية ورد أجوبتها.
- كتاب الرد على شرح ابن صادق لمسائل حنين بن إسحاق.
- مقاله يرد فيها على رسالة أبي الحجاج يوسف في ترتيب الأغذية اللطيفة والكثيفة في تناولها.

عبد اللطيف البغدادي

٥٥٧ - ٦٢٩ هـ

موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي بن أبي سعد، ويعرف بابن اللبان وبابن نقطة، ويلقب بالمطجن لقصره ودمامة خلقته. ولد بدار جده بدرب الفالوذج ببغداد سنة سبع وخمسين وخمسمائة، وحين استوى عوده شغله أبوه بسماع الحديث، فسمع من ابن البطي أبي الفتح محمد بن عبد الباقي وابن زرعة طاهر بن محمد القوسي وأبي القاسم يحيى بن ثابت الوكيل. كما أخذ عن أبيه علوم القرآن والأصول وعن عمه سليمان الفقه. ثم رحل إلى مصر فاتصل بعم ابن أبي أصيبعة وأبيه وأخذ عنهما الأدب ودرس كتب أرسطوطاليس، وحين ترك مصر إلى دمشق شغل بدراسة علم الطب.

هكذا نشأ موفق الدين حيث ولد في بغداد نشأة علمية أفاد من الكثير من شيوخها فتتلمذ لابن الأنباري كمال الدين عبدالرحمن فحفظ عليه اللغة وقرأ معه شروحها، كما حفظ أدب الكاتب لابن قتيبة، وحفظ أيضاً مشكل القرآن وغيبه، كما حفظ الإيضاح لأبي علي الفارسي والمقتضب للمبرد والكتاب لابن درستويه. وبعد وفاة ابن الأنباري لزم ابن عبيدة الكرخي فقرأ عليه كتباً كثيرة منها الأصول لابن السراج والفرائض والعروض للخطيب التبريزي. وكذلك قرأ على ابن ناثلي شيئاً في الحساب والكيمياء. وفي سنة ٥٨٥ هـ ترك بغداد إلى الموصل فأفاد من الكمال بن يونس في الكيمياء والرياضيات. ثم بعد سنة قضاها في الموصل رحل إلى دمشق فالتقى الكثير من علمائها منهم جمال الدين عبد اللطيف بن أبي النجيب وابن طلحة الكاتب، واجتمع بالكندي وجرت بينهما محادثات ومحاورات. ثم رحل إلى مصر، وبها لقي من علمائها ياسين السيميائي وكان عالماً

بالكيمياء، والرئيس موسى بن ميمون اليهودي الطبيب وأبا القاسم الشارعي وكان عارفاً بالعلوم الحكمية.

وعاد موفق الدين إلى دمشق، ثم ما عتّم أن تركها إلى مصر أيضاً يقرىء بالجامع الأزهر. وفي سنة ٦٠٤ هـ رجع إلى دمشق وأخذ في التدريس بالمدرسة العزيزية. وفي أثناء هذه الإقامة كانت له رحلات أخرى، من أشهرها رحلته إلى حلب، وكان حيث حلّ يفيد ويستفيد ويصنّف، إلى أن وافاه الأجل سنة ٦٢٩ هـ.

مصنّفاته

صنّف عبد اللطيف البغدادي الكثير من الكتب، منها:

- قوانين البلاغة.
- الإنصاف بين ابن بري وابن الخشاب.
- الجامع الكبير في المنطق.
- لغة الحكيم.
- الكلمة في الربوبية.
- الحكمية الكلامية.
- تهذيب كلام أفلاطون.
- شرح أحاديث ابن ماجّه المتعلقة بالطب.
- ذيل الفصيح لثعلب.
- الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والأحوال المعاينة في أرض مصر.

أمّا كتاب الإفادة والاعتبار فهو نفيس عظيم النفع، صنفه عبد اللطيف بعد زيارته مصر مرات كثيرة، وكان قد تنقل بين أرجائها وعاشر أهلها وخالطهم مخالطة الدارس الأديب، وتعرف على بيئاتها وأراضيها وشجرها ونباتها ومياهها.

وإنّ أطرف ما تحدث به عبد اللطيف عن مشاهداته في مصر، إنما كان وصفه لنباتاتها، والسبب هو أنه كان نباتياً طبيباً، وصلة الطبيب بالنباتات في ذلك العصر كانت صلة عظيمة متينة، فقد كان النباتي هو الطبيب، والطبيب هو النباتي أو العشّاب لأنه يعرف خصائص الأعشاب وصفاتها ويستطيع أن يميز بين النافع

والضار من أجناسها. ويتميز وصفه لنباتات مصر بقدرته الفائقة على ذكر التفاصيل الدقيقة، وبراعته في المقارنة والاستنتاج، وهو إن جانبه التوفيق أحياناً في بعض ما ذهب إليه، وفق في أغلب الأحيان، وكانت معلوماته موسوعية عامة في كثير من الأحيان كذلك.

هكذا وصف البغدادي نباتات مصر كما وصف الكثير من حيوانها، وكان يشفع وصفه بملاحظات شخصية دقيقة إلى حدّ ما، ويلاحظ أن عبد اللطيف كان يصف وصف الرحالة الذي يشاهد بنفسه، وهي ميزة ينفرد بها عن كثير ممن يروي عن غيره ويستند إلى ما جاء على لسانه وقلمه، كما تميز بالدقة في ملاحظاته واستنتاجه، وهي ملاحظات سجّلها في أثناء تطوافه وبحثه، فلم يأخذ عمّن سبقه، بل كان رحّالة دوّن ما عاين وأثبت أو جرّب ما شاهد.

رضي الدين الرحبي

٥٣٤ ـ ٦٣١ هـ

رضي الدين أبو الحجاج يوسف بن حيدرة بن الحسن الرحبي، من علماء صناعة الطب والمميزين من أهلها. كان كبير النفس عالي الهمة، كثير التحقيق، محباً للخير وأهله، شديد الاجتهاد في مداواة المرضى، رؤوفاً بالخلق. وكان والده من بلد الرحبة(١) وله أيضاً نظر في صناعة الطب، إلاّ أن صناعة الكحل كانت أغلب عليه وعرف بها. وكان مولد رضي الدين بجزيرة ابن عمر، ونشأ بها وأقام أيضاً بنصيبين(٢) وبالرحبة سنين كثيرة، وسافر إلى بغداد واشتغل بصناعة الطب ومهر فيها. واجتمع في مصر بالشيخ الموفق المعروف بابن جميع المصري وانتفع به. وكان وصوله مع أبيه إلى دمشق في سنة خمسة وخمسين وخمسمائة، وكان في ذلك الوقت ملكها، السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي. وأقام رضي الدين ووالده بدمشق، وتوفي والده ودفن بجبل قاسيون، وبقي رضيّ الدين قاطناً بدمشق وملازماً للدكان لمعالجة المرضى ونسخ بها كتباً كثيرة وبقي على تلك الحال مدة.

واشتغل على مهذب الدين بن النقاش الطبيب ولازمه فنوّه به وقدمه، وتأدت به الحال إلى أن اجتمع بالملك الناصر صلاح الدين فحسن موقعه عنده وأطلق له في كل شهر ثلاثين ديناراً، على أن يكون ملازماً للقلعة والبيمارستان، فبقي كذلك مدة دولة صلاح الدين بأسرها. وكان صلاح الدين قد طلبه للخدمة في السفر فلم يفعل، ولما توفي صلاح الدين، وانتقل الملك إلى أخيه الملك العادل، أمره أن يكون في خدمته في الصحبة فلم يجبه إلى ذلك، وطلب أن يبقى في دمشق فأطلق له الملك العادل ما كان مقرراً باسمه في أيام صلاح الدين وأن يبقى مستمراً على ما

هو عليه، وبقي على ذلك إلى أن توفي الملك العادل، وملك بعده الملك المعظم فأجرى له خمسة عشر ديناراً، على أن يبقى متردداً إلى البيمارستان فبقي كذلك إلى أن توفاه الله.

وقد اشتغل عليه بصناعة الطب خلق كثير ونبغ منهم جماعة، وأقرأوا لغيرهم وصاروا من المشايخ المذكورين في صناعة الطب، وإذا شهر أحد الأطباء بالشام لوجد إما أن يكون قرأ على الرحبي أو من قرأ على من قرأ عليه، وكان من جملة من قرأ عليه أيضاً في أول أمره الشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بن علي قبل ملازمته لابن المطران.

ومن أخباره فيما يتعلق بصناعة الطب، أن الصاحب صفي الدين بن شكر وزير الملك العادل كان أبداً يلازم أكل لحم الدجاج ويعدل عن لحم الضأن في أكثر الأوقات، فشكا إليه شحوباً كان قد غلب على لونه، وكان الأطباء يصفون له كثيراً من الأشربة وغيرها، فلما شكا إليه هذا مضى لحظة وعاد ومعه قطعة من صدر دجاجة وقطعة حمراء من الضأن، ثم قال له: أنت تلازم أكل لحم الدجاج فلم يأت الدم المتولد منه مشرق الحمرة كما يأتي من لحم الضأن، وأنت ترى لون هذا اللحم من الضأن ومباينته في اللون لهذه القطعة من الدجاج، فينبغي أن تترك أكل لحم الدجاج وتلازم أكل لحم الضأن فإنك تصلح وما تحتاج معه إلى علاج. فقبل صفي الدين بن شكر هذا الرأي وتناول ما أوصاه به واستمر على ذلك فصلح لونه واعتدل مزاجه.

وكان مولد الشيخ رضي الدين الرحبي في شهر جمادى الأولى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة بجزيرة ابن عمر، وكان أول مرضه في يوم عيد الأضحى من سنة ثلاثين وستمائة، ووفاته يوم الأحد العاشر من المحرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة بدمشق، ودفن بجبل قاسيون، فعاش نحو المائة سنة ولم يتبيّن تغير شيء من سمعه ولا بصره وإنما كان في آخر عمره قد عرض له نسيان للأشياء القريبة العهد المتجددة، وأما الأشياء البعيدة المدة التي كان يعرفها من زمان طويل فإنه كان ذاكراً لها. وخلف ولدين الأكبر منهما شرف الدين أبو الحسن علي، والآخر جمال الدين عثمان. وروى بعض أهله ممن لازمه في المرض أنه عند موته جس

نبض يده اليسرى بيده اليمنى وبقي كالمتأمل المفكر في ذلك، ، ثم ضرب بيديه كفاً على كف لأنه علم أن قوته قد سقطت، ثم عدّل زورقية[1] كانت على رأسه بيديه، واستبسل للموت ومات بعد ذلك.

وروي عنه أيضاً أنه كان يقتني أجود الطباخات، ويتقدم إليها بأحكام ما يغلب على ظنه الانتفاع باستعماله في نهاره ذلك بما باشره من نفسه، وما غلب عليه من الأخلاط في يومه، فإذا أنجزته وأعلمته بذلك طلب من يؤاكله من مؤانسيه. فإذا حضر منهم من حضر استأذنته في إحضار الطعام فيقول لها أخّريه فإن الشهوة لم تصدق بعد، فتؤخّره إلى أن يستدعيه، ويقول أعجلي فتأتيه به ويتناول منه. فقال له بعض أصحابه يوماً: ما المراد بهذا؟ فقال: الأكل مع الشهوة هو المندوب إليه لحفظ الصحة، فإن الأعضاء إذا احتاجت إلى تعويض ما تحلل منها استدعت ذلك من المعدة فتستدعيه المعدة من خارج. فقال له: وما ثمرة هذا؟ قال: أن يعيش الإنسان العمر الطبيعي. فقال له: إنك قد بلغت من السن ما لم يبق بينك وبين العمر الطبيعي إلاّ القليل، فأي حاجة إلى هذا التكلّف؟ فقال له: لأبقى ذلك القليل فوق الأرض استنشق الهواء وأجرع الماء، ولا أكون تحتها بسوء التدبير. ولم يزل على حالته تلك إلى أن أتاه أجله.

ولرضي الدين الرحبي من الكتب:

- تهذيب شرح ابن الطيب لكتاب الفصول لأبقراط.
- اختصار كتاب المسائل لحنين بن إسحاق، شرع فيه ولم يكمله.

---

(١) لعلّها من أنواع القلانس.

سديد الدين بن رقيقة

٥٦٤ ـ ٦٣٥ هـ

أبو الثناء محمود بن عمر بن محمد بن إبراهيم بن شجاع الشيباني الحانوي ويعرف بابن رقيقة، وقد جمع من صناعة الطب ما تفرق من أقوال المتقدمين، وتميّز على سائر نظرائه وأضرابه من الأطباء. هذا مع ما هو عليه من الفطرة الفائقة والألفاظ الرائقة والنظم البليغ والفقر الحكمية. وأما الرجز فلم يكن أحد أسرع منه فيه، حتى إنه كان يأخذ أي كتاب من الكتب الطبية وينظمه رجزاً في أسرع وقت مع استيفائه للمعاني ومراعاته لحسن اللفظ. لازم الشيخ فخرالدين محمد بن عبد السلام المارديني وصحبه كثيراً واشتغل عليه بصناعة الطب وغيرها من العلوم الحكمية.

وكان لسديد الدين معرفة بصناعة الكحل والجراح، وحاول كثيراً من أعمال الحديد في مداواة أمراض العين، وقدح الماء النازل من العين، وأنجب قدحه وأبصروا، وكان المقدح الذي يستعمله مجوفاً وله عطفة ليتمكن في وقت القدح من امتصاص الماء فيكون العلاج به أبلغ.

ذكر سديد الدين بن رقيقة أن مولده في سنة أربع وستين وخمسمائة بمدينة حيني ونشأ بها. ولما كان فخر الدين الماريديني بمدينة حيني، وصاحبها نور الدين بن جمال الدين بن أرتق، وكان قد عرض لنور الدين مرض في عينيه فداواه الشيخ فخرالدين مدة أيام. ثم عزم على السفر وأشار على نور الدين بأن يداويه سديد الدين بن رقيقة فعالجه سريعاً وبرأ برءاً تاماً، وأطلق له جراية في صناعة الطب، وكان سديد الدين يومئذٍ دون العشرين سنة، واستمرّ في خدمته،

ثم خدم بعد ذلك الملك المنصور محمد صاحب حماه ابن تقي الدين عمر وبقي معه مدة.

ثم سافر إلى خلاط[1] وكان صاحبها في ذلك الوقت الملك الأوحد نجم الدين أيوب ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب. وخدم صلاح الدين بن ياغيسان[2]، وكان صلاح الدين هذا قد تزوج الملك الأوحد بأخته، وكان سديد الدين بن رقيقة يتردد إلى خدمتها أيضاً، وكانت كثيرة الإحسان إليه. وأقام بخلاط مدة إلى أن توفي الملك الأوحد في ملازكرد[3] بعلة ذات الجنب وذلك في يوم السبت ثامن عشر ربيع الأول سنة تسع وستمائة. وكان يعالجه هو وصدقة السامري. وخدم أيضاً بعد ذلك الملك الأشرف أبا الفتح موسى ابن الملك العادل، وأقام بميافارقين سنين كثيرة.

ولمّا كان في ثالث جمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، وصل سديد الدين بن رقيقة إلى دمشق فأكرمه السلطان الملك الأشرف واحترمه، وأمر بأن يتردد إلى الدور السلطانية بالقلعة، وأن يواظب أيضاً معالجة المرضى بالبيمارستان الكبير الذي أنشأه الملك العادل نور الدين بن زنكي وأطلق له جراية. ولم يزل بدمشق وهو يشتغل بصناعة الطب إلى أن توفي في سنة خمس وثلاثين وستمائة.

ومن شعر سديد الدين في صناعة الطب:

أيا فاعلاً خلِّ التطبب واتئد ... فكم تقتل المرضى المساكين بالجهلِ
فتركيب أجسام الأنام مؤجل ... فلم لا كلاك الله تعجل بالحلِّ
كأنك يا هذا خلقت موكّلاً ... على رجع أرواح الأنام إلى الأصلِ
بهرت الوبا إذ قتلك الناس دائماً ... وذلك في الأحيان يحدث في فصلِ
كفى الوصب المسكين شخصك قاتلاً ... إذا عدته قبل التعرّض للفعلِ

ومن كتب سديد الدين بن رقيقة:

---

(١) مدينة بأرمينية.

(٢) كان والده ياغيسان من الأمراء السلجوقيين، حكم أنطاكية من قبل ملكشاه.

(٣) مدينة في أرمينية شمالي بحيرة وان (هي الآن في تركية).

- كتاب لطف السائل وتحف المسائل، نظم فيه مسائل حنين بن إسحاق.
- كليات القانون لابن سينا، رجز، ومعانٍ أخرى ضرورية يحتاج إليها في صناعة الطب.
- شرح كتاب كليات القانون، وله أيضاً عليه حواشٍ مفيدة.
- كتاب موضحة الاشتباه في أدوية الباه.
- كتاب الفريدة الشاهية والقصيدة الباهية، صنعها بميافارقين في سنة خمس عشرة وستمائة للملك الأشرف.
- كتاب قانون الحكماء وفردوس الندماء.
- كتاب الغرض المطلوب في تدبير المأكول والمشروب.
- مقالة مسائل وأجوبتها في الحميات.
- أرجوزة في الفصد.

رشيد الدين بن الصوري

٥٧٣ ـ ٦٣٩ هـ

أبو المنصور بن أبي الفضل بن علي الصوري، ألمّ بالصناعة الطبية، واطلع على محاسنها الجلية والخفية، وكان مميزاً في معرفة الأدوية المفردة وماهياتها واختلاف أسمائها وصفاتها، وتحقيق خواصها وتأثيراتها. مولده في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة بمدينة صور وبها نشأ. ثم انتقل واشتغل بصناعة الطب على الشيخ موفق الدين عبد العزيز، وقرأ أيضاً على الشيخ موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف البغدادي. تميّز في صناعة الطب وأقام بالقدس سنتين، وكان يطبب في البيمارستان الذي كان فيه. وصحب الشيخ أبا العباس الجياني، وكان شيخاً فاضلاً في الأدوية المفردة متفنناً في علوم أخر، فانتفع بصحبته وتعلم منه أكثر ما يفهمه. واطلع رشيد الدين الصوري على كثير من خواص الأدوية المفردة حتى شهر على أربابها وسما على سائر من حاول الاشتغال بها. وكان قد خدم بصناعة الطب الملك العادل أبا بكر بن أيوب في سنة اثنتي عشرة وستمائة، واستصحبه معه إلى القدس عندما كان متوجهاً إلى الديار المصرية، وبقي في خدمته، إلى أن توفي الملك العادل. ثم خدم بعده ولده الملك المعظم عيسى بن أبي بكر، وكان مكيناً عنده، ولم يزل في خدمته إلى أن توفي المعظم، وملك بعده ولده الملك الناصر داود فأجراه على جامكيته ورأى له سابق خدمته وفوض إليه رئاسة الطب، وبقي معه إلى أن توجه الناصر إلى الكرك، فأقام هو بدمشق، وكان له مجلس للطب وجماعة يترددون إليه ويشتغلون بالصناعة الطبية. وحرّر أدوية الترياق الكبير وجمعها على ما ينبغي فظهر للناس نفعه وعظمت فائدته، وكان قد صنع منه شيئاً كثيراً أيام الملك المعظم.

وقد توفي رشيد الدين بن الصوري يوم الأحد أول شهر رجب سنة تسع وثلاثين وستمائة بدمشق.

من كتبه:

ـ كتاب الأدوية المفردة، بدأ تصنيفه في أيام الملك المعظم، وجعله باسمه واستقصى فيه ذكر الأدوية المفردة، وذكر أيضاً أدوية اطلع على معرفتها ومنافعها لم يذكرها المتقدمون.

ـ الرد على كتاب التاج للغاوي في الأدوية المفردة.

ـ تعاليق ووصايا طبية.

ابن البيطار

ت ٦٤٦ هـ

أبو محمد عبدالله بن أحمد ضياء الدين الأندلسي المالقي العشّاب المعروف بابن البيطار، إمام النباتيين وعلماء الأعشاب. كان مولده في الربع الأخير من القرن السادس الهجري، من أسرة ابن البيطار في مالقة. وكان أول أستاذ له في علم النبات أبو العباس النباتي الذي كان يجمع النباتات من منطقة إشبيلية. ولما بلغ العشرين من عمره طاف عبدالله في شمالي إفريقية ومراكش والجزائر وتونس لدراسة النبات وخصائصه ومنافعه. وحين قدم مصر كان الملك الأيوبي على عرشها فالتحق بخدمته فعينه رئيساً على سائر العشابين. ولما توفي الملك الكامل استبقاه الملك الصالح نجم الدين، وكان يقيم في دمشق، في خدمته، وبدأ ابن البيطار من دمشق يدرس النبات الذي يزرع وينبت في الشام وآسيا الصغرى بصفته طبيباً عشاباً. وكان من ثمرة هذا التحصيل والبحث والدرس والملاحظة كتاباه:

ـ الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، وهو مجموعة من العلاجات البسيطة المستمدة من النبات والحيوان والمعادن، كانت حصيلة مصنفات الإغريق والعرب ومن تجارب خاصة.

ـ المغني في الأدوية المفردة في العقاقير، تناول فيه علاج الأعضاء عضواً عضواً كي ينتفع به الأطباء.

وقد عاش ابن البيطار نحو سبعين عاماً وكانت وفاته سنة ٦٤٦ هـ.

ذكر ابن البيطار في مقدمة كتابه الجامع لمفردات الأدوية أنه قام بوضع كتابه في الأدوية المفردة في أربعة أجزاء تنفيذاً للأوامر المطاعة الملكية الصالحية

النجمية (نجم الدين أيوب)، يذكر فيه ماهياتها وقوامها ومنافعها ومضارها وإصلاح ضررها والمقدار المستعمل من جرمها أو عصارتها أو طبيخها والبدل منها عند عدمها. يقول: «وقد استوعبت فيه جميع ما في الخمس المقالات من كتاب الأفضل ديسقوريدس بنصه، وكذا فعلت أيضاً بجميع ما أورده الفاضل جالينوس في الست المقالات من مفرداته بنصه، ثم ألحقت بقولهما من أقوال المحدثين في الأدوية النباتية والمعدنية والحيوانية ما لم يذكراه، ووصفت فيها عن ثقات المحدثين وعلماء النباتيين ما لم يصفاه، وأسندت في جميع ذلك الأقوال إلى قائلها، وعرفت طرق النقل فيها بذكر ناقلها، والغرض الثاني: صحة النقل فيما أذكره عن الأقدمين وأحرره عن المتأخرين، فما صحّ عندي بالمشاهدة والنظر وثبت لديّ ادخرته كنزاً سرياً، وأما ما كان مخالفاً في القوى والكيفية والمشاهدة الحسية في المنفعة والماهية نبذته ظهرياً، ولم أحابِ في ذلك قديماً لسبقه، ولا محدثاً اعتمد غيري على صدقه، والثالث: ترك التكرار إلّا فيما تمس الحاجة إليه لزيادة معنى وتبيان، والرابع: تقريب مأخذه بحسب ترتيبه على حروف المعجم، والخامس: التنبيه على كل دواء وقع فيه وهم أو غلط لمتقدم أو متأخر، لاعتمادي على التجربة والمشاهدة، والسادس: ذكر أسماء الأدوية بسائر اللغات.

هذا هو منهج ابن البيطار في كتابه الجامع، وهو صورة للطريقة العلمية التي جرى عليها في تصنيف كتابه اعتماداً على التجارب والمشاهدة وذكر المصادر بأمانة، وتحري الصدق ودقة القول في كل ما أثبت من معلومات علمية في ثنايا تأليفه.

ابن المنفاخ

٥٩٣ - ٦٥٢ هـ

نجم الدين أبو العباس أحمد بن أبي الفضل أسعد بن حلوان، ويعرف بابن العالمة لأن أمه كانت عالمة بدمشق وتعرف ببنت دهين اللوز. ولد نجم الدين بدمشق في سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة، وكان أسمر اللون نحيف البدن حاد الذهن مفرط الذكاء فصيح اللسان كثير البراعة، لا يجاريه أحد في البحث، ولا يلحقه في الجدل، اشتغل على الشيخ مهذب الدين عبدالرحيم بن علي بصناعة الطب حتى أتقنها، وكان مميزاً بالعلوم الحكمية، قوياً في علم المنطق، مليح التصنيف جيد التأليف، وكان يترسل ويكتب بخط حسن وله شعر.

خدم بصناعة الطب الملك المسعود صاحب آمد وحظي عنده واستوزره، ثم بعد ذلك نقم عليه وأخذ جميع موجوداته، ورحل إلى دمشق وأقام بها. وفي دمشق اشتغل عليه جماعة بصناعة الطب، وكان مكيناً في الدولة، كتب إليه الصاحب جمال الدين بن مطروح في جواب كتاب منه:

لله درّ أنامل شرفت ... وسمت فأهدت أنجماً زهرا
وكتابة لو أنها على الملكـ ... ـين ما ادعيا إذن سحرا
لم أقرَ سطراً من بلاغتها ... إلا رأيت الآية الكبرى
فاعجب لنجم في فضائله ... أنسى الأنام الشمس والبدرا

وكان نجم الدين بن المنفاخ لحدة مزاجه قليل الاحتمال والمداراة، وكان جماعة يحسدونه لفضله ويقصدونه بالأذى، وكان ممّا قاله فيهم:

وكنت سمعت أن الجنّ عند (م) استراق السمع ترجم بالنجوم

فلما أن علوت وصرت نجماً رُميتُ بكل شيطانٍ رجيم

وفي آخر عمره خدم نجم الدين الملك الأشرف ابن الملك المنصور صاحب حمص بتل باشر[1]، وأقام عنده مدة يسيرة. وتوفي في ثالث عشر ذي القعدة سنة اثنتين وخمسين وستمائة، وقد ذكر أخوه لأمه القاضي شهاب الدين ابن العالمة أنه توفي مسموماً.

له من الكتب:

- كتاب التدقيق في الجمع والتفريق، ذكر فيه الأمراض وما تتشابه فيه، والتفرقة بين كل واحد منها وبين الآخر مما تتشابه في أكثر الأمر.
- كتاب هتك الأستار في تمويه الدخوار، تعاليق ما حصل له من التجارب.
- شرح أحاديث نبوية تتعلق بالطب.
- كتاب المهملات في كتاب الكليات.
- كتاب المدخل إلى الطب.
- كتاب العلل والأعراض.
- كتاب الإشارات المرشدة في الأدوية المفردة.

---

(١) قلعة بالقرب من عينتاب في شمالي سورية على نهر ساجور.

شرف الدين بن الرحبي

٥٨٣ - ٦٦٧ هـ

شرف الدين ، أبو الحسن علي بن يوسف بن حيدرة بن الحسن الرحبي . ولد في دمشق سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وكان قد حذا حذو أبيه رضيّ الدين ، وكان أشبه به خلقاً وخُلقاً وطرائق . وكان لم يزل متوفراً على قراءة الكتب وتحصيلها متطلعاً إلى طلب الفضائل وتفصيلها ، وله تدقيق في الصناعة الطبية وتحقيق لمباحثها الكلية والجزئية . وله في الطب كتب مؤلفة وحواش متفرقة . اشتغل بصناعة الطب على أبيه ، وقرأ أيضاً على الشيخ موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف البغدادي وحرّر عليه كثيراً من العلوم ولا سيما من تصانيف الشيخ موفق الدين البغدادي ، واشتغل أيضاً بالأدب على الشيخ علم الدين السخاوي وعلى غيره من العلماء وقد أتقن علم الأدب إتقاناً جيداً ، وله فطرة مميزة في نظم الشعر . وكان نزيه النفس عالي الهمة لم يؤثر التردد إلى الملوك ولا إلى أعيان الدولة .

خدم شرف الدين في البيمارستان الكبير الذي أنشأه الملك العادل ، ولما وقف الشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدار التي له بدمشق وجعلها مدرسة يدرس فيها صناعة الطب وينتفع المسلمون بقراءتهم فيها أوصى أن يكون مدرسها شرف الدين بن الرحبي لما قد تحققه عنه من العلم والعمل . فتولى التدريس بها مدة إلى أن توفي بدمشق ودفن بجبل قاسيون ، وكانت وفاته يوم الجمعة حادي عشر المحرم سنة سبع وستين وستمائة بعلّة ذات الجنب .

وقد ذكر بدر الدين ابن قاضي بعلبك وشمس الدين الكتبي المعروف بالخواتمي قالا : كان شرف الدين قبل أن يمرض ويموت بأشهر يقول للجماعة المترددين إليه ، والتلاميذ المشتغلين عليه ، إنه بعد قليل أموت وذلك يكون عقد

قران الكوكبين، ثم يقول لهم: قولوا للناس هـذا حتى يعرفـوا مقدار علمي في حياتي وعلمي بعد موتي، وكان قوله موافقاً لما حكم به.

من كتب شرف الدين بن الرحبي:

- كتاب في خلق الإنسان وهيئة أعضائه ومنفعتها.
- حواش على كتاب القانون لابن سينا.
- حواش على شرح ابن أبي الصادق لمسائل حنين بن إسحاق.

ابن أبي أصيبعة

٦٠٠ - ٦٦٨ هـ

موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة السعدي الخزرجي. ولد في مدينة دمشق سنة ٦٠٠ هـ في بيت علم وأدب، فقد كان أبوه القاسم من أمهر الكحالين وأطباء العيون في دمشق. بعد أن أتقن أحمد العلوم اللسانية على علماء زمانه، انصرف إلى تلقي علوم الطب عن والده، ولكنه رأى أن ما يحسنه والده لا يشفي غليلاً، فانصرف إلى تلقي العلوم التي تبحث في جميع أمراض العيون على من كان يحسنها. وكانت القاهرة في عهده منتهى السبل وملتقى العلماء، والدولة الأيوبية في عز مجدها وسؤددها، فسافر إلى القاهرة والتحق في المارستان الناصري الذي أنشأه الملك الناصر صلاح الدين في القاهرة، وأخذ يعمل ليلاً ونهاراً على تحصيل العلم فاشتهر بذكائه وحسن مداواته للمرضى، واستلفت نبوغه الملك فألحقه بخدمة الدولة. وكانت شهرته قد وصلت إلى أسماع عز الدين وهو في صرخد، إحدى مدن جبال حوران، فأرسل في طلبه، فرحل إليه وأعجبه مناخ صرخد فمكث فيها إلى أن توفي سنة ثمان وستين وستمائة للهجرة.

ترك لنا أبو العباس أحمد ذكراً خالداً ومؤلفاً ضخماً ألفه لأمين الدولة وزير الملك الصالح، وهو أحسن كتاب في التراجم لا يشبهه إلّا كتاب أخبار الحكماء، لكنه يمتاز عليه بأنه أوسع وأوفر مادة، جمعه وقاسى في جمعه الصعاب، وقضى السنين الطوال محققاً ومدققاً، حتى تمكن من تأليف كتابه هذا وقد أسماه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء».

وكان ابتدأ بترجمة كبار الأطباء زمن الإغريق والرومان والهنود، ثم قسمه إلى

أقسام عدة، وهو يتضمن ما يزيد عن أربعمائة ترجمة. ترجم أولاً لأطباء اليونان وغيرهم، وهو لا يترك شاردة ولا واردة إلاّ ويذكرها، ثم لا يكتفي بذكر ما قام به المترجم له من أعمال بل يأتي على ذكر شيء من آرائه في الطب، لكنه لا يذكر سنة الولادة ولا سنة الوفاة على أنه إذا تمكن من معرفة سنة الوفاة ذكرها، وإلاّ فهو يذكر صاحب الترجمة ذاكراً ما وصل إليه وما أثر عنه، ثم بعد ذلك يذكر ما ألفه المترجم له من كتب أو ما نقله إلى اللسان العربي من الكتب.

ثم يتكلّم عن الأطباء العرب والعجم والهنود والمغاربة، وأطباء مصر والشام. ويمتاز هذا السفر بأنه يأتي على ذكر الكثير من الشعر الذي نظمه الأطباء المترجم لهم، ويمتاز أيضاً بذكر بعض تراجم لعدد كبير من الذين اشتهروا ولم يعرف عنهم الطب.

وقد قال ابن أبي أصيبعة في مقدمة كتابه: «وأما هذا الكتاب الذي قصدت حينئذٍ إلى تأليفه، فإني جعلته منقسماً إلى خمسة عشر باباً وسميته عيون الأنباء في طبقات الأطباء، وخدمت به خزانة المولى الصاحب الوزير العالم العادل الرئيس الكامل سيد الوزراء ملك الحكماء إمام العلماء شمس الشريعة أمين الدولة كمال الدين شرف الملة أبي الحسن بن غزال أبي سعيد أدام الله سعادته، وبلغه في الدارين إرادته».

فخر الدين بن الساعاتي

القرن السابع الهجري

رضوان بن محمد بن علي بن رستم الخراساني الساعاتي. مولده ومنشؤه بدمشق. كان أبوه محمد من خراسان وانتقل إلى الشام وأقام بدمشق إلى أن توفي، وكان مشهوراً في معرفة الساعات وعلم النجوم، وهو الذي عمل الساعات عند باب الجامع بدمشق، صنعها في أيام الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، وكان يجري عليه جراية لملازمته الساعات، وبقي كذلك إلى أن توفي، وكان قد خلف ولدين أحدهما بهاء الدين أبو الحسن علي بن الساعاتي الشاعر، الذي هو أفضل أهل زمانه في الشعر، توفي بالقاهرة وديوانه مشهور، والآخر فخر الدين رضوان بن الساعاتي الطبيب الفاضل العارف بالعلوم الأدبية.

قرأ فخر الدين صناعة الطب على الشيخ رضي الدين الرحبي ولازمه مدة، وكان فطناً ذكياً متقناً للصناعة، حريصاً في العلم الذي يشتغل فيه، وقرأ أيضاً صناعة الطب على فخر الدين المارديني. ولما ورد إلى دمشق، كان فخر الدين بن الساعاتي جيد الكتابة عارفاً بالشعر أيضاً، وله معرفة جيدة بصناعة المنطق والعلوم الحكمية، وكان اشتغاله بعلم الأدب على الشيخ تاج الدين الكندي بدمشق، وقد خدم فخر الدين الملك الفائز[1] ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب وتوزّر له، وخدم أيضاً الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل بصناعة الطب وتوزّر له، وكان ينادمه ويلعب بالعود، وكان محباً لكلام الشيخ الرئيس ابن سينا في الطب مغرى به، وتوفي بدمشق بعلّة اليرقان.

(١) من الملوك الأيوبيين تولى الملك بعد أبيه العادل.

ومن شعره في صناعة الطب:

يحسدني قومي على صنعتي لأنني بينهم فارسٌ
سهرت في ليلي واستنعسوا لن يستوي الدارس والناعسُ

ترك فخر الدين بن الساعاتي من الكتب:

- تكميل كتاب القولنج للرئيس ابن سينا.
- الحواشي على كتاب القانون لابن سينا.
- كتاب المختارات في الأشعار.

داود الأنطاكي

ت ١٠٠٨ هـ

داود بن عمر الأنطاكي، يلقبونه بالحكيم الماهر الفريد، والطبيب الحاذق الوحيد، جالينوس أوانه، وأبقراط زمانه، العالم الكامل. ولد بأنطاكية وإليها انتسب، وهي مدينة تقع في شمالي سورية وسط سهل خصب جميل في الحوض الأدنى لنهر العاصي، وكانت من أشهر مدن سورية. لم تأت المصادر على ذكر تاريخ ولادة داود بن عمر، وإنما يرجح أن يكون مولده في القرن العاشر الهجري. قرأ كتب الأقدمين من اليونانيين من أمثال أبقراط وديسقوريدس وجالينوس، كما قرأ لابن سينا والرازي والزهراوي وغيرهم، وعني بدراسة الطب العلاجي خاصة، وتحضير الأدوية والوصفات وما نسمّيه اليوم «الصيدلة».

من أشهر مؤلفاته كتابه الضخم «تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب» والذي عرف واشتهر باسم «تذكرة داود».

يقع هذا المؤلَّف في نحو سبعمائة صفحة من القطع الكبير، وقد قسمه داود إلى ثلاثة أجزاء تتضمن مقدمة وأربعة أبواب، خصّ المقدمة بتعداد العلوم المذكورة في الكتاب وحال الطب معها، ومكانته وما ينبغي له ولمتعاطيه وما يتعلق بذلك من الفوائد. ثم تكلم في الباب الأول عن كليات هذا العلم ومداخله، وأفرد الباب الثاني لقوانين الإفراد والتركيب وأعماله العامة، وما ينبغي أن يكون عليه في الخدمة من مثل السحق والقلي والغلي والجمع والإفراد والمراتب وأوصاف المقطّع والمليّن والمفتّح إلى غيرها من المراتب. ثم تكلم في الباب الثالث عن المفردات والمركبات وما يتعلق بها من اسم وماهية ومرتبة ونفع وضرّ، ورتبه على حروف المعجم. ثم أنه تكلم في الباب الرابع عن الأمراض وما يخصها من العلاج

وبسط العلوم المذكورة، وما يخص العلم من النفع وما يناسبه من الأمزجة وما له من المدخل في العلاج.

ذكر داود في مقدمة كتابه قال: «عار على من وهب النطق المميز أن يطلب رتبة دون الرتبة القصوى، ويقول كفى بالعلم شرفاً أن كلًّا يدعيه، وبالجهل ضعة أن كلًّا يتبرأ منه، والإنسان إنسان بالقوة إذا لم يعلم فإذا علم كان إنساناً بالفعل».

وعن الطب، قال: «إنه كان من علوم الملوك يتوارث فيهم، ولم يخرج عنهم خوفاً على مرتبته. وقد عوتب أبقراط في بذله للأغراب، فقال: «رأيت حاجة الناس إليه عامة والنظام متوقف عليه، وخشيت انقراض آل أسقليموس ففعلت ما فعلت» ولعمري لقد وقع لنا مثل هذا، فإني حين دخلت مصر ورأيت الفقيه الذي هو مرجع الأمور الدينية يمشي إلى أوضع يهودي للتطبب، فعزمت على أن أجعله كسائر العلوم يدرس ليستفيد به المسلمون، فكان ذلك وبالي ونكد نفسي وعدم راحتي من سفهاء لازموني قليلاً ثم تعاطوا الطب فضروا الناس في أقوالهم وأبدانهم وأنكروا الانتفاع بي». هكذا تابع داود في المقدمة والباب الأول كليات هذا العلم والمداخل إليه مزوداً بالنصائح العامة. أما الباب الثاني فقد خصصه لأسماء القوانين الجامعة لأحوال المفردات والمركبات، وبعد ذكر أول من ألف في الطب وانتقاله إلى أيدي النصارى ثم المسلمين، يقول «إن كلًّا من هؤلاء لم يخل كتابه مع ما فيه من الفوائد عن إخلال بالجليل من المقاصد». وفي الحق أن داود كان بارعاً رائعاً أميناً في نقده لسلفه من أرباب هذه الصناعة، فذكر ما لهم وما عليهم ووعد بأن يذكر ما أغفله أهل هذه الصناعة وما حدث من الأدوية والتجارب لهم وله حتى سنة ٩٧٦ هـ حين كان يملي كتابه «تذكرة أولي الألباب».

ويعتبر الباب الثالث من التذكرة أهم أبوابها، فقد تضمّن المفردات والأقرباذينيات مرتبة على حروف المعجم، فأورد عدة مئات من أسماء النبات والحيوان والعقاقير المتخذة منها أو من عناصر أو أملاح كيماوية، وبالجملة كل ما يتداوى به من النبات والحيوان والمعادن. أما الباب الرابع فقد خصّصه لأحوال الأمراض الجزئية واستقصاء أسبابها وعلاماتها وضروب معالجتها الخاصّة بها، ثم ذكر بعض القواعد، وقال إنها تجري منه مجرى المقدمة، وقال إن لكل موجود أربع:

مادية وهي الأصل، صورية وهي العين، فاعلية وهي المؤثرة، وغائية وهي جواب لِمَ وُجِد.

هذا ما ورد في الجزءين الأول والثاني من التذكرة، أما الجزء الثالث فهو كما ذكر في عنوانه تذييل لبعض تلاميذ داود، تكلم فيه عن اليرقان والكابوس والكمته (من أمراض العين)، ثم أمراض الكلى واللسان واللثة والمفاصل والنسا والمعدة والمغص والمثانة والماليخوليا وغيرها من الأمراض وخصّ أحد الفصول في هذا الجزء بعلم التشريح وأمراض العين والصفراء والصلع والثآليل والقوباء والقلاع والقراع والرعشة والكزاز والخدر وذات الرئة وذات الجنب.

والجدير بالذكر أن التذكرة حوت على ما ليس من الطب في شيء، فنحن نقرأ عن منازل الكواكب البروج والرقى والتعاويذ والفوائد والأدعية، وكلام في الفلك والجغرافيا، على عادة الكتاب المتقدمين.

ولداود بالإضافة إلى التذكرة، كتاب آخر في الأدب أسماه «تزيين الأسواق». وقد كانت إقامته في القاهرة، وتوفي بمكة سنة ١٠٠٨ هـ.

دراسة الجغرافية وكتابة التاريخ

برزت عوامل دينية دعت بالمسلمين إلى دراسة الجغرافية منها فريضة الحج، وأمر توجيه المساجد عند بنائها نحو مكة المكرمة وتعيين القبلة عند الصلاة، وبالإضافة إلى هذين السببين الدينيين، كان علم التنجيم الذي يتطلب تعيين خطوط الطول والعرض لكل موضع في الأرض ذا أثر علمي أيضاً في الدراسة. وكان التجار المسلمون قد بلغوا ـ بين القرنين السابع والتاسع ـ بلاد الصين بحراً وبراً ووصلوا إلى جزيرة زنجبار وأقاصي شواطىء إفريقية جنوباً، وتوغلوا إلى روسية شمالاً، ولم توقفهم غرباً إلّا أمواج بحر الظلمات. وكان هؤلاء التجار يعودون إلى أوطانهم ليقصّوا أخبار ما عاينوه في أسفارهم، فتثير هذه الأخبار رغبة في نفوس المستمعين للتعرف على أحوال البلدان والشعوب. وكان أول ما كتب في العربية في وصف الصين وشواطىء الهند بيان في أسفار التاجر سليمان السيرافي، وقد دوّن هذا البيان سنة ٨٥١ كاتب مجهول. ومن بيان هذه الرحلة وغيرها نشأت بالتدريج حكايات السندباد البحري. ولعلّ أقدم ما كتب عن الروسية بيان ابن فضلان الذي أوفده المقتدر إلى ملك البلغار. وقد حفظ هذا البيان في معجم البلدان لياقوت، وأشار المسعودي في مروج الذهب إلى تجار مسلمين بين قبائل الدير السلافية.

إنّ الجغرافيين المسلمين لم يظهروا حتى أواسط القرن الرابع الهجري، وذلك حين ظهر الإصطخري وابن حوقل والمقدسي. وقد وضع الإصطخري كتابه «مسالك الممالك» مزيناً بالخرائط الملونة لكل بلد على حدة، وكان اعتماده على الأصول الجغرافية التي أسّسها أبو زيد البلخي الذي نجم في بلاط السامانيين، والجدير بالذكر أن الطريقة التي اتبعها كل من البلخي والإصطخري في وضع

الجغرافية لم تعن بالبلاد الخارجة عن نطاق الإسلام. ثم جاء ابن حوقل الذي سافر إلى إسبانية فنقح خرائط الإصطخري وأصلح جغرافيته، ثم كتبها ثانية وجعلها بعنوان «المسالك والممالك». ثم أتى المقدسي الذي وضع كتاباً بيّن فيه أسفاره التي دامت عشرين عاماً وأسماه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم». ثم في الزمن نفسه نجم الحسن بن أحمد الهمداني وصنف «الإكليل» و«صفة جزيرة العرب» وهما من أنفس المصادر عن جزيرة العرب في الجاهلية والإسلام.

وإذا انتقلنا إلى تدوين التاريخ نجد الذي أُثر عن العصر الأموي لم يتعد النزر اليسير، فالمؤلفات التاريخية العربية الأولى وضعت في العصر العباسي. وكانت المادة الأولى لكتابة التاريخ العربي الإسلامي مستمدة من الأساطير التي انتقلت من الجاهلية شفاهاً ومن القصص والأخبار الدينية التي نسجت حبكتها حول شخصية الرسول ﷺ وسيرته وغزواته. وقد برز في نسج الأخبار عن الفترة الزمنية الجاهلية هشام الكلبي الكوفي. وكان أول المؤلفات المبنية على الأحاديث الدينية هي سيرة الرسول ﷺ لابن إسحاق المدني، غير أن هذه السيرة لم تصل إلينا إلاّ متأخرة عن ابن هشام. ثم كـرت سبحة الكتب التي تناولت حروب الإسلام الأولى والفتوحات الإسلامية الكبرى من مثل كتاب «المغازي» لموسى بن عقبة، والواقدي. وقد ترك لنا هذا الأخير أول كتاب في الطبقات ذكر فيه سير الرسول ﷺ والصحابة والتابعين إلى تاريخه. ويعد كتاب «فتوح مصر وأخبارها» لابن عبد الحكم أقدم وثيقة محفوظة في فتوح مصر وإفريقية الشمالية وبلاد الأندلس، ثم تلاه «فتوح البلدان» للبلاذري و«أنساب الأشراف» وكان هذا المؤرخ أول من جمع القصص في الفتوح الإسلامية وصاغها معاً في كتاب واحد شامل.

ومن أوائل المؤرخين الدنيوري ابن قتيبة صاحب كتاب «المعارف»، وابن واضح اليعقوبي المؤرخ، والطبري، والمسعودي. وقد بلغ التأليف التاريخي أعلى مراتبه فيما وضعه الطبري ابن جرير والمسعودي، وقد اختصر ابن الأثير تاريخ الطبري في كتابه» الكامل في التاريخ»، وألحقه بكتاب آخر أسماه «أسد الغابة» جمع فيه تراجم سبعة آلاف وخمسمائة سيرة من سير الصحابة. أما ابن الجوزي فقد صنف «مرآة الزمان في تاريخ الأيام» بدأ فيه منذ خلق العالم. ثم نشط ابن خلكان، وهو أول مسلم ألف معجماً قومياً لتراجم أعيان الأمة.

عباقرة التاريخ والجغرافية

ابن السائب الكلبيّ

ت ٢٠٤ هـ

هشام بن محمد بن السائب بن بشر بن عمر الكلبي، أبو المنذر الأخباري النسّابة العلّامة، كان عالماً بالنسب وأخبار العرب وأيامها ووقائعها ومثالبها، أخذ عن أبيه النضر محمد المفسّر وعن مجاهد ومحمد بن أبي السري البغدادي ومحمد بن سعد كاتب الواقدي وأبي الأشعث أحمد بن المقدام وغيرهم، وحدث عنه جماعة. قال أحمد بن حنبل: كان صاحب سِيرَ ونسب ما ظننت أن أحداً يحدث عنه. وقال البلاذري في تاريخه: حدث هشام بن الكلبي عن أبيه عن أبي صالح عن ابن عباس. وذكر الخطيب في تاريخ بغداد أن هشاماً كان يقول: حفظت ما لم يحفظه أحد ونسيت ما لم ينسَه أحد، كان لي عم يعاتبني على حفظ القرآن، فدخلت بيتاً وحلفت لا أخرج حتى أحفظ القرآن فحفظته في ثلاثة أيام.

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: رأيت ثلاثة كانوا إذا رأوا ثلاثة يذوبون، علويّه إذا رأى مخارقاً وأبا نواس إذا رأى أبا العتاهية، والزهري إذا رأى هشاماً. وكانت وفاة ابن السائب الكلبي سنة ٢٠٤ هـ وقيل ٢٠٦، وتصانيفه تزيد على مائة وخمسين مصنفاً.

مصنّفاته في الأحلاف:

- كتاب حلف عبد المطلب وخزاعة.
- كتاب حلف الفضول وقصة الغزال.
- كتاب حلف كلب وتميم.
- كتاب حلف أسلم وقريش.

ـ كتاب المعران.

مصنّفاته في المآثر والبيوتات والمنافرات والموؤودات:

ـ كتاب المنافرات.
ـ كتاب بيوتات قريش.
ـ كتاب فضائل قيس.
ـ كتاب عيلان.
ـ كتاب الموؤودات.
ـ كتاب بيوتات ربيعة.
ـ كتاب الكنى.
ـ كتاب أخبار العباس بن عبد المطلب.
ـ كتاب خطبة علي كرم الله وجهه.
ـ كتاب شرف قصي بن كلاب وولده في الجاهلية والإسلام.
ـ كتاب ألقاب قريش.
ـ كتاب ألقاب بني طابخة.
ـ كتاب ألقاب قيس عيلان.
ـ كتاب ألقاب ربيعة.
ـ كتاب ألقاب اليمن.
ـ كتاب المثالب.
ـ كتاب النوافل (نوافل قريش، كنانة، أسد، تميم، قيس، إياد، ربيعة).
ـ كتاب تسمية من نقل من عاد وثمود والعماليق وجرهم وبني إسرائيل من العرب.
ـ كتاب أخبار زياد بن أبيه.
ـ كتاب ملوك الطوائف.
ـ كتاب ملوك كندة.
ـ كتاب بيوتات اليمن من التبابعة.
ـ كتاب طسم وجديس.

مصنفاته في أخبار الأوائل:

ذكر له ابن النديم في الفهرست صفحة ١٤١ ما يقرب من ثلاثين مصنّفاً في الأخبار.

مصنفاته فيما قارب الإسلام من أمر الجاهلية:

- كتاب اليمن وأمر سيف.
- كتاب مناكح أزواج العرب.
- كتاب أزواج النبي ﷺ.
- كتاب زيد بن حارثة حب النبي ﷺ.
- كتاب الديباج في أخبار الشعراء.
- كتاب أخبار عمرو بن معدي كرب.

مصنفاته في أخبار الإسلام:

- كتاب التاريخ.
- كتاب تاريخ أجناد الخلفاء.
- كتاب صفات الخلفاء.
- كتاب المصلين.

مصنفاته في أخبار البلدان:

- كتاب البلدان الكبير.
- كتاب البلدان الصغير.
- كتاب تسمية من بالحجاز من أحياء العرب.
- كتاب قسمة الأرضين.
- كتاب الأنهار.
- كتاب الحيرة.
- كتاب منار اليمن.
- كتاب العجائب الأربع.
- كتاب البيع والديارات ونسب العباديين.

- كتاب أسواق العرب.
- كتاب الأقاليم.

وفي النسب له من المصنفات:

- جمهرة الأنساب.
- الأصنام.
- نسب الخيل.
- افتراق العرب.
- كتاب النسب الكبير.
- كتاب نسب اليمن.

ومن كتبه أيضاً:

- كتاب أمهات الخلفاء.
- كتاب أمهات النبي ﷺ.
- كتاب العواقل.
- كتاب تسمية ولد عبد المطلب.
- كتاب كنى آباء الرسول ﷺ.
- كتاب جمهرة الجمهرة (رواية ابن سعد).
- كتاب الملوكي في الأنساب، صنفه لجعفر بن يحيى البرمكي.
- كتاب الموجز في النسب.

ابن عبد الحكم

١٨٧ - ٢٥٧ هـ

عبد الرحمن بن عبدالله بن عبد الحكم، أبو القاسم، مؤرخ من أهل العلم بالحديث. مصري المولد والوفاة. ولد سنة ١٨٧ هـ، وكان والده يشغل إذ ذاك منصب صاحب المسائل، وهي وظيفة لا ينالها إلّا العلماء الأمناء. وأسرة ابن عبد الحكم إحدى الأسر العربية التي جاءت إلى مصر في القرن الأول الهجري، ونزلت في بلدة الحقل بالقرب من العقبة (أيلة). وفي القرن الثاني الهجري انتقل أفراد الأسرة إلى الفسطاط التي أصبحت لمصر بعد الفتح الإسلامي عاصمة البلاد وقلبها النابض. وقد أسهم أبناء هذه الأسرة في خدمة وطنهم حيث اشتغلوا بالدراسات الدينية، كما تولوا المناصب الكبرى في البلاد وقاموا بدور هام في توجيه أحداثها السياسية كذلك. وكان المجد العلمي والسياسي قد تجمع لأفراد هذه الأسرة، وبذلك أتيح لعبد الرحمن فرصة نادرة درس فيها عن كثب أحوال وطنه وجيرانه في الميدان الفكري والمجال السياسي.

ولمّا بلغ عبد الرحمن الثانية عشرة من عمره حضر وصول الإمام الشافعي إلى مصر سنة ١٩٩ هـ، ونزل ضيفاً على والده. وكان أن هيأت هذه المناسبة سبيلاً أمام عبد الرحمن لينتفع من الحركة الفكرية الدينية التي أحدثها الإمام في ربوع مصر. ولم تلبث الأحداث أن فتحت أمام الصبي سبلاً أخرى نحو المعرفة، وذلك حين تولى والده عبدالله رئاسة جماعة المالكية، وهي أعظم الطوائف في مصر وكذلك في المغرب، إذ جاء علماء الأندلس يدرسون على يديه مذهب مالك والتقوا بالتالي في منزل عبدالله أستاذهم بابنه عبد الرحمن، فتزود منهم بالأخبار وسمع منهم أحوال أوطانهم. وقد وجد عبد الرحمن في إخوته الكبار، وكانوا ثلاثة

من أفضل علماء مصر وفقهائها، شيوخاً وأساتذة أيضاً، ونال على أيديهم قدراً عظيماً من الثقافة والدربة.

وإذا كان عبد الرحمن قد أفاد من نشاط أسرته العلمي ومكانتها الدينية والسياسية، فقد ناله ما نالها من أذى بعد ذلك، فقد حدث، وكان عبد الرحمن في السابعة والعشرين من عمره، أن اعترض جماعة من العلماء من أهل مصر على تعيين الخليفة المأمون لأخيه المعتصم حاكماً على مصر وكتبوا إليه بذلك. ولما دخل المعتصم مصر ألقى القبض على نفر من كبار أهل مصر وكان من بينهم عبدالله بن عبد الحكم، فسيق عبدالله إلى السجن وبقي فيه إلى حين وفاته سنة ٢١٤ هـ وقد أثرت هذه الفاجعة في نفس عبد الرحمن أثراً شديداً وجعلته يكره الاشتغال بالسياسة، ويعكف إلى مجال التاريخ.

ثم إن المآسي تتالت على ابن عبد الحكم، فلم يكد يمضي ثلاثة عشر عاماً على وفاة أبيه، حتى حلّ بإخوته نكبة فظيعة بسبب مشكلة خلق القرآن التي أثارها المعتزلة أيام الخليفة المأمون العباسي. واشتدت هذه المشكلة في مصر حين وُلي المعتصم بعد المأمون فبعث الخليفة الجديد إلى قاضي مصر محمد بن أبي الليث في امتحان الناس في القول بخلق القرآن. ولمّا كان أخوة عبد الرحمن على المذهب المالكي، فقد نالهم نصيب من الأذى وشُهّر بهم، ثم حدثت الطامة الكبرى حين أرسلت الخلافة عمالها إلى مصر للتحري عن أموال أحد الثائرين عليها، ويعرف بابن الجروي، بعد أن ألقت عليه القبض في تلك البلاد، وكانت الشائعات قد ترامت بأن ابن الجروي قد أخفى قسماً كبيراً من أمواله في حرز ابن عبد الحكم، ولذا أمر الخليفة بالقبض على أفراد الأسرة ومن بينهم المؤرخ عبد الرحمن. وعقدت بعد ذلك محكمة لتتولّى النظر فيهم ترأسها القاضي ابن أبي الليث الذي شهّر بهم من قبل في أثناء محنة خلق القرآن وقد عرفت هذه الدعوى باسم «قضية بني عبد الحكم» بسبب الأحكام القاسية التي نزلت بهم. إذ حكم القاضي على أبناء هذه الأسرة بغرامة مقدارها (١٤٠٤٠٠٠ دينار)، ثم تبع ذلك اتخاذ الإجراءات القضائية لتحصيل تلك الغرامة من حيث مصادرة أموال وممتلكات الأسرة، وزج بهم في السجن، حيث مات الأخ الأكبر عبد الحكم.

بعد أشهر ثلاثة من هذه المحاكمة التعسفية، اتضحت براءة أفراد الأسرة، فأمرت الخلافة بإلقاء القبض على القاضي ابن أبي الليث ومحاكمته لأنه لم يتحرّ الحقيقة في حكمه، ثم أمر بالإفراج عن أبناء عبد الحكم وإعادة ممتلكاتهم إليهم. وآثرت الأسرة بعد توالي هذه النكبات العزلة عن الحياة العامة حتى لا تصاب بنكبات ثانية.

ولعل الأقدار شاءت أن تحفظ لأسرة عبد الحكم ذكراها وما قدمته من خدمات في مجال الدراسات الإسلامية، وأن لا تكون الأحداث التي نزلت بها متلفة لأعمالها الجليلة، وذلك من طريق ما صنّفه عبد الرحمن من تاريخ مصر في المرحلة الأولى من حياتها في ظل الإسلام، فكان مؤلفه ثمرة جهد قدّمه هذا الابن من أجل خدمة الوطن. وقد اعترف الناس بما ناله هذا العالم من السبق على سائر إخوته في ميدان الدراسات الإسلامية، وصاروا يلقبونه، من دونهم جميعاً، ليس باسمه الأول (عبد الرحمن) ولكن باسم «ابن عبد الحكم» تخليداً لذكرى هذه الأسرة التي خدمت مصر سياسياً ودينياً، فكان عبد الرحمن الحافظ الأمين لتراث أسرته العلمي والاجتماعي.

كان هدف ابن عبد الحكم تجريد الأخبار المتعلقة بمصر وإفرادها بالتأليف حتى يكون كتابه الحجة التي يرجع إليها المعاصرون له، ومن يأتي بعدهم من الباحثين في تاريخ مصر. وبالطبع لم تكن مهمته يسيرة بسبب كثرة ما روي في تاريخ مصر، سواء عن طريق الرواة أو القصّاص أو المخطوطات التي دأب الباحثون على تدوينها طوال النصف الأخير من القرن الثاني ومطالع القرن الثالث الهجري. لكن عبد الرحمن عزم على المضي في تدوين التاريخ متسلحاً بالصبر والجلادة على العمل لدراسة تاريخ مصر قبل الإسلام، والفتح الإسلامي لها، ثم حالها مع جيرانها في ظل الحكم الإسلامي، وقد انتهى في سرد بعض الحقائق التاريخية إلى سنة ٢٤٦ هـ أي قبل وفاته بعشر سنين.

انفرد ابن عبد الحكم من بين مؤرخي القرن الثالث الهجري بتجنيب المطلع الغوص في بحر الصفحات العديدة، فجمع الروايات المتعلقة بتاريخ مصر في كتاب أسماه «فتوح مصر» وكان هدفه بيان الدور الذي لعبه المسلمون في نشر

دينهم في تلا والبلاد وما جاورها، مع ذكر سنة الرواية المتعلقة بالأحداث كافة التي حدثت في تلك السنة. وقد ابتكر أيضاً طريقة جديدة في معالجة المادة التاريخية، وهو الأمر الذي كان له عظيم أثر في تدوين التاريخ الإسلامي في مصر وغير مصر من البلاد بعد نشره فتوحاته.

قسّم ابن عبد الحكم موضوع كتابه في تاريخ مصر إلى سبعة أقسام:

- القسم الأول: في ذكر فضائل مصر وتاريخها القديم على ضوء القصص التي رواها القدماء والمعاصرون من الشخصيات العربية.

- القسم الثاني: ذكر فتح العرب لمصر.

- القسم الثالث: ذكر الخطط التي شيّدها العرب في مصر.

- القسم الرابع: ذكر الإدارة العربية في مصر على عهد عمرو بن العاص وابن أبي السرح.

- القسم الخامس: ذكر كيف أن مصر صارت على عهدهما قاعدة لنشر الإسلام والحضارة العربية في شمالي إفريقية والأندلس والنوبة.

- القسم السادس: ذكر قضاة مصر منذ الفتح الإسلامي إلى سنة ٢٤٦ هـ.

- القسم السابع: ذكر الأحاديث التي حفظها الصحابة الذين جاءوا إلى مصر.

وقد غلبت على ابن عبد الحكم روح التاريخ وهو يروي أحاديث الصحابة، فأسهب في ذكر الوقائع التي أحاطت بتلك الأحاديث أو المناسبات التي تعلقت بها، كما أشار إلى الأحاديث التي انفرد بها الصحابة في مصر وعدد كل منها، واستطاع بذلك أن يدوّن تاريخ مدرسة الصحابة في مصر وأن يحفظ لرجالها الأجلاء ما أسهموا به من نصيب في خدمة الحضارة الإسلامية والدين القويم.

ابن قتيبة

٢١٣ - ٢٧٦ هـ

عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المروزي، أبو محمد. وقتيبة بضم القاف وفتح التاء المثناة من فوقها، وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها باء موحدة ثم هاء ساكنة، وهي تصغير قتبة بكسر القاف وهي واحدة الأقتاب والأقتاب الأمعاء وبها سمي الرجل والنسبة إليه قتبي. والدينوري بكسر الدال المهملة نسبة إلى دينور وهي بلدة من بلاد الجبل عند قرميسين خرج منها خلق كثير. قيل إن أباه مروزي وأما هو فمولده ببغداد وقيل بالكوفة سنة ثلاث عشرة ومائتين، وأقام بالدينور مدة قاضياً فنسب إليها. كان فاضلاً ثقة سكن بغداد وحدث بها عن إسحاق بن راهويه وأبي إسحاق إبراهيم بن سفيان بن سليمان بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن زياد ابن أبيه الزيادي وأبي حاتم السجستاني. وروى عنه ابنه أحمد وابن درستويه الفارسي. وكان ولده أحمد بن عبدالله، أبو جعفر، المذكور فقيهاً.

كانت وفاته فجأة، يروى أنه صاح صيحة سمعت من بُعد ثم أغمي عليه ومات. وقيل أكل هريسة فأصابته حرارة، ثم صاح صيحة شديدة ثم أغمي عليه إلى وقت الظهر ثم اضطرب ساعة ثم هدأ، فما زال يتشهد إلى وقت السحر، ثم مات رحمه الله تعالى في ذي القعدة، سنة سبعين وقيل إحدى وسبعين، وقيل أول ليلة في رجب، وقيل منتصف رجب سنة ست وسبعين ومائتين.

قال الخطيب: كان ثقة ديناً فاضلاً، مات في رجب سنة ست وسبعين ومائتين من هريسة بلعها سخنة فأهلكته.

كان ابن قتيبة معاصراً لإبراهيم الحربي ومحمد بن نصر المروزي، وكان

أهل المغرب يعظمونه ويقولون: من استجاز الوقيعة في ابن قتيبة يتهم بالزندقة. ويقولون: كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه لا خير فيه.

من تصانيفه في التاريخ:

- كتاب المعارف.
- عيون الأخبار.
- طبقات الشعراء.

وله أيضاً:

- كتاب الخيل.
- كتاب الأنواء.
- كتاب المسائل والجوابات.
- كتاب الميسر والقداح.
- كتاب الأشربة.
- كتاب إصلاح الغلط.
- كتاب مشكل الحديث.
- كتاب مشكل القرآن.
- كتاب غريب القرآن الكريم.
- كتاب غريب الحديث.
- كتاب التفقيه.
- كتاب إعراب القرآن.

البلاذري

ت ٢٧٩ هـ

أحمد بن يحيى بن جابر بن داود، كان جدّه جابر يكتب للخصيب[١] صاحب خراج مصر أيام الرشيد، ولم يكن لجده من ذكر في كتب التراجم، وكل ما ذكر أن أصله من الفرس، لأن المترجمين له لم يذكروا من نسبه شيئاً بعد اسم جده، فلو أن أحمد كان عربي النسب لأثبت هذا النسب وذكره وافتخر بانتمائه، ولكن المعروف أنه كان ينقل من اللسان الفارسي إلى اللسان العربي. وفي جميع الكتب التي ترجمت له ورد اسمه أحمد، ولكنها اختلفت في كنيته فجلعته أبا جعفر وأبا بكر وأبا الحسن. ثم إن هذه المراجع لم تأت على ذكر أولاد خلفهم أحمد فكني بأسمائهم، فإن ترجمة حياته كانت مضطربة وقد رجح بعض الذين ترجموا لحياته[٢] أنه ولد في أواخر القرن الثاني للهجرة، فإن أول ما عُرف عن حياته مدحه المأمون[٣] ومن المؤكد أن ذلك كان قبل وفاة الخليفة المأمون سنة ٢١٨ هـ، وعلى ذلك فإن أحمد يكون قد تجاوز العشرين من سنه باعتبار أنه ما كان يتمكن من المدح إلاّ وقد كان له علم ونباهة.

إذاً كانت نشأة أحمد بن يحيى في القرن الثالث للهجرة، وهو قرن من أخصب عصور الخلافة العباسية، فقد كان عصر الترجمة عن الفارسية واليونانية والتي كان لها عظيم الأثر في التراث الإسلامي، وعصر العلم والكتابة والذي تجلى في ما كتبه المدائني والواقدي وابن سعد والقاسم ابن سلام وابن الكلبي،

(١) فهرست ابن النديم ص ١١٣.

(٢) د. المنجد، أعلام التاريخ والجغرافيا ص ١٨.

(٣) معجم البلدان لياقوت، م ٥ ص ٩٩.

ولعل كل هذا كان له الأثر الطيب في تثقيف وتكوين حياة أحمد بن يحيى.

بعد وفاة الخليفة المأمون لا نجد لأحمد ذكراً في أثناء خلافة المعتصم ثم الواثق بعده، ولا نسمع به إلاّ في آخر أيام المتوكل، فإننا نعرف أنه كان ينادم المتوكل ويجالسه، وليس أدل على مكانته عنده من تصدّره مجلس قصر الهناء ـ بركوارا ـ وكان من أفخم قصور المتوكل، وكان ذلك في يوم الإعذار العظيم الذي أقامه الخليفة لابنه المعتزّ، وقد كان أحمد يجلس مع البحتري وعلي بن الجهم والحسين بن الضحاك وعلي بن ربن الكاتب وابن السكيت. وقد ذكر أحمد نفسه طرفاً من مجالسه مع المتوكل وما كان يرويه عنه في كتابه فتوح البلدان.

وخلف المتوكل ابنه المنتصر، ولكنه قتل سنة ٢٤٨ هـ، فخلفه المستعين، فيسارع أحمد بن يحيى للاتصال به فيجد عنده المكانة والرفعة ويغدق عليه فيترف ويدخر أموالاً. وتنقضي خلافة المستعين بعد أربع سنوات بعد أن أمر المعتزّ بقتله سنة ٢٥٢ هـ، وكان من المتوقع أن يهمل أحمد بن يحيى لمكانته من المستعين، ولكن المعتزّ قرّبه إليه وعهد إلى أحمد بتأديب ابنه عبدالله وكان في الخامسة من عمره، ولعلّ ذلك يعود إلى صلة أحمد بالمتوكل وحضوره يوم إعذار المعتز كما سلف.

ثم خلف عبدالله أباه المعتز، ولا يعرف إذا كان أحمد بن يحيى قد تابع تأديب ابن المعتز في خلافة المهتدي وبعده المعتمد، فإن المصادر لا تذكر ذلك، كما أن ابن المعتز لم يأت على ذكر أستاذه أحمد في كتابه طبقات الشعراء مع أنه ترجم للكثيرين ممّن كانوا أقل شأناً منه.

بعد وفاة المعتز بدأ نجم أحمد بن يحيى بالأفول، وزالت عنه النعمة التي عرفها مع المعتز، وكان عهد المعتمد أشد العهود سوءًا أو ضيقاً وحاجة، فقد عانى فيه أحمد العسر والفاقة ممّا دفعه إلى اللجوء إلى وزير المعتمد آنذاك عبيدالله بن يحيى يسأله العطاء، ثم لجأ إلى إسماعيل بن بلبل أبي الصقر وكان تولى الوزارة للمعتمد سنة ٢٦٥ هـ، ولكن إسماعيل لم يمنحه ما أمل به، فهجاه أحمد وهجا لؤمه. وهكذا تردد أحمد من باب إلى باب يستعطي الوزراء، فمرة يعطى وأخرى يحجب، وفي كل حجب لا يجد إلاّ الهجاء وسيلة تنفيس عمّا يلمّ به من فاقة وعسر

وذل وهوان. وقد أورد ياقوت الحموي بعض هجائه في وزراء عصره، ولربّما كانت هذه الأهاجي السبب الذي جعل المترجمين له يـذكرون أن أحمد كان هجّاءً آخذاً في أعراض الناس[1].

توفي أحمد بن يحيى في آخر خلافة المعتمد سنة ٢٧٩ هـ، وكان قد تجاوز الثمـانين من السنين. وقد ذكر بعض المؤرخين[2] أنه شرب حبّ البلاذر في أواخر أيامه، فأصابته وسوسة وحمل إلى المارستان وتوفي فيه ـ ومن هنا ـ على الأرجح ـ سمي بعد وفاته بالبلاذري. ولكنّ بعض المترجمين[3] يذكر أن أحمد بن يحيى كان يشرب حب البلاذر للحفظ، فهل يعقل أن يلجأ من بلغ الثمانين إلى حب البلاذر للحفظ، وما حـاجته إلى الحفظ، وإنّمـا يحفظ من يقرأ ويقـوم بالتعليم لحاجته إلى ذلـك. ثم إن ابن النديم يذكر أن أحمد «شـدّ» ـ بهذه العبارة ـ في المارستان، ومعنى ذلك أنه كان يخشى منه في أثناء وسوسته، وكان قـد ناهـز الثمانين، فمن أين له هذه القوة ليخاف منه ويمسك ويشد؟.

حياته العلمية:

نشأ البلاذري في بغداد، وفيها أخذ من علمائها في النصف الأول من القرن الثالث الهجري، وكان يجلس في حلقاتهم فيستمع إلى الحديث والأدب والتاريخ والسير، وكان من أساتذته الحسين بن علي الأسود (ـ ٢٥٤ هـ) والقاسم بن سلام (ـ ٢٢٤ هـ) وعلي بن محمد المدائني (ـ ٢٢٥ هـ)، ومحمـد بن سعد الـواقدي (ـ ٢٣٠ هـ). وقد ذكر ابن النديم أن أحمد كان متقناً للفارسية ولعلّه تعلّمها، أو ربما كانت لغة أجداده، باعتبار أن أصله فارسي، وقد أحاط أيضاً بطرف من ثقافة الروم، ولذلك نسمعه يجادل في تاريخهم أمام المتوكل في بعض مجالسه. بعد أن شذا طرفاً قيّماً من علوم أساتذته في بغداد، حمل عصا الترحال وانتقل إلى الشام، وهناك لزم حلقة هشام بن عمار (ـ ٢٤٦ هـ) وأبي حفص الدمشقي (ـ ٢٢٥ هـ)،

(١) د. المنجد، أعلام، ص ١٨.

(٢) فهرست ابن النديم ص ١١٣.

(٣) الذهبي، سير النبلاء، مجلد ٩، ورقة ٧١.

ثم تنقل في بلاد الشام فزار حمص وسمع فيها محمد بن مصفى (٢٤٦ هـ)، ثم حلب، ومنبج، وأنطاكية، وثغور الروم، والجزيرة، والرقة، وتكريت.

ولا تذكر المصادر تاريخ رحلته هذه إلى الشام، وهو نفسه لم يأت على ذكر تاريخ طوافه في هذه البلاد، ولكن من المرجح أن يكون أحمد قد قام بهذه الرحلة بعد وفاة الخليفة المتوكل سنة ٢١٨ هـ، فقد كان يحضر مجالسه قبل ذلك، ولعله قام بها في خلافة المعتصم، حيث لم يرد له ذكر في خلال هذه الفترة، كما أن أستاذ أحمد بن يحيى أبا حفص الدمشقي الذي أخذ عنه توفي سنة ٢٢٥ هـ، والمؤكد أنه سمع منه قبل تاريخ وفاته هذا.

إذاً من بغداد بعد سماعه من أساتذة أفذاذ ثم رحيله وسماعه من علماء دمشق، وطوافه في رحلة طويلة، اكتسب البلاذري ثقافة حديثة كان لها الأثر الكبير في كتابه فتوح البلدان. فقد كان في خلال تطوافه على أهل دمشق وحمص وحلب ومنبج وثغور الروم والجزيرة والرقة وغيرها، يسمع أخبار الفتوح ويثبتها إلى جانب الروايات العراقية في بغداد، وروايات أهل الشام في دمشق، فكانت الرحلة هذه ذخيرة أثمرت تاريخاً مجيداً في كتابه.

وقد كان لأساتذة أحمد بن يحيى في بغداد ودمشق كبير الأثر في هذا الإنتاج الذي أُثر عنه في كتبه، فقد استفاد بطريق ابن سعد جميع روايات الواقدي في الفتوح، واستفاد بطريق المدائني رواياته في كتبه العديدة في البلدان والفتوح، وعن ابن الكلبي أخذ بطريق حفيده ما رواه الجد في الأنساب، ثم أخذ عن القاسم بن سلام أمور العشر والخراج، كل هذه الروايات والأسماع جعلت منه مؤرخاً جيداً للبلدان، نسّابة عارفاً، وكان إلى ذلك راوية للشعر، وهذا ما ظهر في كتبه التي تركها(١).

هذه الثقافة المتنوعة، إضافة إلى معرفته باللغة الفارسية ونقله آثار الفرس إلى اللغة العربية، أهّلته أن يكون عالماً مؤلفاً، نديماً للخلفاء، وأن يكون أستاذاً فذّاً أخذ عنه الكثيرون. ويكفي أن نذكر من هؤلاء التلاميذ «وكيع القاضي» وجعفر بن قدامة صاحب الخراج.

---

(١) د. المنجد، أعلام، ص ٢٧.

كتبه.

أشهر كتبه كتاب أنساب الأشراف، وقد نقل ياقوت الحموي والصفدي أن اسم الكتاب «جمل أنساب الأشراف» لكن المطبوع من فهرست ابن النديم لا يذكر هذا الكتاب لنا، بل يذكر كتاباً آخر باسم «كتاب الأخبار والأنساب» لم يذكره أحد ممن نقل عن ابن النديم. أما حاجي خليفة في كشف الظنون فيذكر كتابين متقاربي الاسم، الأول «أنساب الأشراف» وقد ذكر أنه في عشرين مجلداً، لم يكمله، والثاني «الاستقصاء في الأنساب والأخبار» في أربعين مجلداً، ولم يكمله أيضاً. ولم يذكر أحد من المتقدمين كتاب الاستقصاء هذا. وينكر السخاوي في الإعلان بالتوبيخ[1] أن له كتاب التاريخ وكتاب أنساب الأشراف، ويقول الذهبي إنه صاحب التاريخ الكبير، ولعلّ كتاب الأنساب والأخبار هو كتاب أنساب الأشراف، بدّل الاسم، وأن الأنساب هو كتاب التاريخ ذاته.

استهلّ البلاذري كتابه أنساب الأشراف بسيرة النبي ﷺ وسيرة الصحابة الأجلاء ثم ذكر العباسيين بعد ذكر العلويين، وبني عبد شمس بعد بني هاشم، وذكر الأمويين في بني عبد شمس، ولكنه لم يُفرد لهم ذكراً ومكاناً خاصّاً، ثم ذكر بعد ذلك بقية قريش وبطون أخرى من مضر، وخصّ الجزء الأخير من الكتاب عن قيس، وخاصة منهم «ثقيف» وأفاض في سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي.

وللبلاذري كتاب البلدان الكبير وكتاب البلدان الصغير، وكتاب البلدان الكبير لم يتم فصولاً، وقد ذكر بعض المحققين أن كتاب فتوح البلدان الذي عُرف عنه هو كتاب البلدان الصغير، ولا يأتي حاجي خليفة على ذكر كتاب فتوح البلدان، ولكن ابن النديم ذكر أن له كتاب الفتوح بالإضافة إلى كتابيه الكبير والصغير في البلدان.

أما كتاب فتوح البلدان للبلاذري، والذي وجد أحمد مادته خصبة من الفتوح التي وجدها قبل أن يؤلفه، من مثل فتوح إسحاق بن بشر (ـ ٢٠٦ هـ) والواقدي (ـ ٢٠٧ هـ) ومعمر بن المثنى (ـ ٢١٠ هـ) والمدائني (ـ٢٢٥ هـ)، فقد بدأ فيه مؤلفه

(١) ص ١٥٤.

بالجزيرة العربية، ثم بلاد الشام، وقبرص، والجزيرة، وثغور الروم، وأرمينية، ثم تناول مصر والمغرب وإفريقية، والأندلس، ثم جزائر البحر، وعاد بعد ذلك إلى السواد والعراق، ثم أتى على ذكر فتوح فارس والجبال وسجستان وكرمان وكابل وخراسان والسند.

وتظهر لنا شخصية البلاذري المؤرخ من خلال ملاحظاته النقدية التي كان ينثرها في أثناء كتابته، فهو لا يروي الأخبار وينقلها كما وردت في مظّانها، ولكنه بعد كتابتها يتناولها بالنقد الصريح، فيختار بعضها على بعض، ويثبت ما يراه جديراً بالإثبات بعد ترجيحه للخبر واستطلاع جوانبه، فيذكر في آخر الخبر: والثبت كذا.

ويبقى فتوح البلدان للبلاذري مصدراً من أهم المصادر التاريخية دقة، وأكثرها صحة وتنقيباً عن الفتوح العربية، باعتبار أن الواقدي لم يثبت وقائع الفتوح كما فعل البلاذري، ولم تصل إلينا كتب المدائني عن الفتوح هذه، ويكون فتوح البلدان كما ذكر عنه: خاتمة تاريخ الفتح العربي، وكما قال عنه المسعودي المؤرخ صاحب مروج الذهب: «لا نعلم في فتوح البلدان أحسن منه» والجدير بالذكر أن ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان نقل منه وجعله مصدراً من مصادره التي اعتمد عليها.

أمّا الرواة الذين نقل عنهم البلاذري أخباره في الفتوح فإنّ من أبرزهم الحسين بن الأسود الكوفي، والقاسم بن سلام، ومحمد بن سعد كاتب الواقدي، وعلي بن محمد المدائني، وعمرو بن محمد الناقد، والعباس بن هشام الكلبي.

ولم تذكر المصادر تاريخ تأليف البلاذري لفتوح البلدان، وإنّما ورد ذكر بعض الأحداث الدالّة على تاريخ وضعه، فالبلاذري يذكر الخليفة المعتزّ بالله، ولا يذكر أحداً بعده ممن تولى الخلافة، وهذا ما يرجّح تاريخ تمام وضعه بعد سنة ٢٥٥ هـ، وهي سنة مقتل المعتزّ بأمر من صالح بن وصيف التركي.

ابن خُرْداذْبه

نحو ٢٠٥ - نحو ٢٨٠ هـ

عبيد الله بن أحمد بن خرداذبه، أبو القاسم: مؤرخ جغرافي، فارسي الأصل، من أهل بغداد. ولد نحو سنة ٢٠٥ هـ. كان جده خرداذبه مجوسياً أسلم على يد البرامكة. وقد اضطرب النقلة في تحقيق وضبط اسم جده خرداذبه، ففي لسان الميزان ٤ : ٩٦ «آخره باء موحدة مضمومة ثم حاء ليست للتأنيث» والمستشرقون يكتبونها khordâdhbeh بكسر الباء. وفي القاموس وشرح مادة «روم» ابن خرداذيه بالياء الساكنة وقبلها ذال مكسورة. وفي خطط المقريزي ١ : ١٨٤ بدالين وياء «خرداديه». كما ذكر بعض المحدثين[١] أن أحد المحققين يجزم بأنها خرداذبه بكسر الذال وتشديد الباء، ومعناها بالفارسية: المنحة الفاخرة من الشمس. ثم ذكر كوركيس عواد[٢] في تحقيق انتهى فيه إلى أنه بسكون الذال وفتح الباء وسكون الهاء.

اتصل عبيدالله بن أحمد بالمعتمد العباسي، فولاه البريد والخبر بنواحي الجبل، وجعله من ندمائه. وكانت وفاته نحو سنة ٢٨٠ هـ[٣].

من مصنّفاته:

- المسالك والمالك.
- كتاب جمهرة أنساب الفرس.
- كتاب اللهو والملاهي.
- كتاب الشراب.
- كتاب الندماء والجلساء.
- كتاب أدب السماع.
- كتاب الطبيخ.
- كتاب الأنواء.

(١) محمد مسعود، جريدة الأهرام ٢٨/٦/١٩٣٥.
(٢) مجلة الرسالة ١٠ - ٣٢٥.
(٣) ذكر حاجي خليفة في كشف الظنون ت ١٦٦٥ أن وفاته سنة ٣٠٠ هـ.

ابن جرير الطبري

٢٢٤ - ٣١٠ هـ

أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبريّ. ولد بآمل طبرستان، وقد وقع الشك في تاريخ ولادته، قيل: ولد سنة أربع وعشرين ومائتين، وقيل: أول سنة خمس وعشرين. وكان أبو بكر بن كامل تلميذه ومؤرخ حياته سأله: كيف وقع الشك في ذلك؟ فقال: لأن أهل بلدنا يؤرخون بالأحداث دون السنين، فأرّخ مولدي بحدث كان، واختلف المخبرون، فقال بعضهم: سنة أربع، وقال آخرون: سنة خمس وعشرين ومائتين(١).

فقِه العلم صبياً وهو دون الإدراك، ورحل في سبيله يافعاً لم يبلغ مبلغ الرجال. تحدث عن نفسه قال: «حفظت القرآن ولي سبع سنين، وصليت بالناس وأنا ابن ثماني سنين، وكتبت الحديث وأنا ابن تسع». قال: «ورأى لي أبي في النوم أني بين يدي رسول الله ﷺ، وكانت معي مخلاة مملوءة حجارة وأنا أرمي بين يديه، فقال المعبّر: إنه إن كبر نصح في دينه وذبّ عن شريعته، فحرص أبي على معونتي في طلب العلم وأنا حينئذٍ صبي صغير»(٢).

وصحّت الرؤيا وصدق تعبير المعبّر، وملأ ابن جرير الدنيا علماً وفقهاً، وناضل عن الشريعة وحارب الابتداع، وكان أبوه ورعاً تقياً متصوّناً، إلى يسار يعيش فيه وضيعة واسعة يملكها بطبرستان، وما إن أحسّ من أبي جعفر ابنه يقظة في فؤاده ورجاحة في عقله ونزوعاً إلى العلم ورغبة في لقاء العلماء، حتى دفعه إلى الرحلة

(١) معجم الأدباء، ياقوت ١٨ : ٤٨ .

(٢) معجم الأداباء، ياقوت ١٨ : ٤٩ .

في سبيل العلم حيث كان، فرحل عن مسقط رأسه آمل ولم تبلغ سنهُ الثانية عشرة، وكفاه مؤونة العيش ومعاناة الرزق، فكان يرسل إليه نفقته حيث حلّ، فصانه بذلك عن عطايا الخلفاء واستمناح الملوك والوزراء وزهّده في مناصب الدولة وأعانه على الانقطاع إلى المدارس والرواية والتصنيف، بل إنه كان يُجبى إليه نصيبه ممّا خلّفه أبوه بعد وفاته، وظلّ ذلك الرزق موصولاً بحياته إلى أن مات.

كان أول ما رحل إلى الريّ وما جاورها من البلاد، فأخذ عن شيوخها وأكثر، ودرس فقه العراق على أبي مقاتل، وكتب عن أحمد بن حمّاد الدولابي كتاب «المبتدأ» وأخذ مغازي ابن إسحاق عن سلمة بن الفضل وعليه بنى تاريخه فيما بعد، ثم اختص بابن حُميد الرازي، وكانت أنباء الإمام أحمد بن حنبل قد طبقت الآفاق، فعزم أبو جعفر على الرحلة إليه في بغداد ليأخذ عنه ويروي، ولم يكد يصل إليها حتى علم بوفاته قبل دخوله بقليل، فعدل عن الإقامة بها، وأخذ طريقه صوب البصرة، فسمع عمّن بقي من شيوخها كمحمد بن موسى الحرشيّ، وعماد بن موسى القزاز، ومحمد بن عبد الأعلى الصنعاني، وبشر بن معاذ، ومحمد بن بشار المعروف ببندار.

ومن البصرة يمّم وجهه نحو الكوفة، فكتب فيها عن هنّاد بن السريّ، وإسماعيل بن موسى الحديث، وأخذ عن سليمان بن خلّاد الطلحي القراءات، ولقي فيها أبا كريب محمد بن العلاء الهمداني، ويقال إنه سمع من أبي كريب أكثر من مائة ألف حديث. ثم عاد إلى بغداد بعد ذلك، وفي هذه المرة أخذ في مدارسة علوم القرآن، فانقطع إلى أحمد بن يوسف التغلبي المقرىء، ثم جنح إلى دراسة فقه الشافعي، وكان ببغداد يومئذٍ الحسن بن محمد الصباح وأبو سعيد الإصطخري من أئمة الشافعية، ولم يلبث أن اتخذه مذهباً وأفتى به سنين عدة، وكان بمصر في زمنه بقية من أصحاب الشافعي كإسماعيل بن إبراهيم المازني والربيع بن سليمان ومحمد بن عبدالله بن الحكم وأخوه عبد الرحمن، فعزم على لقائهم والرحلة إليهم، وفي طريقه إلى مصر عرّج على أجناد الشام وسواحلها وثغورها، وأطال أيامه في بيروت حيث لقي العباس بن الوليد البيروتي المقرىء، قضى منها سبع ليال بالمسجد الجامع، إلى أن أتم ختم القرآن برواية الشاميين تلاوة عليه، وتابع

مسيره إلى الفسطاط فبلغها سنة ثلاث وخمسين ومائتين. وكان أول من لقيه بها أبو الحسن السرّاج المصريّ، وكان أديباً يتلقّى ويتعرض كل من دخل الفسطاط، فلما التقى بأبي جعفر ساءله عن فنون من الفقه والحديث واللغة والنحو والشعر، فوجده عالماً في كل ما سأل، آخذاً من كل علم بنصيب وافر.

وفي الفسطاط أيضاً جاءه رجل يسأله في العروض، قال الطبري: «ولم أكن نشطت له من قبل، فقلت له: عليّ قول ألاّ أتكلم اليوم في شيء من العروض، فإذا كان في غد فصِرْ إليّ، وطلبت من صديق لي كتاب العروض للخليل بن أحمد، فنظرت إليه في ليلتي، فأمسيت غير عروضي، وأصبحت عروضياً[1].

وطال مكثه في مصر سنوات، ذهب في أثنائها إلى الشام، ثم عاد فأخذ من فقه الشافعي عن الربيع والمزني وأبناء عبد الحكم، ومن فقه مالك عن تلاميذ ابن وهب، وفي مصر أيضاً لقي يونس بن عبد الأعلى الصدفيّ فأخذ عنه قراءة حمزة وورش، ثم عاد إلى بغداد، بعد أن عاوده الشوق والحنين إلى موطنه، واستقرّ بها، وقرأ الكثير وكتب وشاهد وصحب أعلام عصره وأخذ عنهم. وفي بغداد انقطع الطبري للدرس والتأليف وامتنع عن كل ما يصرفه عنهما.

رُوي عنه أن بعض أصدقائه قال له: أتنشطُ لتأديب بعض ولد الوزير عبيدالله بن يحيى بن خاقان؟ قال له: نعم. فمضى الرجل وأحكم له أمره، وعاد إليه فأوصله إلى الوزير بعد أن أعاره ما يلبسه، فلما رآه عبيدالله قربه ورفع مجلسه، وأجرى عليه عشرة دنانير كل شهر، واشترط عليه أنّ ذلك لا يعوقه عن أوقات طلب العلم ومدارسته وأداء الصلاة في مواعيدها والطعام في وقته، ثم طلب إسلافه رزق شهر ليصلح حاله، ففعل به ذلك، وأدخله حجرة التأديب، وخرج إليه الصبي، فلما جلس بين يديه كتب، فأخذ الخادم اللوح ودخل به مستبشراً، فلم تبق جارية إلا أهدت إليه صينية فيها دراهم ودنانير، فردّ الجميع، وقال: قد شورطت على شيء، وما هذا لي بحق، وما آخذ غير ما شورطت عليه. فعرّف الجواري الوزير بذلك، فدخل إليه وقال: يا أبا جعفر، سررتَ أمهات الأولاد في ولدهنّ فبررنك،

---

(١) معجم البلدان ياقوت ١٨: ٥٦.

فغممتهنّ بردّك ذلك. فقال له: لا أريد غير ما وافقتني عليه»[1].

ثم ابتنى لنفسه داراً برحبة يعقوب في بغداد، وزّع فيها نفسه بين العبادة والقراءة والإملاء والتصنيف، وعاش بها رضيّ النفس، مرموق المحل، مهيباً من الخلفاء والولاة، إلى أن مات يوم السبت ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمائة، ودفن يوم الأحد بالغداة في داره. قال الخطيب[2] «واجتمع على جنازته من لا يحصي عددهم إلا الله، وصلّي على قبره عدّة شهور ليلاً ونهاراً، ورثاه خلق كثير من أهل الدين والأدب».

مصنّفات الطبري

برّز ابن جرير الطبري في نواحي كل فن، وضرب فيها جميعها بسهم، حتى أصبح إمام عصره غير مدافع، قال عبد العزيز الطبري في شأنه[3]: «كان كالقارىء الذي لا يعرف إلّا القرآن، وكالمحدّث الذي لا يعرف إلّا الحديث، وكالفقيه الذي لا يعرف إلّا الفقه، وكالنحوي الذي لا يعرف إلّا النحو، وكالحاسب الذي لا يعرف إلّا الحساب، وكان عالماً بالعبادات، جامعاً للعلوم، وإذا جمعت بين كتبه وكتب غيره وجدت لكتبه فضلاً على غيرها».

ـ أمّا الفقه فقد وِضع فيه كتاب «لطيف القول» جعله في ثلاثة وثمانين باباً، وكتاب «البسيط» تحدث فيه عن علماء الأمصار ومراتبهم، وكتاب «اختلاف الفقهاء» عرض فيه لأقوال العلماء.

ـ وأمّا التفسير فقد صنف فيه كتابه الكبير «جامع القرآن في تفسير القرآن» جعله ثلاثين جزءاً بعدد أجزاء القرآن.

ـ وأمّا الحديث فقد صنف فيه كتاب «تهذيب الآثار».

ـ وأمّا القراءة فقد وضع فيها كتابه الموسوم بـ«الفصل بين القراءات» ذكر فيه

---

(١) تاريخ ابن عساكر ١٨: ٣٥٦.

(٢) تاريخ بغداد ٢: ٦١.

(٣) معجم الأدباء، ياقوت ١٨: ٦١.

اختلاف القراء في حروف القرآن، وفصّل أسماء القراء في حروف القرآن، ثم بيّن سبب اختياره قراءة له من بينها جميعها.

وأما مصنفاته التي أثرت عنه ممّا ذكره المترجمون لحياته فهي:

- آداب المناسك.
- آداب النفوس.
- اختلاف علماء الأمصار في أحكام شرائع الإسلام.
- أحاديث غدير خمّ.
- البصير في معالم الدين. نحو ٣٠ ورقة، وذكر أن اسمه «التبصير».
- تهذيب الآثار وتفصيل الثابت من الأخبار.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن.
- الجامع في القراءات.
- حديث الطير.
- الخفيف في الفقه.
- ذيل المذيّل، تاريخ من قتل أو مات من أصحاب الرسول ﷺ في حياته أو بعده.
- الرد على الحرقوصية.
- الرد على ذي الأسفار.
- الرد على ابن عبد الحكم على مالك.
- صريح السنّة، رسالة في ذكر مذهبه وما يدين به.
- طرق الحديث.
- عبارة الرؤيا، جمع فيه أحاديث ومات لم يتمّه.
- كتاب العدد والتنزيل.
- كتاب الفضائل.
- لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام، وطلب إليه أبو أحمد العباس بن الحسن العزيزي أن يختصر له كتاب الأحكام هذا فاختصره له في كتاب أسماه «الخفيف».

ـ كتاب الوقف، ألفه للخليفة المكتفي، ذكر فيه ما اجتمعت عليه أقوال العلماء وسلم من الخلاف في هذا الموضوع.

أما كتابه المسمّى «تاريخ الرسل والملوك» أو «تاريخ الأمم والملوك» فهو يعدّ أوفى عمل تاريخي بين مصنفات العرب، أقامه على منهج مرسوم، وساقه في طريق استقرائي شامل، بلغت فيه الرواية مبلغها من الثقة والأمانة والإتقان، أكمل فيه ما قام به المؤرخون قبله كاليعقوبي والبلاذري والواقدي وابن سعد، وكان سبيلاً لمن أتى كالمسعودي وابن مسكويه وابن الأثير وابن خلدون.

وتاريخ تصنيف تاريخ الطبري غير معروف على وجه التحديد، والواضح أنه ألّفه بعد كتاب التفسير، فقد روى الخطيب[١] أن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه: «أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ قال: ثلاثون ألف ورقة، فقالوا: إن هذا ما يفني الأعمار قبل تمامه، فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة، ثم قال: أتنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟ قالوا: كم قدره؟ قال: نحواً مما ذكرت في التفسير، فأجابوه بمثل ذلك، فقال: إنا لله: ماتت الهمم، فاختصره في نحو ما اختصر التفسير».

أما الانتهاء من هذا التاريخ فقد ذكر ياقوت أنه فرغ من تصنيفه وعرضه على المستملين له: «في يوم الأربعاء لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثلثمائة، وقطعه على آخر سنة اثنتين وثلاثمائة»[٢].

بدأ تاريخه بذكر الدلالة على حدوث الزمان، وأن أول ما خلق بعد ذلك القلم وما بعد ذلك شيئاً فشيئاً، على ما وردت بذلك الآثار، ثم ذكر آدم وما كان بعده من أخبار الأنبياء والرسل على ترتيب ذكرهم في التوراة معرجاً على ذكر الملوك الذين عاصروهم، وملوك الفرس خصوصاً، مع ذكر الأمم التي جاءت بعد الأنبياء حتى مبعث الرسول ﷺ. ثم رتب الحوادث في القسم الإسلامي منه من عام هجرة الرسول ﷺ حتى سنة اثنتين وثلاثمائة، مع ذكر ما جرى من أحداث في كل سنة وأيامها المشهورة.

---

(١) تاريخ بغداد ٢ : ١٦٣.

(٢) معجم الأدباء: ١٨ : ٤٤.

ابن فضلان

بعد ٣١٠ هـ

أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد مولى محمد بن سليمان رسول المقتدر بالله، ومحمد بن سليمان هو القائد الذي شتّت شمل الطولونيين وأعاد مصر إلى حظيرة الخلافة في سنة ٢٩٢ هـ. لم تأت المصادر على ذكر نشأة ابن فضلان أو حياته أو مؤلفاته، عدا الرسالة في وصف رحلته إلى بلاد البلغار والخزر. ففي عهد الخليفة العباسي المقتدر بالله الذي تولى الخلافة بين سنة ٢٩٥ و٣٢٠ هـ، ورد كتاب إليه من ملك البلغار: «يسأله فيه البعثة إليه ممن يفقهه في الدين، ويعرفه شرائع الإسلام، ويبني له مسجداً، وينصب له منبراً ليقيم عليه الدعوة له في بلده وجميع مملكته، ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له، فأجيب إلى ما سأل من ذلك».

هذا ما ورد في رسالة ابن فضلان عن سبب رحلته إلى بلاد البلغار أو «الصقالبة» كما يسميهم ضمن الوفد الذي بعث به الخليفة، وكانت مهمة ابن فضلان هي أن يقوم بقراءة كتاب الخليفة المقتدر بالله على خان البلغار، وتسليم ما أهدى إليه، والإشراف على الفقهاء والمعلمين. وقد قام ابن فضلان بالمهمة الموكلة إليه خير قيام، وسجّل مشاهداته وانطباعاته الفريدة عن هذه الرحلة التي استغرقت أحد عشر شهراً في الذهاب، فقد غادر ابن فضلان مع الوفد في ١١ صفر سنة ٣٠٩ هـ، وظل يصعد شرقاً وشمالاً ماراً بإقليم الجبال فهمذان فالري عابراً نهر جيحون إلى أن بلغ بخارى، ثم أوغل في البراري والبوادي إلى أن وصل إلى الفولجا. وكان تاريخ وصول البعثة إلى البلغار يوم الأحد ١٢ محرم سنة ٣١٠ هـ.

أودع ابن فضلان في رسالته هذه وصفاً مفصّلاً لعادات القبائل والشعوب في هذه الأصقاع وأشار إلى أهم طقوسها ومعتقداتها وممارساتها ونظمها الاجتماعية والاقتصادية مما جعل ملاحظاته المدونة أساساً بنى عليه الدارسون فيما بعد.

لم يكن ابن فضلان جغرافياً ولا رحالة يجوب الأقطار، ولكنه يعدّ رائداً في هذا المجال، فإن مشاهداته المتخصّصة وفضوله الشديد إلى حب المعرفة والكشف، أنتجا في نهاية بعثته ملاحظات وكتابات قيمة عن حياة القبائل التركية والشعوب التي كانت تعيش على ضفتي الفولجا في القرن الرابع الهجري، وقد جعلته هذه المدونات والملاحظات التي أودعها في رسالته عن هذه الرحلة محطّ أنظار الباحثين والدارسين من علماء الجغرافيا في الكثير من الأقطار والدول. وكان ابن فضلان قد صادف في أثناء طريقه إلى الفولجا مستعمرة من التجار الاسكندنافيين الذين تركت عاداتهم وسلوكهم أثراً كبيراً في نفسه، فأورد هذا الأثر في طي رسالته الشهيرة.

كانت مشاهداته أقدم نص معروف يصف بالتفصيل الفرنك أو «الفارنجيين»، وهو الاسم الذي يطلقه المؤرخون على التجار الاسكندنافيين في روسيا القديمة، وهم الذين أسماهم ابن فضلان «الروسية» ومن هذه التسمية عرفت كلمة روسيا. فيعتبر ابن فضلان أول من زار الأصقاع الشمالية القريبة من روسيا في ذلك القرن. وهو في الوقت نفسه يقدم لنا صورة حية عن الظروف السياسية في العالم الإسلامي، والعلاقات بين بلاد الإسلام والبلاد المتاخمة لها في آسيا الوسطى والأصقاع النائية التي كانت تمثل أطراف العالم المتمدن آنذاك مثل حوض الفولجا. وتحتوي رسالته على وصف عدد من القبائل التركية البدوية القاطنة آسيا الصغرى والشعوب التي لعبت دوراً أساسياً في تاريخ أوروبا الشرقية كالبلغار والروس والخزر.

بقيت رسالة ابن فضلان مجهولة تماماً كما بقي صاحبها حقبة من الزمن كان الجغرافيون العرب يقتبسون عنها منذ القرن الرابع الهجري من دون ذكر اسم صاحب الرسالة في مصادرهم، من مثل ابن رسته والإصطخري والمسعودي. إلى أن كان القرن السابع الهجري حيث أشار ياقوت الحموي إلى فضل ابن فضلان،

واختار فصولاً من رسالته دوّنها في كتابه «معجم البلدان»، ثم عرفت الرسالة عن طريقه بعد ذلك. وهكذا بقيت هذه الرحلة معروفة لمدة طويلة عن ياقوت الذي حفظ منها قسماً كبيراً أدرجه في معجمه الجغرافي.

بدأت الرحلة ـ كما أسلفنا ـ بطلب ملك البلغار بعثة فأجيب إلى طلبه، وتقرر أن يتألف الوفد الرسمي من أربعة أشخاص هم: سوسن الرسي، تكين التركي، بارس الصقلاني، وابن فضلان، ومعهم دليل هو عبدالله بن باشتو الخزري رسول ملك البلغار ألمش بن يلطوار. وقد كانت رئاسة الوفد مناطة بسوسن الرسي، غير أن أحمد بن فضلان يحاول دائماً في رسالته أن ينسب إلى نفسه الدور الرئيسي، فنراه يأمر وينهى ويقرر الرحلة أو البقاء.

يصف ابن فضلان طريق الرحلة منذ مغادرة الوفد بغداد ويذكر البلاد التي مر بها الوفد والوقت الذي انقضى في كل بلدة، حتى يبلغ طرف مفازة «آمل»، ثم العبور على جيحون ومن هناك إلى آفريز ثم بيكند، فبخارى وتسير الرحلة حتى بلوغ خوارزم بعد ثمانية وعشرين يوماً، ثم من خوارزم إلى بلد الترك، حيث يرد وصف الغزية وحياتهم الاجتماعية ومعتقداتهم، ومراسم الزواج والمرض والموت، ثم يترك الوفد الغزية بعد منعه من المضي في طريقه ظناً من الغزية أنهم ذاهبون لتأليب الخزر عليهم، ويعبر الوفد الأنهار إلى الباشغرد، ثم يغادر الباشغرد إلى بلاد الصقالبة بعد سفر دام سبعين يوماً. ثم يلي ذلك وصف «الروسية» ثم الخزر.

والجدير بالذكر أن ابن فضلان لم يشر في رسالته التي وضعها إلى طريق عودة الوفد، وإن كان يفهم من السياق أنه عاد إلى بغداد ماراً ببلاد الخزر.

المسعودي

ت ٣٤٥ (٣٤٦)

أبو الحسين (قيل أبو الحسن) علي بن الحسين بن علي المعتزلي الشافعي، من ذرّية عبد الله بن مسعود، مؤرخ رحالة جوابة بحّاثة. ولد ببغداد وفيها نشأ وترعرع. مال منذ حداثته إلى الترحال والسفر فجاب فلسطين وبلاد فارس وطوّف في أرجاء أرمينية وضواحي بلاد القاف[1] والهند وبحر الصين ومدغشقر وزنجبار وعمان، ومرّ في أثناء طوافه بأنطاكية سنة ٣٣٢ هـ ودمشق بعد ذلك بسنتين. ثم صرف سنواته العشر الأخيرة متنقلاً بين سورية ومصر، وتوفي في الفسطاط سنة ٣٤٥ (وفي بعض المصادر ٣٤٦ هـ).

لم يصل إلينا من آثار وتواليف المسعودي إلّا النزر اليسير على كثرة مؤلفاته التاريخية والأدبية، ومع ذلك فإن في هذا النذر الكبير المثمر والذي يدل على سعة اطلاع وتنوع المعلومات، وهي معلومات جليلة جمعها من الكتب التي أمكنه الاطلاع عليها، ومن ثمّ أضاف إلى محصّلته وفرة المعلومات التي وعاها نتيجة الأسفار والرحلات التي قام بها إلى مختلف أصقاع آسيا وقسم من إفريقية الشرقية وبحارها وأنهارها. وسلف أن ذكرنا أنه قضى سنواته العشر الأخيرة متنقلاً بين سورية ومصر، إذ لم يكن له دار إقامة خاصة به، ولذلك قضى أيامه في تصنيف مؤلفاته التاريخية، ولا سيما كتابه «أخبار الزمان» الذي يقع في ثلاثين مجلداً والتي فقدت كلها باستثناء مجلد فريد والذي اختصره في كتاب آخر أسماه «الكتاب

---

(١) أصول الجبال كلها من جبل قاف، قيل إن وراءه عوالم وخلائق لا يعلمها إلا الله تعالى.

الأوسط» وهذان الكتابان كثر ما جاء على ذكرهما في صفحات كتابه مروج الذهب، وقد حذا المسعودي هذا الحذو في كلام له جاء فيه «محبة احتذاء الشاكلة التي قصدها العلماء وقفاها الحكماء، وأن يبقى للعالم ذكراً محموداً وعلماً منظوماً ممتداً».

أطلق عليه المحدثون ومنهم فون كريمر [١] لقب «هيرودوت العرب» وهو تشبيه صحيح ومحاكاة جيدة، فإن كلًّا منهما أفاض في تدوين التاريخ وجمع المادة بصبر وتأن، وكذلك جمع بينهما جلد على تسجيل الوقائع وتدوين الخوارق والعجائب التى أخذت بلبيهما، فإن العمل الذي قام به المسعودي هو تسجيل التاريخ، تاريخ الإنسانية العام، منذ بدء الخليقة إلى زمنه سنة ٣٣٦ هـ، فإن الموضوعات التي دوّنها وكذلك الاستطرادات التي كلف بها وغاص في البحث فيها ميّزت كتبه بالتطويل والاستطراد. وهذا ما دفع المؤرخ فازيلييف أن يقول[٢]: «إن كتب المسعودي لمما يقرأه المسلمون والأوروبيون على السواء، لما فيها من متعة ودواء، ولذا استحق بأن يلقب بـ «هيرودوتس العرب»، وهو اللقب الذي أطلقه عليه كريمر».

مؤلفاته:

ذكر المسعودي في كتابه «التنبيه والإشراف» في الصفحة ٢ وما بعدها[٣] بياناً موجزاً لمؤلفاته.

- أخبار الزمان ومن أباده الحدثان، وهو كتاب يقع في نحو ثلاثين مجلداً لم يبق منه سوى جزء واحد موجود في خزانة ڤيينا الأهلية، وقد اختصره المسعودي - كما ذكرنا - وسمى المختصر «الكتاب الأوسط» ثم أجمل ما بسّطه

(١) ثقافة الشرق ٢: ٤٢٣.

(٢) كتاب العرب والروم ص ٢٨٣.

(٣) طبعة دي غويه De Goej، كما وضع مثل هذه القائمة الكونت سلفستر دي ساس، واعتمدها باربيه دي مينار في التعليقات التي أضافها على مروج الذهب، وأفرد لها المجلد التاسع من طبعته، وذلك في الصفحة ٣٠٢ وما بعدها.

واختار من مطولاته ما وسعه الاختيار في كتاب «مروج الذهب» الذي انتهى من كتابته في جمادى الأولى سنة ٣٣٢ هـ.

- مروج الذهب ومعادن الجوهر.
- كتاب القضايا والتجارب.
- ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور.
- كتاب الرسائل والاستذكار لما مرّ في سالف الأعصار.
- كتاب التاريخ في أخبار الأمم من العرب والعجم.
- كتاب خزائن الدين وسر العالمين.
- كتاب المقالات في أصول الديانات.
- كتاب التنبيه والإشراف.
- كتاب الاستبصار في الإمامة.
- السياحة المدنية، في السياسة والاجتماع.
- أخبار الخوارج.
- البيان في أسماء الأئمة.
- كتاب المسائل والعلل في المذاهب والملل.
- كتاب الإبانة عن أصول الديانة.
- كتاب سرّ الحياة.
- كتاب الرؤيا والكمال.
- كتاب طب النفوس
- كتاب الواجب في الفروض اللوازم.
- كتاب الزلف.
- كتاب مزاهر الأخبار وطرائف الآثار.
- كتاب مقاتل فرسان العجم.
- كتاب الصفوة في الإمامة.
- كتاب المبادىء والتراكيب.
- كتاب الرؤوس السبعة.
- كتاب الزاهي.

ـ كتاب نظم الجواهر في تدبير الممالك والعساكر.
ـ فنون المعارف وما جرى في الدهور والسوالف.
ـ كتاب الدعاوى.
ـ كتاب الاسترجاع.
ـ كتاب نظم الأعلام في أصول الأحكام.
ـ كتاب نظم الأدلة في أصول الملّة.
ـ كتاب تقلب الدول وتغيير الآراء والملل.
ـ كتاب وصل المجالس.
ـ الأخبار المسعوديات.

وكتاب مروج الذهب عبارة عن دراسة تاريخية وجغرافية معاً، فالكتاب ليس تاريخياً متصل الحلقات بعضه ببعض، ولكنه مجموعة من الحوادث والأخبار، كان أساسه ما رآه المؤلف عياناً في البلاد التي طاف فيها في أثناء رحلته الطويلة، وكان قد وصل في سرد هذه الحوادث التاريخية إلى سنة ٣٣٢ هـ، وهي السنة التي ألّف فيها كتاب «مروج الذهب».

الإصطخري

القرن الرابع الهجري (ت نحو ٣٤٦ هـ)

أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي أحياناً، وينسب إلى إصطخر وهي مدينة في فارس، ويذكر المؤرخون الفارسيون أنها سميت بهذا الاسم لكثرة البحيرات والمناقع التي تحيط بها، حيث كانت تقوم في وادي مرغاب الضيق الذي يسمى الآن وادي «مرودشت». وإذا كان تاريخ هذه المدينة مجهولاً بعض الشيء، فإن الإصطخري المنسوب إليها يلفه الغموض هو أيضاً، فالمصادر لم تأت إطلاقاً على ذكر ولادته، ولا كيف عاش طفولته وصباه إلى أن وافاه أجله، فهو لم يتحدث عن نفسه في كتابه، وكذلك فإن معاصريه لم يكن لهم ذكر في ثنايا تأليفه، وهم لم يذكروه في كتبهم ومصنفاتهم. حتى إن ياقوت الحموي الذي اعتمد على كتابه في تصنيف «معجم البلدان» أغفل ترجمته بل والإشارة إليه في كلامه عن بلده إصطخر، مكتفياً بتسميته في مقدمة المعجم، وهو أمر غريب من ياقوت الذي يهتم بمن هم أقل منه نباهة وذكراً.

ليس غريباً ألّا يعرف تاريخ ولادة الإصطخري، ولكن الغريب هو أن يجهل تاريخ وفاته، خصوصاً وقد غدا من المؤلفين المشهورين. ولكن بعض القرائن التي جمعت وصلت بنا إلى تحديد تاريخ لعله أقرب إلى الصواب إن لم يكن صحيحاً. ومن هذه القرائن ما ذكره ابن حوقل في كتابه «المسالك والممالك» من أنه لقي الإصطخري في بغداد في سنة ٣٤٠ هـ، ومنها ما ذكره الإصطخري نفسه في حديث عن بلاد ما وراء النهر في فصل من فصول كتابه، فها هو يقول: «ورأيت على باب كسن صفيحة من حديد قد كتب عليها كتابة زعم أهلها أنها بالحميرية... فوقعت فتنة بسمرقند في أيام مقامي بها وأحرق الباب وذهبت

الكتابة، وأعاد ذلك الباب أبو المظفر محمد بن لقمان بن نصر بن أحمد بن أسد كما كان من جديد من غير تلك الكتابة». وقد كان أبو المظفر هذا عامل سمرقند من قبل عبدالملك بن نوح بن نصر الساعاتي المتوفى سنة ٣٥٠ هـ. ومعنى هذا أن الإصطخري كان لا يزال حياً يرزق في العقد الخامس من القرن الرابع الهجري، وأنه زار في هذه الفترة بغداد وسمرقند، ومن ثم يمكننا أن نرجح أن وفاته كانت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري.

والإصطخري من الجغرافيين الذين لم يطوفوا في البلدان طوافاً طويلاً، ولا الذين وطئوا الأعمال عاينوها، ولكنه كان بلا ريب زوّاراً لبعض البلدان التي وصفها في كتابه، من مثل ما جاء عن مكة، فنسمعه يقول: «وليس بمكة ماء جار، إلاّ شيء بلغني بعد خروجي عنها أنه أجري إليها من عين كان عمل فيها بعض الولاة، فاستتم في أيام المقتدر أمير المؤمنين». ويذكر أنه رأى في مدين البئر التي استقى منها موسى عليه السلام لسائمة شعيب وكانت مغطاة قد بني عليها بيت. ويتحدث عن الحجر التي كانت بها ديار ثمود، ويقول: «ورأيتها بيوتاً مثل بيوتنا في أضعاف الجبال».

لم يشر الإصطخري إلى المصادر التي نقل عنها ولا عمن سمع منهم، وإنما يكتفي بقول بلغني كذا وكذا، ممّا جعل البعض[1] يتهمه بأن كتابه «المسالك والممالك» ليس سوى نسخة حديثه لمصنف أبي زيد البلخي المتوفى سنة ٣٢٢ هـ.

على أن الإصطخري مصنف يسير على نهج واضح رسمه لنفسه، وقد تحدث عن هذا النهج الذي اختطه فيقول في مبدإ كتابه: «أما بعد، فإني ذكرت في كتابي هذا أقاليم الأرض على الممالك، وقصدت منها بلاد الإسلام بتفصيل مدنها، وتقسيم ما يعود بالأعمال المجموعة إليها، ولم أقصد الأقاليم السبعة التي عليها قسمة الأرض، بل جعلت كل قطعة أفردتها مفردة مصورة، تحكي موضع ذلك الإقليم، ثم ذكرت ما يحيط به من الأماكن، وما في أضعافه من المدن والبقاع المشهورة والبحار والأنهار، وما يحتاج إلى معرفته من جوامع ما يشتمل عليه ذلك

---

(١) دي غويه (أو دي خوليه) الذي يرى أن كتابه «مسالك الممالك» لم يكن سوى نسخة جديدة لمصنف سابق كتبه أبو زيد البلخي.

الإقليم، من غير أن أستقصي ذلك كراهة الإطالة التي تؤدي إلى ملال من قرأه، ولأن الغرض من كتابي هذا هو تصوير هذه الأقاليم التي لم يذكرها أحد علمته، أما ذكر مدنها، وجبالها وأنهارها وبحارها والمسافات وسائر ما أنا ذاكره فقد يوجد في الأخبار، ولا يتعذر على من أراد تقصي شيء من ذلك من أهل كل بلد، فلذلك تجوزنا في ذكر المسافات والمدن وسائر ما نذكره، فاتخذت لجميع الأرض التي يشتمل عليها البحر المحيط الذي لا يسلك صورة، إذا نظر إليها ناظر علم مكان كل إقليم مما ذكرناه واتصال بعضه ببعض، ومقدار كل إقليم من الأرض، حتى إذا رأى كل إقليم من ذلك مفصلاً على موقعه من هذه الصورة، ولم تتسع هذه الصورة التي جمعت سائر الأقاليم لما يستحقه كل إقليم في صورته، من مقدار الطول والعرض والاستدارة والتربيع والتثليث، وسائر ما يكون عليه أشكال تلك الصورة، فاكتفيت ببيان موقع كل إقليم ليعرف مكانه، ثم أفردت لكل إقليم من بلاد الإسلام صورة على حدة، بينت فيها شكل ذلك الإقليم وما يقع فيه من المدن وسائر ما يحتاج إلى علمه».

ويهتم الإصطخري بالخريطة الجغرافية أيّما اهتمام، فهي عنده أساس الدراسة الجغرافية وهذا أساس الجغرافيا الحديثة، إذ يتخذ للعالم المعروف على زمنه خريطة يفتتح بها الكتاب ليعرف من يطلع عليه موقع الإقليم الذي يصفه. وهذا هو المنهج الجغرافي الصحيح المتبع حديثاً. ولا يغالي الإصطخري في أهمية خريطته العامة التي رسمها، ونجده يقدم عذره عن أنها لم تتسع لما يستحقه كل إقليم من مقدار الطول والعرض والاستدارة والتربيع والتثليث كما أسلفنا.

يبدأ الإصطخري كتابه إذاً بالمقدمة «أول الكتاب» يشرح فيها الغرض من التأليف والمنهج الذي سار عليه في تأليفه، ثم الأقسام التي قسم بلاد الإسلام على أساسها، ثم يدرس الخريطة السياسية للعالم المعروف آنذاك أي صورة الأرض عامرها والخراب، مقسمة على الممالك، وهو يرى أن ممالك الأرض أربع هي:

١ ـ مملكة الصين، ويدخل فيها سائر بلدان الأتراك وبعض التبت ومن دان بدين أهل الأوثان منهم.

٢ ـ مملكة الهند ويدخل فيها السند وكشمير وجزء من التبت ومن دان بدينهم.

٣ ـ مملكة الروم وفيها الصقالبة وسائر الأمم ممن دان بالنصرانية إلى بلاد الروم.

٤ ـ مملكة الإسلام.

وبالإضافة إلى الخريطة السياسية لا يغفل الإصطخري الناحية الطبيعية من الجغرافية. فقد ذكر في كتابه أن العالم قسمان جنوبي وشمالي والخط الفاصل بينهما هو الخط الممتد من الخليج الذي يأخذ من البحر المحيط بأرض الصين إلى الخليج الذي يأخذ من هذا المحيط بأرض المغرب والأندلس، أو بعبارة أخرى الخط الذي يمتد من طرف شبه جزيرة كوريا حتى مضيق طارق أي خط عرض ٣٥ شمالاً على وجه التقريب والأقاليم التي تقع في شمالي هذا الخط أميل إلى البرودة، وهو تقسيم فيه من الصحة الكثير في حدود العالم الذي كان معروفاً في زمنه.

كلمة لا بد منها في نهاية الحديث عن الإصطخري، فإنه وإن لم تأت المصادر على ذكر ترجمة حياته، ولا عن رحلته التي طاف فيها بلاد العرب وبعض أنحاء الهند، فإن دائرة معارف البستاني[١] ذكرت أنه بدأ رحلته سنة ٣٤٠ هـ، وإذا كان الإصطخري قد توفي نحو ٣٤٦ هـ فمعنى هذا أنه قام بالرحلة قبل وفاته بست سنوات.

---

(١) الجزء الثالث ص ٧٤٤.

الصّدفي

٢٨١ - ٣٤٧ هـ

عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى، الصّدفي المصري الحافظ المؤرخ، أبو سعيد مؤرخ مصر. نسبته إلى الصدف وهي قبيلة حميرية نزلت مصر. ولد سنة إحدى وثمانين ومائتين، وتوفي سنة سبع وأربعين وثلثمائة. وهو حفيد يونس بن عبد الأعلى صاحب الشافعي، ووالد العالم الفلكي ابن يونس علي بن عبد الرحمن صاحب الزيج الحاكمي. كان إماماً في علم التاريخ روى عنه ابن منده وعبد الواحد بن محمد البلخي وجماعة من الرحالة، وله كلام في الجرح والتعديل يدل على بصره بالرجال ومعرفة العلل.

صنّف الصدفي لمصر تاريخين: أحدهما، وهو الكبير، يختص بأهل مصر، والثاني يختص بذكر الغرباء الواردين على مصر.

وقد ذيّلهما أبو القاسم يحيى بن عليّ الحضرمي.

ولما مات رثاه أبو عيسى عبد الرحمن بن إسماعيل الخشاب النحوي العروضي بقوله(١):

بثثت علمك تشريقاً وتغريبا وعدت بعد لذيذ العيش مندوبا
أبا سعيد وما يألوك(٢) إن نشرتْ عنك الدواوين تصديقاً وتصويبا
ما زلت تلهجُ بالتاريخ تكتبه حتى رأيناك في التاريخ مكتوبا

(١) أوردها ابن خلكان كما وردت عند القفطي في إنباه الرواة ٣: ١٥٩ في ترجمة عبد الرحمن بن إسماعيل الخشاب. وفي تاريخ علماء أهل مصر قصيدة في رثائه من نظم عبد الرحمن بن إسماعيل الخولاني النحوي المتوفى سنة ٣٦٦ هـ يقول فيها.

(٢) في وفيات الأعيان: نألوك.

المقدسي

٣٣٥ ـ نحو ٣٨١ هـ

أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر البنّاء، ولد ببيت المقدس، ومن هنا جاءت نسبته المقدسي، كان جدّه أبو بكر بنّاءً مشهوراً، وهو الذي بنى ميناء عكّا وحائطها واسمه مكتوب عليه. ولم تأت الكتب التي ذكرت المقدسي على تحديد سنة مولده، ولكن من المرجح أنه ولد في حدود سنة ٣٣٥ هـ، باعتبار أنه أخرج كتابه الموسوم «أحسن التقاسيم» وهو في الأربعين من عمره، وكان إخراجه في سنة ٣٧٥ هـ، فتكون سنة ولادة كما رجحنا في أول خلافة المطيع ببغداد وكان تولّى الخلافة في ١٢ جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ هـ.

في هذه الفترة التي عاشها المقدسي من القرن الرابع الهجري، عاين الحضارة الإسلامية في أوج مجدها، فقد عاصر العباسيين خلفاء بغداد، والسامانيين والبويهيين في المشرق، والإخشيديين في مصر والشام والمغرب.

كانت نشأته في دمشق، ثم انتقل منها بعد عشرين سنة إلى العراق فتفقّه فيه، وأخذ ينهل من العلم. وفي العراق كان قارئاً عارفاً بالقراءات، وكان يفضّل قراءة ابن عامر، وهي قراءة أهل الشام، ويقرأ بها، وكان يختلف إلى العلماء ويدرس على الفقهاء وكتبة الحديث والقرّاء، ويخالط المتصوّفة والزهاد، وقد ختم كتابه بقصيدة من شعره مما يدل على أنه كان ينظم الشعر. ونستطيع من خلال تصفّحنا لكتابه أن نقرأ أسماء بعض شيوخه الذين روى عنهم، من مثل أبي محمد السيرافي، والحاكم أبي نصر منصور بن محمد الحربي محتسب بخارى، وأبي الفضل بن نعامة بشيراز، والفقيه أبي عبدالله بدمشق، وأبي عبدالله محمد بن أحمد بقصبة أرّجان، وأبي بكر الإسماعيلي بجرجان، والفقيه أبي عبدالله محمد بن عمر

البخاري، والشيخ العدل أحمد بن محمد بنيسابور، ومحمد بن منصور، وغسّان الحكيم بأريحا، ومسافر بن عبدالله الأنصاري، وأبي الطيب بن غلبون بمصر، وكان قد قرأ القرآن على هذا الأخير.

كان الهدف الذي وضعه المقدسي نصب عينيه أن يعمل شيئاً مفيداً كما ذكر: «يحيي به ذكره وينفع الخلق ويرضي الرب». ووجد أن هذا الهدف يمكن إصابته بتصنيف كتاب في وصف الأقاليم الإسلامية في ذلك العصر. ولم يرد في سبيل تحقيق هذا الهدف أن يستند على كتب المتقدمين ممّن سبقه في هذا المجال، بل أراد أن يصف ويدوّن ما يشاهده عياناً ويلاحظه ملاحظة دقيقة حيّة. ولأجل هذا فقد عزم على السفر والتطواف. وهكذا طاف المقدسي في أنحاء الممالك الإسلامية من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب. ثم من القسطنطينية إلى جنوبي الجزيرة العربية، يحطّ رحاله في كل بلد وكل إقليم حتى بلغ الغاية، لكنه على حد تعبيره يقول: «ولم يبق إقليم إلّا دخلناه عدا الأندلس».

وكان في أثناء تطوافه يحل في البلدة فترة قصيرة، وقد تطول أحياناً، يسجّل مشاهداته وملاحظاته، ثم كان يجتمع بالناس على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم ومشاربهم، وحسب أعمالهم واتجاهاتهم وأفكارهم، فيسأل ويجمع ويدوّن كل هذه المعلومات. ولم تكن رحلته هذه رحلة هناء وراحة، فقد عانى فيها الكثير من التعب والوصب. فهو يقول في كتابه: «ولم يبق شيء مما يلحق المسافرين إلّا وقد أخذت منه نصيباً غير الكدية وارتكاب الكبيرة». ومع هذا فقد استطاع المقدسي أن يجتمع ببعض الملوك ويغشى قصورهم مطّلعاً على خزائن كتبهم، وعمل في تجليد الكتب، وتولّى الحسبة في بعض البلدان. فهو يذكر قائلاً: «وفقهت وأدّبت وخطبت على المنابر، وأذّنت على المنائر وأقمت في المساجد، وذكرت في الجوامع، واختلفت إلى المدارس، ودعوت في المحافل، وتكلمت في المجالس، وأكلت مع الصوفية الهرائس، ومع أصحاب الخانقاه من الثرائد، ومع النواتي العصائد، وطردت في الليالي من المساجد، وسحت في البراري، وتهت في الصحاري، وصدقت في الورع زماناً، وأكلت اللحم عياناً، وصحبتُ عبّاد جبل لبنان، وخالطت حيناً السلطان... ونزلت في عرصة الملوك بين الأجلّة،

وسكنت بين الجهّال في محلّة الحاكة، وكم نلت العزّ والرفعة، ودُبّر قتلي غير مرة، وحججت وجاورت، وغزوت ورابطت[1]».

بعد هذا العناء في سبيل التأليف، والذل والهوان بهدف التصنيف، استطاع المقدسي أن يضع كتاباً ضمن له الهدف الذي أراد، ولا ريب أنه كان سبّاقاً في هذا المضمار، فما عرفنا مؤلفاً عانى ما عاناه، ولا عاين وخالط وشافه كما فعل هو في رحلته، ولذلك توفرت لديه مادة خصبة منوّعة، جعلت من كتابه مرآة واضحة للعالم الإسلامي في القرن الرابع الهجري كما ذكر المطلعون على هـذا السفر العظيم. فلنسمعه يقول: «ورأيت أن أقصد علماً قد أغفلوه، وأنفرد بفن لم يذكروه إلّا على الإخلال، وهو ذكر الأقاليم الإسلامية وما فيها من المفاوز والبحار والبحيرات والأنهار، ووصف أمصارها المشهورة، ومدنها المذكورة، ومنازلها المسلوكة، وطرقها المستعملة، وعناصر العقاقير والآلات، ومعادن الحمل والتجارات، واختلاف أهل البلد في كلامهم وأصواتهم، وألسنتهم وألوانهم، ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم، ونقودهم وصروفهم، وصفة طعامهم وشرابهم، وثمارهم ومياههم، ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم، وما يحمل من عندهم وإليهم، وذكر مواضع الأخطار في المفازات، وصفة المنازل في المسافات، وذكر السباخ والصّلاب والرمال، والتلال والسهول والجبال. . . والممالك والحدود، والمصادر والجروم، والمخاليف والزموم، والطساسيج والتخوم، والصنائع والعلوم، والمباخس والمشاجر، والمناسك والمشاعر».

فالمقدسي اتبع في تصنيف كتابه قواعد جديدة، فقد اعتمد على ملاحظاته ومشاهداته الشخصية، ثم بعد ذلك ما أجاب به الناس على أسئلته وتوضيحاتهم، ومن بعد كان لا بد من النقل ـ عندما يجب النقل ـ عن تصانيف المتقدمين في هذا العلم. والمقدسي عندما يكتب يتحاشى النقص الذي وقع فيه أعلام الجغرافيين مثل البلخي والجيهاني وابن الفقيه، ويعيب على ابن خرداذبه والجاحظ أن كتابيهما فيهما كثير من الاختصار ولا يحصل منهما فائدة. على أن المقدسي لم يأت على ذكر مؤلّفي ابن حوقل والإصطخري، ولعله لم يطلع عليهما في أثناء

(١) أحسن التقاسيم ص ٣/١، ٤٥/٤٣، ١٠٠، ١٤٢، ٢٥٦.

تدوين كتابه، فهو يذكر ـ بعد تسجيل الكتب التي سبقت ـ يقول: فهذا ما وقع إلينا من المصنّفات في هذا الباب، بعد البحث والطلب، وتقليب الخزائن والكتب[1]».

وقد اعتمد المقدسي في تصنيف كتابه على دعائم منها:

أولاً: سؤال ذوي العقول من الناس، ومن لم أعرفهم بالغفلة والالتباس، عن الكور والأعمال في الأطراف التي بعدت عنها ولم يتقدّر لي الوصول إليها. فما وقع عليه اتفاقهم أثبتّه، وما اختلفوا فيه نبذته. وما لم يكن لي بدّ من الوصول إليه والوقوف عليه قصدته، وما لم يقرّ في قلبي ولم يقبله عقلي أسندته إلى من ذكره، أو قلت: زعموا[2].

ثانياً: ذكرنا ما رأينا وحكينا ما سمعنا. فما صحَّ عندنا بالمعاينة وأخبار التواتر أرسلنا به القول، وما شككنا فيه أو كان من طريق الآحاد أسندناه إلى الذي سمعنا منه[3].

ثالثاً: شحنتُ الكتاب بفصول وجدتها في خزائن الملوك[4].

رابعاً: اجتهدنا في أن لا نذكر شيئاً سطروه، ولا نشرح أمراً أوردوه، إلاّ عند الضرورة، لئلا نبخس حقوقهم ولا نسرق من تصانيفهم[2].

إضافة إلى هذه القواعد التي اتبعها المقدسي في وضعه كتابه «أحسن التقاسيم» فقد تميّز الكتاب بأسلوب ليس له نظير عند من كتبوا في هذا الباب. فهو يقول: «وأودعنا شيئاً من الغوامض والمعاني ليجلّ، أوردنا فيه الحجج توثّقاً، والحكايات تحقّقاً، والسجع تظرّفاً، والأخبار تبرّكاً، وبسّطنا أكثره ليقف عليه العوام إذا تأمّلوه، ورتبناه على طرق الفقه ليجلّ عند العلماء إذا تدبّروه».

---

(١) أحسن التقاسيم ص ٥.

(٢) أحسن التقاسيم ص ٣.

(٣) أحسن التقاسيم ص ٨.

(٤) أحسن التقاسيم ص ٣، وهو النقل.

(٥) أحسن التقاسيم ص ٦، إشارة إلى الجغرافيين السابقين.

ثم إن المقدسي لتعميم الفائدة من كتابه، وبغية تسهيله على العام والخاص من المطلعين والمتعلمين فقد عمد إلى تصوير الأقاليم وميّز بينها بألوان متباينة. يقول: «مثّلناها ورسمنا حدودها وخططها، وحرّرنا طرقها المعروفة بالحمرة، وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة، وبحارها المالحة بالخضرة، وأنهارها المعروفة بالزرقة، وجبالها المعروفة بالغبرة، ليقرب الوصف إلى الأفهام، ويقف عليه الخاص والعام[1]».

ولئن كان من السهل تحديد سنة مولده، كما أسلفنا، فإن تحديد سنة الوفاة على شيء من الصعوبة. فالمقدسي كما عرفنا أخرج كتابه سنة ٣٧٥ هـ بعدما بلغ الأربعين من عمره، ثم هو يذكر الخليفة العباسي الطائع ويقف عنده في كتابه، والطائع تولى الخلافة سنة ٣٦٣ هـ وبقي فيها حتى سنة ٣٨١ هـ، ولو أن المقدسي عاش زمن خليفة الطائع القادر لأتى على ذكره في كتابه عندما ذكر خلفاء بني العباس، وعلى هذا الأساس فإن وفاة المقدسي قد تكون على الأرجح بين سنة ٣٧٥ هـ (سنة إخراج الكتاب) وسنة ٣٨١ هـ.

---

(١) أحسن التقاسيم ص ٩.

ابن ماكولا

٤٢٢ - ٤٨٥ هـ

علي بن هبة الله بن جعفر بن علكان بن محمد بن دُلف (من ولد أبي دلف العجلي) بن القاسم بن عيسى، أبو نصر، المعروف بابن ماكولا. أمير[١] مؤرخ حافظ متقن، وكان يقال له: الخطيب الثاني. أصله من جرباذقان (من نواحي أصبهان)، ولد في عكبرا قرب بغداد سنة ٤٢٢ هـ، كان أبوه وزير جلال الدولة بن بُوَيه، وكان عمه أبو عبدالله الحسين بن جعفر قاضي القضاة ببغداد.

كان نحوياً مجوّداً شاعراً صحيح النقل، وما كان في بغداد في زمانه مثله، سمع أبا طالب بن غيلان، وأبا بكر بن بشران وأبا القاسم بن شاهين وأبا الطيب الطبري. سافر إلى الشام والسواحل وديار مصر والجزيرة والثغور والجبال، ودخل بلاد خراسان وما وراء النهر وجال في الأصقاع والآفاق.

ذكر الحميدي قال: خرج إلى خراسان ومعه غلمان له تُرْك، فقتلوه بجرجان[٢] وأخذوا ماله وهربوا، وطاح دمه هدراً.

ومن شعره:

ولما تفرّقنا تباكت قلوبنا ... فممسكُ دمعٍ عند ذاك كساكبِهِ
فيا نفسي الحرّى البسي ثوب حسرةٍ ... فراق الذي تهوينه قد كساكِ بهِ

وقال أيضاً:

تجنّبت أبواب الملوك لأنني ... علمتُ بما لم يعلم الثقلانِ

(١) لم يعرف سبب تسميته بالأمير، هل كان أميراً بنفسه أم لأنه من ولد أبي دلف العجلي.
(٢) وقيل في خوزستان.

رأيت سهيلاً لم يحِدْ عن طريقه   من الشمس إلّا من مقام هوانِ

صنّف من الكتب:

- كتاب المختلف والمؤتلف. جمع فيه بين كتاب الدارقطني وعبد الغني والخطيب وزاد عليهم زيادات كثيرة.
- كتاب الوزراء.
- كتاب الإكمال، في المؤتلف والمختلف من الأسماء والكنى والأنساب[1].
- تكملة الإكمال.

وله شعر جيد.

(١) لم يذكره الكتبي في فوات الوفيات، ولعله كتاب المختلف والمؤتلف.

الحُمَيْدي

نحو ٤٢٠ هـ - ٤٨٨ هـ

محمد بن فتوح بن عبدالله، كان جده الأعلى يُسمّى حميد بن يَصل الأندلسي، فكانت نسبته إليه فسمي الحميدي. أما أبوه فتوح فلا يعرف عنه شيء، ولعلّه لم يكن من النابهين لأننا لا نجد له ذكراً في كتاب ابنه الجذوة، ولم يأت على ذكره أحد ممّن ترجموا من المؤرخين الأندلسيين. أما الحميدي نفسه فيتحدث عن أبيه قائلاً: «وأصل أبي من قرطبة، من محلة يقال لها الرصافة، وسكن أبي الجزيرة، وولدت أنا بها، والجزيرة شرقيّ الأندلس، وقرطبة نحو غربيّها[1]»، وفي معجم البلدان يذكر ياقوت «أن الجزيرة هي ميورقة، ولذلك كان ينسب إليها فيقال الميورقي. وكانت ولادته قبل سنة عشرين وأربعمائة كما ذكر المقري[2].

ومنذ طفولته حمل الحميدي على الكتف ليسمع العلماء، كما ذكر المقري، ويحدّثنا هو أن أصبغ بن راشد كان أول شيوخه الذين أخذ عنهم «هو أوّل من سمعنا منه سنة خمس وعشرين أو نحوها[3]». بعد ذلك سمع الحميدي، وقد شبّ، من كبار علماء الأندلس آنذاك، وأخذ عنهم، ومن بينهم يوسف بن عبد البرّ الفقيه، عالم القراءات والخلاف في الفقه وعلوم الحديث والرجال، وأحمد بن عمر العذري المرّي المعروف بابن الدلائي الأديب المؤرخ المحدّث، وعبد

(١) تاريخ دمشق، لابن عساكر ج ١١ ورقة ٢٥ آ.
(٢) المقري، نفح الطيب ٣: ٣١٤.
(٣) جذوة المقتبس ص ١٦٤.

الملك بن سليمان الخولاني المحدث الكبير، وعلي بن أحمد بن سعيد بن حزم الإمام الفقيه والمؤرخ الأديب، ولعلّ ابن حزم كان أكثرهم تأثيراً في شخصية الحميدي. فقد لازمه واختص به وقرأ عليه مصنّفاته وحمل عنه أكثر كتبه وصار على مذهبه[1].

على أن الحميدي كان في أثناء سماعه على شيوخه وجلوسه للدرس والتحصيل يتنقل بين مدينة أندلسية وأخرى، ولذلك نجد ذكراً لقرطبة وشاطبة في الجذوة، وميورقة التي نشر فيها علمه وعُدّ من مفاخرها الخالدة. ولمّا بلغ الحميدي غايته في الأندلس من السماع والأخذ والتحصيل، صمّم على الرحلة إلى بلاد المشرق، وقد كان المشرق آنذاك ملتقى العلماء ومنهل العلم، وكان قبلة أنظار الأندلسيين. وقد ذكر الكوثري أن انتقاله إلى المشرق كان بعد استفحال اضطهاد المذهب الظاهري (مذهب ابن حزم) في الأندلس. فقصد الحميدي القيروان واجتمع بها بابن أبي زيد صاحب «الرسالة» وأخذ عنه، ثم زار الديار المصرية وأخذ عن كبار علمائها كأبي إسحاق الحبّال المحدّث صاحب الوفيات، وأبي عبدالله القضاعي المؤرخ صاحب خطط مصر. ثم حج وسمع من علماء ومحدّثي مكة المكرمة، وقصد دمشق فلقي هناك الخطيب البغدادي صاحب تاريخ بغداد، وكان الخطيب قد ورد دمشق سنة ٤٥١ هـ حاملاً تصانيفه وكتبه وسماعاته[2]، فسمع كل منهما من صاحبه، وروى وكتب كل منهما عن الآخر.

ثم قرأ الحميدي على محدثي دمشق من أصحاب ابن جميع وابن أبي الحديد وغيرهما، وأخذ عنه من علماء دمشق جماعة كابن الأكفاني المحدّث المؤرخ، وأبي القاسم السمرقندي، وكان كلاهما من شيوخ ابن عساكر مؤرخ دمشق، ثم قصد بغداد فأخذ عن علمائها وأخذوا عنه، واتصل مرة أخرى بالخطيب البغدادي بعد فراره من دمشق ورجوعه إلى بغداد، وبابن ماكولا صاحب الإكمال. ثم يمّم شطر واسط ثم عاد إلى بغداد فاستوطنها ولم يعد إلى الأندلس أبداً. وهناك عكف الحميدي على الاستماع والإسماع والكتابة والتصنيف في علوم الآداب

(١) تاريخ دمشق، ابن عساكر ج ١١ ورقة ٢٤ ب.

(٢) يوسف العش، الخطيب البغدادي ص ٣٧ - ٤٠.

والتاريخ والحديث فشُهر وملأ صيته أنحاء بغداد، فأكرمه أهلها وأجلّوه، وبقي بينهم قرابة خمس وثلاثين سنة إلى أن توفي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة.

كان أثر ابن حزم واضحاً في فكر الحميدي، فكان ظاهرياً يقف عند ظاهر النصوص ولا يتعدّاه إلى ما وراءه من معانٍ باطنة. وقد حمل الحميدي معه إلى المشرق كتب أستاذه ابن حزم فكان أول من أدخلها بلاد المشرق ونشرها هناك. وكان بارعاً في الآداب فصيح العبارة متبحراً في علم الآداب والعربية والشعر والترسل، شغوفاً بالتاريخ والرجال والأسماء. والجدير بالذكر أن الحميدي لم يؤلف شيئاً من تصانيفه في الأندلس، إلّا ما ذكر عن جمعه ديوان ابن حزم على حروف الهجاء، أما تصانيفه فقد نجمت في بغداد، فهناك ألّف:

- الجمع بين الصحيحين، صحيح البخاري وصحيح مسلم.
- تفسير غريب ما في الصحيحين.
- تسهيل السبيل إلى تعلّم الترسيل بتمثيل المماثلات وتصنيف المخاطبات.

أمّا في التاريخ فقد صنّف:

- جذوة المقتبس.
- جمل من تاريخ الإسلام.
- وفيات الشيوخ.
- المؤتلف والمختلف.
- الذهب المسبوك في وعظ الملوك.
- نوادر الأطباء.
- أسماء الفواكه.

أما تاريخ الإسلام أو «جمل من تاريخ الإسلام» فقد ابتدأ به الحميدي بالسيرة النبوية وانتهى عند سنة ٤٨٧ هـ في خلافة المستظهر، أي السنة التي سبقت وفاته.

وأما جذوة المقتبس، فقد كان مصدراً للمؤرخين الذين تلوا الحميدي، فقد ترجم لعدد كبير من رجال الأندلس في الحديث والفقه والشعر والحرب، منذ افتتاح الأندلس إلى منتصف القرن الخامس الهجري، وفيه ٩٨٧ ترجمة.

ابن عساكر

٤٩٩ - ٥٧١ هـ

علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي، المعروف بابن عساكر. ولد بدمشق سنة ٤٩٩ هـ، أيام طغتكين. كان أبوه الحسن بن هبة الله شيخاً صالحاً عدلاً، وكان صحب الفقيه نصراً المقدسي وسمع منه صحيح البخاري، وهو رأس بيت معمور بالأئمة والمحدّثين والعلماء كان لهم شأن علمي في القرنين السادس والسابع. ولذلك أقبل علي على تلقي العلم وهو صغير. وكانت الدلائل من قبل تنبىء ذويه عن نبوغ هذا الصبي، فقد حدّث الحافظ ابنه القاسم يوماً، وقد تخطى الشباب، أنّ أمّه قيل لها في المنام: إذا حملت به «ستلدين غلاماً يكون له شأن» وأن أباه رأى من قال له: «يولد لك ولد تحيا به السنة»[١]. وما كاد علي يبلغ السادسة من عمره حتى أقبل على التحصيل يرعاه أبوه ويسمعه الصائن أخوه (هبة الله بن الحسن) وكان فقيهاً ثقة، قرأ القرآن بالروايات، وسمع كبار رجال عصره. ثم يمضي علي فيتردد إلى كبار الشيوخ يومئذٍ، يقرأ على سبيع بن قيراط، ويستمع إلى أبي القاسم النسيب، وأبي الفرج الصوري، وقوام بن زياد، وأبي طاهر الحنائي فيأخذ عنهم الحديث، ثم ينتفع بصحبة جده فيأخذ عنه النحو والعربية[٢]، ثم يشارك وهو في سنّه المبكرة بما يشارك به الكبار، فنراه وقد بلغ العاشرة يشيع جنازة شيخه قوام بن زياد ويحضر دفنه.

وكان إلى ذلك غير مقتنع بالسماع والأخذ عن شيوخ بلده، بل كان يطمع بما

(١) تذكرة الحفاظ ٤ : ١٢١.

(٢) معجم البلدان ١٣ : ٧٦.

عند شيوخ بغداد وخراسان، فيستكتبهم فيكتب له أبو محمد الأبنوسي محدث بغداد، وأبو غالب الذهلي، ومسند خراسان أبو بكر الشيروي، وأبو زكريا بن منده وغيرهم، وهو لم يبلغ الحلم بعد. وقد كان ابن عساكر يختلف إلى مسجد بني أمية بدمشق، وكان مركز العلم تعقد فيه حلقات الإقراء والتدريس والحديث والوعظ، يتلقى فيه العلم مرة ويستمع إلى الوعظ مرة. وعندما تم بناء المدرسة الأمينية التي بناها أمين الدولة سنة ٥١٤ هـ، وبدأ جمال الإسلام السلمي يدرّس بها، وكان الصائن أخو الحافظ يعيد للشيخ السلمي، كان ابن عساكر يتردّد إلى السلمي ليأخذ عنه ويتفقّه عليه. ثم إن الحافظ كان يختلف إلى الزاوية الغزالية، وكان فيها نصر المقدسي، وكان من شيوخها المدرسين السلمي والصائن (أخوه)، فكان يستمع فيها إليهم ويأخذ عنهم. وقد استمر ابن عساكر على هذه الحال حتى سنة ٥١٩ هـ عندما توفي أبوه وكان قد بلغ العشرين من عمره.

في سنة ٥٢٠ هـ، وبعد وفاة أبيه، لم يطب للحافظ البقاء بدمشق، فعزم على السفر في طلب الحديث. فيمّم وجهه شطر العراق، وقد كان بها من الشيوخ من يرحل إليه في هذا الطلب، وكانت بغداد يومئذٍ مركزاً علمياً للحديث والفقه. وأقام الحافظ في بغداد سنة واحدة، ثم قفل عائداً إلى دمشق، ولم يلبث أن عاد إليها يريد الحجّ عن طريقها. ومنها يمضي الحافظ إلى مكة فيحجّ، ثم يسمع ممّن لقي من العلماء بمكة والمدينة ومنى، ثم يعود بعد أن حدّث بمكة. وفي العراق مكث ابن عساكر خمس سنوات، كان يستمع في خلالها إلى الدرس في النظامية، ويعلق مسائل الخلاف على أبي سعد الكرماني «خلاف الشافعية والحنابلة، والحنفية والحنابلة»، ويستمع إلى كبار المحدثين فيها كأبي القاسم بن الحصين، وأبي الحسين الدينوري، وأبي غالب البناء، وأبي بكر المزرفي. ثم كان يطوف في مدن العراق وما حوله، وفي الكوفة والموصل والرحبة والجزيرة وماردين، مستمعاً فيها إلى شيوخها، ثم ظهر فضله وعلمه في بغداد حتى أطلق عليه اسم «شعلة نار» لحدة ذكائه وتوقد ذهنه. وفي سنة ٥٢٥ هـ عاد إلى دمشق ليأخذ فيها عن شيوخ غير هؤلاء. ويبقى في دمشق حتى سنة ٥٢٩ هـ، وفيها ولد له ابنه القاسم (سنة ٥٢٧ هـ)، واستعدّ بعد ذلك لطلب الحديث في رحلة أخرى. وكانت خراسان هذه المرة وجهته، ويبدو أن الحافظ كان يرغب في زيارة خراسان قبل ذلك، فقد سأله

شيخه السمرقندي «عن تأخره في المجيء إلى أصبهان» فقال: «لم تأذن لي أمي»[1]. وفي خراسان وافى الإمام محمد الفراوي لما اجتمع فيه من علو الإسناد ووفرة العلم وصحة الاعتقاد ولين الجانب. وأقام بصحبته سنة كاملة، ثم فارقه إلى هراة. ثم طاف ابن عساكر في بلاد خراسان، يلقى علماءها وفقهاءها ومحدثيها وأدباءها، وكان يأخذ عن النساء كما يأخذ عن الرجال، فغنم الكثير من الحديث، ويحدّث بنيسابور وأصبهان ويحصّل لرفيقه السمعاني الكثير من إجازات الشيوخ. وقد طاف ابن عساكر في أربعين مدينة وقرية من بلاد خراسان، وقد دامت رحلته فيها أربع سنوات، أي إلى سنة ٥٣٣ هـ عندما عاد إلى بغداد، ثم إلى دمشق، وكان قد بلغ من العمر ٣٤ عاماً. وقد عدَّ له ياقوت في معجمه ألفاً وثلاثمائة شيخ ومن الشيخات ثمانين، أخذ عنهم كلهم[2].

وفي دمشق عزم الحافظ على التحديث، وفي هذه الإقامة بدأ الحافظ أيضاً مرحلة التأليف والرواية والتسميع والمطالعة، وقد امتدت هذه الحقبة قرابة أربعين عاماً (٥٣٣ ـ ٥٧١ هـ). ثم انتهت إليه الرياسة في الحفظ والإتقان والمعرفة الكلية بالحديث، فيجمع بين معرفة المتون والأسانيد ويصبح إمام المحدثين في زمنه. وكان لدخول نور الدين دمشق سنة ٥٤٩ هـ أثر كبير في حياة الحافظ، فقد تمّ بعد هذا الدخول أمران جليلان، الأول إنجاز تاريخ مدينة دمشق، والثاني بناء دار الحديث النورية. يقول الحافظ في تاريخه: «ورقي خبر جمعي له (لتاريخ دمشق) إلى حضرة الملك القمقام، الكامل العادل الزاهد المجاهد المرابط الهمام، أبي القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر الإمام.. وبلغني تشوّقه إلى الاستنجاز له والاستتمام، فراجعت العمل فيه راجياً الظفر بالتمام»[3]. وهكذا كان الحافظ في طور تصنيف التاريخ إلى أن دخل دمشق نور الدين فأتمّه الحافظ إذ ذاك بعد سنة ٥٤٩ هـ. ثم إن دار الحديث النورية لتعليم الحديث أنشئت لابن عساكر وعهد إليه نور الدين بأمرها، ومن بين كتب ابن عساكر كتاب اسمه «تقوية المنة على إنشاء دار السنّة[4]».

(١) تذكرة الحفاظ ٤ : ١٢٣.
(٢) معجم الأدباء ١٣ : ٧٦.
(٣) تاريخ دمشق (من المقدمة ص ٤).
(٤) معجم الأدباء، ياقوت ١٣ : ٧٨.

وكانت وفاة ابن عساكر في أوائل عهد صلاح الدين سنة إحدى وسبعين وخمسمائة. فقد خرج صلاح الدين يشيع جنازته، وصلى عليه القطب النيسابوري في ميدان الحصا، ودفن بمقبرة الباب الصغير.

تصانيفه:

ذكر القاسم ابنه أنه ألّف ستين كتاباً، ولكنّ ياقوتاً ذكر أنها تزيد على الستين، عدا الأجزاء والمجالس والمشيخات. والقاسم هو الذي أظهر كتب أبيه وتولى إسماعها بالجامع بدمشق ودار الحديث. ومن كتبه في الفضائل: فضائل العشرة، أخبار الأوزاعي وفضائله، فضل قريش وأهل البيت والأنصار والأشعريين، فضائل الصديق، فضل أصحاب الحديث، مناقب الشبّان، فضل بيت المقدس، فضل مكة، فضائل مقام إبراهيم، فضل الربوة والنيرب، فضل المدينة، فضل عسقلان.

وله: المعجم، لمن سمع منه أو أجاز له، كتاب من سمع منه من النسوان، معجم أسماء القرى والأمصار التي سمع بها جزءاً واحداً، معجم الشيوخ النبلاء مجالس الشيخ السلمي، مشيخة أبي غالب بن البناء، مشيخة أبي المعالي الحلواني.

أما كتب الحديث: الموافقات على شيوخ الأئمة الثقات، الإشراف على معرفة الأطراف، عوالي مالك بن أنس، التالي لحديث مالك العالي، ما وقع في أحاديث مالك من الغرائب المسلسلات، الأحاديث السباعية الأسانيد، السداسيات والخماسيات، الأربعون الطوال، كتاب أربعين حديثاً في الجهاد، وأربعون حديثاً عن أربعين شيخاً من أربعين مدينة، وطرق حديث عبدالله بن عمرو، وحديث سعد بن عبادة، ما وقع للأوزاعي من العوالي، عوالي حديث سفيان الثوري، أحاديث شعبة.

وتاريخ دمشق أوسع ما ألّف عن دمشق وأكثره شمولاً، ولم يلحق بالحافظ أحد ممّن ألّف في التاريخ بعده. ولا شك أن هذا التاريخ قد مرّ بمراحل ثلاث:

الأولى: كان التاريخ «في خمسمائة جزء وسبعين جزءاً»[1]، أي إنه كان في سبع وخمسين مجلدة.

---

(١) معجم الأدباء ١٣: ٧٦.

الثانية: لما وصل العماد الأصفهاني إلى دمشق في سنة ٥٦٢ هـ وجد الحافظ قد صنف التاريخ، وذكر الحافظ أنه في سبعة مائة كراسة، كل كراسة عشرون ورقة[١]، ومعنى ذلك أنه صار سبعين مجلدة.

الثالثة: عندما ازدادت أجزاء التاريخ، وإذا بابنه القاسم يقول: «والنسخة الجديدة ثمانمائة جزء»[٢].

وكان الحافظ سمى تاريخه «تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلّها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها». وقد اتبع فيه نهج المحدّثين فهو يبدأ بذكر السند ثم يورد الخبر. أما التراجم فقد رتِّبت على حروف الهجاء، وقد ذكر في المقدمة أنه يورد ما يعرف عن المترجم لهم «ويذكر ما لهم من ثناء ومدح وما فيهم من هجاء وقدح، وما ذكر فيهم من تعديل وجرح، وحكاية.. وما نقل عنهم من جدّ ومزح، وبعض ما وقع له من رواياتهم، وتعريف ما عرفه من موالدهم ووفياتهم»[٣].

---

(١) الخريدة، ورقة ٤٧ ب.

(٢) معجم الأدباء لياقوت ١٣ : ٧٦.

(٣) المقدمة ص ٥.

ابن الجوزي

٥١٠ - ٥٩٧ هـ

عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيدالله بن عبدالله بن حمادي بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزي، كنيته أبو الفرج، ولقبه جمال الدين، وجده الأكبر جعفر الجوزي منسوب فيما يقوله سبطه إلى محلة بالبصرة تسمّى محلّة الجوزة، أو إلى فرضة فيها يقال لها جوزة. غير أن الذهبي في التذكرة انفرد بقوله: وعرف جدهم بالجوزي بجوزة كانت في داره بواسط لم يكن في واسط جوزة سواها[١].

ولد ابن الجوزي كما ذكر سبطه بدرب حبيب في بغداد سنة ٥١٠ هـ تقريباً. زعم السبط أنه سأل جده عن تاريخ مولده فقال: ما أحققه، ولكن في سنة عشرة وخمسمائة تقريباً. وكانت بغداد آنذاك قد فقدت نفوذها السياسي في العالم الإسلامي، وأمست مركزاً لخلافة دينية لبني العباس يسيطر عليها السلاطين من الأتراك والسلاجقة، وقد تعرضت في زمن ابن الجوزي لمحن عظيمة. فقد صادفت سنة ولادته حريقها الشهير سنة ٥١٠ هـ،ثم حدث سنة رضاعته ٥١١ هـ زلزال عظيم يوم عرفة. وفي سنة ٥١٥ احترقت دار السلطنة كلها ببغداد، وفي سنة ٥١٧ كانت فتنة دبيس الأسدي وطغيانه، ثم وقع زلزال آخر سنة ٥٣٨، ثم زلزلة سنة ٥٤٤، ثم كان الطوفان العظيم سنة ٥٥٤ ففرق قسم كبير من بغداد تحت الماء. وفي عام ٥٧٤ عم الجوع والوباء. ورغم هذا كله ظلت بغداد مدينة العلم والأدب ومحجة للعلماء. وقد عاصر ابن الجوزي في مدى السنين السبع والثمانين التي عاشها أربعة وعشرين وزيراً.

(١) الذهبي، تذكرة ٤: ١١٣.

وفدت أسرة ابن الجوزي إذاً من الجوزة إلى بغداد، وكان والد ابن الجوزي كما يظهر من تجار النحاس وقد مات حين كان لابنه ثلاث سنين فقط، فعهد بتربيته إلى عمة له صالحة، فاعتنت به وعنيت بتعليمه عند بعض الشيوخ فشرع في تعلم القرآن ولمّا يبلغ العاشرة من عمره، وكان من بين هؤلاء الشيوخ الذين تعلم القرآن منهم المبارك بن جعفر (المتوفى سنة ٥١٨). وحين بلغ العاشرة أخذ يدرس على أبي القاسم العلوي، ومما يروى عنه أنه ألقى في ذلك العمر عظة أمام جمهور غفير في جامع بغداد كان شيخه العلوي علمه إياها. ثم أخذته عمته إلى مسجد خاله الشيخ أبي الفضل محمد بن ناصر فاعتنى به وأسمعه الحديث وظل يدرس عليه أكثر من ثلاثين سنة، وعنه أخذ علم الحديث. وبلغ عدد الشيوخ الذين أخذ عنهم ابن الجوزي في خلال هذه السنين أكثر من ثمانين شيخاً ما عدا ثلاث سيدات عالمات هن فاطمة بنت الحسين الرازي، وفاطمة بنت عبدالله الخيري، وفخر النساء الشهدة بنت أحمد الأثري. وكان من شيوخه ابن الزاغوني، وقد أخذ عنه الفقه والوعظ، وأبو بكر الدينوري الحنبلي، وأبو منصور الجواليقي، وإبراهيم بن دينار النهروالي، وعبد الوهاب بن المبارك الأنماطي، وقد توفي الكثير من شيوخه قبل منتصف ذلك القرن. وفي خلال تحصيله لم يكتف بالعلوم الدينية بل حاول أن يلمّ بعلوم أخرى بحيث كتب بعد ذلك في الأدب واللغة والتاريخ والطب[1].

وهكذا كانت بغداد مؤونة ابن الجوزي في التحصيل والسماع، ولكنه قام في سنة ٥٤١ هـ بحجة إلى مكّة مع نسطو الخادم أمير الحاج بالعراق، ثم قام بحجة ثانية بعد اثنتي عشرة سنة زار في أثنائها المدينتين، وكانت شهرته قد ذاعت وعرف الناس مكانته، فألقى عظة في كل من الجامعين الكبيرين فيهما. وفي آخر خلافة المتقي[2] كان ابن الجوزي قد صنّف وكتب كتباً كثيرة، ولكنها غرقت بسبب الطوفان الذي اجتاح بغداد سنة ٥٥٤ هـ ودمّر جميع الضاحية التي كانت داره فيها، واضطر ابن الجوزي إلى أن يعبر الجانب الغربي، ثم لمّا عاد بعد يومين لم يجد

---

(١) فضائل القدس، لابن الجوزي، تحقيق د. جبور ص ٢٦.
(٢) (٥٣٠ ـ ٥٥٥ هـ).

حائطاً قائماً في ضاحيته، ولم يستطع أن يعرف أين كانت داره. وقد نكب في تلك السنة نفسها بوفاة ابنه الأكبر عبد العزيز وكان مقيماً في الموصل، وكان له من البنين في ذلك العام اثنان أكبرهما عبدالعزيز أبو بكر هذا.

وكان من حظ ابن الجوزي أن تولى الوزارة في خلافة المستنجد يحيى بن محمد بن هبيرة، وكان عالماً شاعراً، فكان ابن الجوزي يعظ في بيت الوزير نفسه، واشتدت أواصر الصلة بين آل هبيرة وآل الجوزي، ولم يقتصر أثر ابن الجوزي في هذه الفترة على الوعظ في بيت الوزير ابن هبيرة، بل كانت له مجالس في الجامع الكبير، ومجالس في المدارس المختلفة التي تولى شيوخه التعليم فيها.

وهكذا بلغ ابن الجوزي في هذه الحقبة شهرة ومكانة رفيعة. وفي سنة ٥٧٠ هـ، أقام حفلة كبرى حين أنهى تفسير القرآن الذي كان يمليه من على المنبر في الجامع لسنين عديدة، وكان بين الحاضرين جملة من الأعيان وكبار القوم فمنحه الخليفة المستضيء آنذاك جائزة وخلع عليه خلعة نفيسة. وفي سنة ٥٧٤ هـ أكمل ابن الجوزي أكبر مؤلفاته، وهو مصنفه الموسوم بـ«المنتظم في أخبار الملوك والأمم». ولم ينقطع طيلة هذه السنين عن الوعظ والتعليم والتصنيف في مواضيع شتى، بحيث أصبح من أشهر الوعاظ ومن أعظم المؤلفين في الإسلام وأوفرهم تأليفاً. وفي هذه الفترة وبعد أن تقدمت به السنّ شرب حبّ البلاذر، فسقطت لحيته وأصبحت قصيرة جداً، وصار يخضبها بالسواد إلى أن مات(١).

ولم تصف له الأقدار في آخر عمره، فقد تسلّم الوزارة ابن القصّاب سنة ٥٩٠ هـ، فأمر بنفي ابن الجوزي إلى واسط بسبب دعوى أقامها عليه بعض خصومه، ويذكر الذهبي في تذكرة الحفاظ(٢): أنه نالته محنة في أواخر عمره، جاءه من شتمه وأهانه وختم على داره وشتّت عياله، ثم أخذ في سفينة إلى واسط، فحبس بها في بيت، وبقي يغسل ثوبه ويطبخ، ودام على ذلك خمس سنين وما

---

(١) شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي ٤: ٣٣٠.
(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي ٤: ١٣٥.

دخل حماماً. وكان ابنه علي أبو القاسم كبير ولديه الباقيين (له ولد من زوجته الثانية) قد استطاع دخول بيت أبيه، فسرق الكثير من كتبه وباعها رخيصة. ذكر سبطه قال[1]: «فقد تحيّل عليها بالليل والنهار حتى أخذ منها ما أراد، وباعها لا بثمن المداد». وقال في موضع آخر: «باعها بيع العبيد». وتلك كانت نكبته الثانية التي حلّت بكتبه[2].

وفي السنة الأخيرة من سني منفاه، وكان ابنه الأصغر يوسف أبو محمد قد بلغ الخامسة عشرة من عمره، فحاول إنقاذ أبيه، وقصد أم الخليفة الناصر والخليفة الناصر نفسه أيضاً، واسترحمهما. فلبّيا طلبه وأمرا بالإفراج عن أبيه. وهكذا غادر ابن الجوزي منفاه شيخاً في الخامسة والثمانين ولم يلبث أن توفي بعد سنتين، وكان ذلك ليلة الجمعة في ١٢ رمضان سنة ٥٩٧ هـ، وكان له مأتم عظيم حملت فيه جنازته على الرؤوس إلى مقبرة أحمد بن حنبل. وكان قد أوصى أن يكتب على قبره هذه الأبيات:

يا كثير العفو من كثرت ذنبي لديه
جاءك المذنب يرجو الصفح عن جرم يديه
أنا ضيف وجزاء الضيف إحسان إليه

مؤلفاته

أشار ابن خلكان إلى كثرة كتب ابن الجوزي قال[3]: «وبالجملة فكتبه أكثر من أن تعدّ، وكتب بخطه شيئاً كثيراً، والناس يغالون في ذلك حتى يقولون إنه جمعت الكراريس التي كتبها، وحسبت مدة عمره، وقسمت الكراريس على المدة، فكان ما خص كل يوم تسعة كراريس، وهذا شيء عظيم لا يكاد يقبله عقل».

وفي سنة ١٩٦٥ وضع بعض المؤلفين[4] دراسة في مؤلفات ابن الجوزي،

---

(١) مرآة الزمان ٨: ٣٢٥.
(٢) فضائل القدس ت. د. جبور ص ٣٩.
(٣) مقدمة تحقيق كتاب ذم الهوى لابن الجوزي ص ١٣.
(٤) عبد الحميد العلوجي ص ٢٢٢ - ٢٣٩.

نشرت في كتاب مستقل، فبلغ عدد الكتب لديه ثلاثمائة وأربعة وثمانين، منها ٢٧ في القرآن وعلومه، و٤٢ في الحديث ورجاله وعلومه، و٥٤ في المذاهب والأصول والفقه والعقائد، و١٤٣ في الوعظ والأخلاق والرياضيات، و١٠ في الطب، و١٦ في اللغة والشعر، و٦٤ في التاريخ والجغرافيا والسير والحكايات، و١١ في القصص، و١٠ في التاريخ، و٧ في التاريخ الجغرافي.

ومن الكتب التي تهمنا في موضوع كتابنا هذا نورد، ما يلي:

- أخبار النساء.
- أخبار أهل الرسوخ.
- تاريخ عمر بن الخطاب.
- التاريخ والمواعظ.
- تبصرة الأخيار في ذكر نيل مصر وأخواته من الأنهار.
- تلقيح فهوم الأثر في التاريخ والسير.
- الذهب المسبوك في سير الملوك.
- سيرة عمر بن عبد العزيز.
- القرامطة.
- مناقب الإمام أحمد بن حنبل.
- مناقب بغداد.
- مناقب الحسن البصري.
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم.
- مولد النبي (ﷺ).
- الوفا بأحوال المصطفى.
- فضائل القدس.
- الأذكياء.
- أخبار الحمقى والمغفلين.
- أخبار الظرفاء والمتماجنين.

ابن جبير

٥٤٠ - ٦١٤ هـ

محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن عبد السلام الكناني الشذوني، اختلف المؤرخون في سنة مولده، فقد جعلها لسان الدين بن الخطيب في سنة ٥٣٩ هـ، بينما جعلها المقري ليلة السبت عاشر ربيع الأول سنة ٥٤٠ هـ، ثم وافق معظم المؤرخين المقري في ذلك. على أن المؤرخين اتفقا على أن ولادته كانت ببلنسية على مصب نهر الوادي الكبير في البحر الأبيض المتوسط، ولكن بعض المؤرخين قالوا إنه ولد بشاطبة. كان أبوه أحمد من كتاب شاطبة ورؤسائها، ولا تذكر المصادر كيفية انتقال هذه الأسرة من شذونة إلى شاطبة في شرقي إسبانيا، ولكن الواضح أن الأسرة خضعت لتغيير بدليل أن جد أحمد عبد السلام الكناني كان رجل سيف وأصبح أحمد والد محمد رجل قلم من كتاب شاطبة.

عني الوالد بابنه محمد وأراد أن يصوغه على مثاله، فكان أول أستاذ له، ثم دفع به إلى المعلمين المحترفين، فشغف الولد بالعلم شغفاً ملك عليه حواسه ولم يفارقه طيلة حياته، فكان يسعى إلى رجاله في كل مكان حط به، فكان في قائمة أساتذته من لقيه بسبتة ومكة وبغداد وحران ودمشق وغيرها، بالإضافة إلى علماء الأندلس. وكانت العلوم التي عني بها علوم الدين من فقه وحديث وقراءات وما اتصل بها من علوم اللغة والنحو والأدب.

ولمّا بلغ محمد السن التي تمكنه من الاستقلال بحياته والاضطلاع بأعبائها، احترف مهنة الكتابة، فعمل لبعض الأمراء من الموحدين الذين كانوا يسيطرون على المغرب والأندلس في ذلك الوقت، وكان أشهر من اتصل به أبو سعيد عثمان بن

عبد المؤمن الذي عقد له أبوه على ولاية سبتة وطنجة في سنة ٥٤٩ هـ، وعيّن أبا محمد عبدالله بن سليمان وأبا عثمان سعيد بن ميمون الصنهاجي وزيرين له، وأبا بكر بن طفيل الفيلسوف وأبا بكر بن حبش كاتبين له. ويبدو أن محمداً بدأ حياته العلمية بالاتصال ببعض أقارب الأمير أبي سعيد بغرناطة، ثم ما لبث أن لفت إليه أنظار الأمير وتقرب إليه فضمه إلى كتابه وتنقل معه بين غرناطة وسبتة.

ولم يشتغل محمد بالكتابة فقط بل درّس أيضاً، وخاصة بعد رحلته الثانية إلى الشرق، فقد انقطع مدة في فاس للتحديث ورواية ما عنده وممارسة التصوف. وكان قد فعل شيئاً من هذا في المشرق وخلف تلاميذ لـه في الغرب أشهـرهم أحمد بن عبد المؤمن الشريشي شارح مقامات الحريري، وفي الشرق شُهر منهم عبد الكريم بن عطاء الله والحافظان أبو محمد المنذري وأبـو الحسين يحيى بن علي القرشي بالقاهرة.

ذكر ابن الخطيب محمد بن جبير بأنه كان فاضلاً نزيه الهمة سري النفس كريم الأخلاق أنيق الطريقة ذا فضل بديع وورع يحقق أعماله الصالحة. وفي شعره أبيات تنصح بالتواضع وتنهى عن السفه وتحذر من الاغترار بالدنيا. ويظهـر في رحلاته حرصه الشديد على زيارة أضرحة أعلام الدين ولقاء المشهورين من رجاله الذين عرفوا بالتقوى، كل ذلك جعل الرجل يميل إلى الزهد وأخذ هذا الميل يزداد إلى أن جعله ينبذ الدنيا العريضة التي نالها بالأدب كما يقول المقري ويخلد إلى التصوّف.

وتوفي محمد بن جبير بالإسكندرية في أثناء رحلته الثالثة إلى المشرق، في يوم الأربعاء السابع أو التاسع والعشرين من شعبان سنة ٦١٤ هـ.

رحلاته

لم يقم محمد بن جبير برحلة واحدة بل قام بثلاث رحلات قصد فيها جميعاً أداء فريضة الحج الذي كان مقصد جل الراحلين من المغرب إلى المشرق، والذي وهب الأدب العربي مجموعة من أجمل ما عرف من رحلات وخاصة إذا أضفنا إليه طلب العلم. ولم يدون محمد أخبار هذه الرحلات الثلاث في كتابه بل قصره على الرحلة الأولى وحدها.

وقد صرّح محمد في صدر رحلته أنه لم يكن وحيداً فيها، إذ كان أحمد بن حسان القضاعي رفيقاً له، وكان أحمد (من أندة من مدن مقاطعة بلنسية، درس الطب وأصدر فيه كتاباً) مع محمد، وبرغم هذا لم يشر إليه محمد في الرحلة غير ثلاث مرات.

شرع محمد بن جبير ورفيقه في الرحلة بمغادرة غرناطة في أول ساعة من يوم الخميس ٨ شوال ٥٧٨ هـ، وأنهياها بالعودة إليها يوم الخميس ٢٢ محرم سنة ٥٨١ هـ. فكانت مدتها عامين وثلاثة أشهر ونصفاً، قضيا منها في الأندلس ١٨ يوماً وفي المغرب ثلاثة أيام، وعلى البحر الأبيض المتوسط شهراً، وفي العودة ثلاثة أشهر، وفي مصر نحو أربعة أشهر، وفي البحر الأحمر تسعة أيام، وفي شبه الجزيرة العربية نحو عشرة أشهر، وفي العراق نحو شهر ونصف، وفي الشام نحو ثلاثة أشهر ونصف، وفي صقلية نحو ثلاثة أشهر ونصف.

اهتمّ المتأخرون بهذه الرحلة فأكثروا من الرجوع إليها والاقتباس منها، فاقتبس منها العبدري وخالد بن عيسى البلوي[1] وابن بطوطة والمقريزي والفاسي والمقري والشريشي. ثم اهتم بها أيضاً المستشرقون (الإيطاليون خاصّة)، فقد حققها ونشرها وليم رايت في ليدن سنة ١٨٥٢، ثم راجع المحقق نفسه ما طبعه واشترك في تصحيحه جماعة من كبار المستشرقين هم دوزي وروبرتسون سميث ودي غويه، وأعادوا نشرها سنة ١٩٠٧. وحقق أماري القسم الخاص بصقلية من الرحلة، ونشره مع ترجمة فرنسية في المجلة الآسيوية، واعتمد على الرحلة كذلك كرولا في بحثه عن صقلية في العهد النورمندي، ثم توج الإيطاليون عنايتهم البالغة برحلة ابن جبير بأن عمد كلستينو شيابرلي إلى ترجمة النص كله ونشره في روما في سنة ١٩٠٦ تحت عنوان:

Ibn Gubayr (Giobeir) Viaggio in Ispagna, Sicilia, Siria, Palestina, Mesopotamia, Arabia, Eggito, Cominto nel secolo XII.

(١) تاج المفرق في تحلية علماء المشرق.

ياقوت الحموي

٥٧٥ - ٦٢٦ هـ

ياقوت بن عبد الله المستعصمي الرومي، جمال الدين، من موالي المستعصم.
كان مولده سنة خمس وسبعين وخمسمائة في بلاد الروم، ولا تذكر المصادر شيئاً عن أسرته الرومية الأصل أو بلده أو أبيه، كل الذي ذكر أنه وقع أسيراً وهو صغير من غير معرفة اسم الذي أسره. بعد أسره سيق إلى بغداد حيث اشتراه تاجر حموي يدعى «عسكر»، فسمّي «ياقوت» وهو اسم كانت العرب تطلقه على الرقيق، ولمّا كان مجهول اسم الأب الرومي، فقد جعلوه عبداً من عبيد الله، ومذ ذاك أصبح اسمه ياقوت بن عبدالله الرومي، ثم ألحق به لقب الحموي للدلالة على اسم مولاه الذي اشتراه.

ولمّا كان مولاه عسكر تاجراً ليس له معرفة بالكتابة والقراءة، فقد دفع الصبي الصغير إلى الكتّاب ليتعلم الكتابة والقراءة هناك، ولمّا أتقنهما استعان به في أعمال تجارته، ثم لما شبّ وكبر اندفع ياقوت إلى تعلم النحو واللغة(١).

عندما أصبح ياقوت مساعداً لعسكر في أعمال التجارة، كان لا بد له من الأسفار، وقد كان غلاماً حين كان يتردّد إلى كيش (جزيرة في وسط البحر الهندي، أهلها فرس(٢))، ثم إلى عُمان في جزيرة العرب، وكان أكثر أهلها خوارج إباضية، ثم كان يعود إلى الشام وهي تحت حكم بني أيوب. وفي سنة ست وتسعين وخمسمائة، وكان ياقوت قد بلغ الحادية والعشرين من سنّه، جرت بينه وبين مولاه عسكر جفوة فأعتقه وأبعده عنه. وربما كانت هذه الجفوة في صالح ياقوت، إذ

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان ٢ : ٢٨٢.

(٢) معجم البلدان، ياقوت ٧ : ٣٠٦.

اندفع هذا الشاب إلى المطالعة والقراءة والتحصيل واشتغل في النسخ، فكانت الإفادة من كل هذا عظيمة فحصل له من هذه العلوم فائدة كبيرة. ثم لم يعتّم أن عاد الودّ بينه وبين مولاه عسكر بعد بضع سنين، ولأجل ما حصّله ياقوت من العلم فقد جعله مولاه شريكاً له بالمضاربة، فأعطاه من ماله وسفّره إلى كيش التي كان يقصدها صغيراً. ولمّا عاد ياقوت من سفرته هذه وجد أن مولاه عسكر قد توفي سنة ست وستمائة، فأعطى زوجة مولاه وأولاده ما رضوا به، وأبقى معه ما تبقى من المال ليتاجر به. وكان أن اختار لتجارته تجارة الكتب فكانت مربحة فكسب منها.

كانت هذه التجارة تتطلب منه أن يحمل الكتب إلى البلاد ثم يعود حاملاً الكتب منها أيضاً، وكان هذا الرحيل والعودة بعد ذلك، يدفعانه إلى مزيد من الاطلاع والبحث في موارد ومصادر الثقافة الإسلامية الوفيرة، ومن ثم معرفة أسماء العلماء الذي يودون شراء كتب العلم واللغة، وفي واحدة من سفراته كان محطّ رحاله في حلب سنة تسع وستمائة، وكان وزير حلب آنذاك القفطي المعروف، وكان هذا الوزير ميالاً إلى جمع الكتب حريصاً على اقتنائها، وكان له وسيط لشراء الكتب يدعى «أبو علي القيلوي» فأدخل ياقوتاً عليه يحمل إليه ما جمعه من الكتب. ولمّا كانت هذه هي الزيارة الأولى للوزير القفطي، فإنّ الوزير لم يرضَ عنه ولا عن الكتب التي حملها إليه. يقول القفطي في كتابه «إنباه الرواة»: فلم يكن فيها سوى كتابين ابتعتهما منه، وتأملته في منظره ومخبره فتوسّمت فيه أموراً لم يخب حدسي فيها وعلمتُ أنه لا يصلح للعشرة. وكان أن عاد ياقوت إلى حلب بعد ذلك سنة ثلاث عشرة وستمائة ومعه كتب، فاجتمع بالقفطي وسمع منه شعره، وكان آنذاك قد تجاوز الأربعين من العمر، ثم توجه بعد لقائه إلى دمشق، وفي بعض أسواقها قادته الأقدار إلى لقاء بغدادي يتعصّب لأحد الصحابيين، فتناظرا، وجرى بينهما ما دفع ياقوتاً إلى ذكر الصحابي بسوء، ممّا أثار عليه حفيظة أهالي دمشق فهمّوا به وكادوا يقتلونه، وبلغ خبره والي البلد المعتمد الموصلي فطلبه فخاف وفرّ إلى حلب ناجياً بنفسه، ومن حلب رحل إلى الموصل فإربل ثم توجّه نحو خراسان بحيث لم يمرّ ببغداد خشية أن يلقى فيها المناظر البغدادي فيعرفه وينقل خبره فيقتل.

وفي خراسان قام ياقوت بالتأليف والمطالعة والنسخ، وكان مع هذا يتاجر بالكتب، ويحملها وينتقل بها بين خراسان ومرو ونسا وخوارزم، على أن أكثر إقامته كانت في مرو، وكانت هذه الإقامة من أخصب أيام عمره، حيث أفاد منها الكثير، فنسمعه يقول عن مرو:

«وأقمتُ بها ثلاثة أعوام.. ولولا ما عرا من ورود التتر إلى تلك البلاد وخرابها لما فارقتها إلى الممات، لما في أهلها من الرفد ولين الجانب وحسن العشرة وكثرة الكتب الأصول المتقنة، فإني فارقتها وفيها عشر خزائن للوقف لم أرَ في الدنيا مثلها كثرة وجودة».

ومن مرو انتقل إلى نسا، ثم منها إلى خوارزم، وقد وصلها أيام الشتاء، فقد ذكر نهر جيحون: «جيحون نهرها، وعرضه ميل، وهو جامد، والقوافل والعجل الموقرة ذاهبة وآتية عليه»[1]. وفي خوارزم حاول ياقوت الكتابة والتأليف لكنه لم يستطع، فهو يقول في ذلك[2]:

«وقد كنت اجتهدتُ أن أكتب شيئاً بها، فما كان يمكنني لجمود الدواة حتى أقرّبها من النار وأُذيبها. وكنتُ إذا وضعت الشربة على شفتي التصقت بها لجمودها على شفتي».

ولم يطل مقامه في خوارزم بعد أن هاجمها التتر، ففرّ منها سنة ست عشرة وستمائة تاركاً كل ما لديه، واتجه منها إلى الغرب مقاسياً في رحيله التعب والخوف، إلى أن وصل إربل سنة سبع عشرة وستمائة، ولكن المقام بها لم يطب له، فتركها إلى الموصل، وبعد وصوله إليها كتب رسالته الشهيرة إلى وزير حلب القفطي، وهي رسالة طويلة قصّ فيها قصّة حياته وتعبه وجهده، وسعيه وراء الرزق وحرمانه وما عاناه في خراسان ومرو من علم وراحة، وكان قد تمنى في آخر رسالته المثول بحضرة الوزير. بعد ذلك أقام ياقوت بالموصل مدة، ثم تركها إلى سنجار ومن ثم إلى حلب. وفي حلب لجأ إلى الوزير القفطي، فرحّب به الوزير على

(١) معجم البلدان، ياقوت ٣: ٤٧٦.

(٢) معجم البدان، ياقوت ٣: ٤٧٩.

مضض، وسمح له بالاطلاع على الكتب قدر ما يريد، رغم ما ذكره عنه من سوء عشرته. وقد ذكر ياقوت كتب القفطي قال: «ولم أرَ، مع اشتمالي على الكتب، وبيعي لها وتجارتي فيها أشدّ اهتماماً منه بها، ولا أكثر حرصاً على اقتنائها، وحصل له منها ما لم يحصل لأحد»[1].

وفي حلب هذه المرة استطاع ياقوت أن يجد في كنف القفطي الوزير ما نشده من راحة فأخذ يجتمع بالعلماء والكتّاب ويقرأ الكتب وينسخ حتى تمكن من تجميع مال وفير، فسافر ببضاعة من الخام إلى مصر وعاد من مصر ببضاعة ربح فيها.

وفي حلب أيضاً فرغ ياقوت الحموي من مسودة كتابه «معجم البلدان» سنة إحدى وعشرين وستمائة، وكان أن أهداه بخطّه إلى خزانة القفطي الوزير. ثم عمد بعد ذلك إلى تبييض الكتاب سنة خمس وعشرين وستمائة. وبقي ياقوت في حلب إلى أن توفي في العشرين من شهر رمضان، سنة ست وعشرين وستمائة[2]، وأوصى إلى العزّ بن الأثير، وهو المؤرخ المشهور، بأوراقه ومجموعاته ليسيّرها إلى بغداد.

ذكر القفطي في إنباه الرواة: «واحتاط نوّاب الأيتام على ماله إلى أن حضر ولد سيّده من بغداد بكتاب حكمي وتسلّم ما خلّفه. وأما ابن الأثير فإنه تصرّف في الكتيبات التي له والأوراق المجمعة التي بخطّه تصرفاً غير مرضٍ، ولم يوصلها، بعد أن حصل بالموصل إلى الجهة المعينة برسمها، بل فرّقها على جماعة أراد انتفاعه بهم وبها عندهم، وبلغني أن خبرها وصل إلى بغداد فطالبوه من هناك بتسييرها إلى محلّ وقفها، فسيّر بعضها وأعرض عن بعض».

بدا ياقوت في معجم البلدان مؤرخاً يذكر الفتوح وأحكام الأراضي، ويذكر تاريخها وأخبارها ووصف أقاليمها، ويعمد إلى ذكر اشتقاق أسمائها لغوياً، ويذكر أيضاً أسماء الرجال الذين نسبوا إليها، عظماء وأدباء وشعراء ورجال دين وزهد،

---

(١) معجم البلدان، ياقوت ٥: ١٨٨.

(٢) جميع المصادر أجمعت على سنة وفاته، خلا بلاشير فقد جعلها سنة ٦٢٧ هـ.

وكان يحاول في كل ذلك ذكر سنيّ ولادتهم ووفياتهم وما أثر عنهم. ذكر ياقوت نفسه في معجمه قال: «أوحد في بابه، مؤمّر على جميع أضرابه وأترابه، لا يقوم بمثله إلّا من أُيّد بالتوفيق، وركب في طلب فوائده كل طريق، ففاز وأنجد وتغرّب فيه وأبعد، وتفرّغ له في عصر الشباب وحرارته، وساعده العمر بامتداده وكفايته».

إضافة إلى معجم البلدان ألّف ياقوت أيضاً معجم الأدباء، وهو معجم جمع فيه أخبار النحويين واللغويين والقرّاء والنسّابين والإخباريين والمؤرّخين والورّاقين والكتاب، وكل من صنف في الأدب تصنيفاً. واختصر ياقوت «جمهرة النسب» لابن الكلبي، وجرّد من معجم البلدان «المختلف صقعاً والمتفق وضعاً»، ثم صنّف كتباً ضاع أكثرها، نذكر منها:

- معجم الشعراء.
- كتاب المبدأ والمآل في التاريخ.
- كتاب أخبار المتنبي.
- كتاب أوزان الأسماء والأفعال الحاصرة لكلام العرب.
- وله ردّ على ابن جنّي في كلامه على الهمزة والألف في سرّ الصناعة.

ذكر مستشرق فرنسي أنّ معجم البلدان من المؤلفات التي يحقّ للإسلام أن يفخر بها كل الفخر[1].

(١) Carra de vaux كارّا دوڤو، ٢/ ١٩.

ابن الأثير

٥٥٥ ـ ٦٣٠ هـ

علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، عز الدين المؤرخ. ولد في جزيرة ابن عمر سنة ٥٥٥ هـ، وولد أخوه مجد الدين سنة ٥٥٤ هـ وضياء الدين سنة ٥٥٨ هـ. كان أبوه محمد متولّي ديوان المدينة من قبل قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل، ثم تولّى الخزانة فيها أيضاً، ولمّا استولى نور الدين محمود بن زنكي على الموصل، بعد وفاة قطب الدين سنة ٥٦٥ هـ، لا يُعلم إن كان محمد قد بقي متولياً ديوان المدينة والخزانة لنور الدين محمود. وهكذا نشأ عز الدين في بيت جاه وثراء، بدليل أن كان له عدة بساتين مقابل جزيرة ابن عمر من الجانب الشرقي، كما كان له تجارة بين الشام والموصل في غدوّ ورواح، وكان أخوه قد توجه إلى طلب العلم، ولعل عز الدين تأثر به، فانصرف هو أيضاً إلى الشيوخ في جزيرة ابن عمر يقرأ عليهم ويستمع منهم.

ثم انتقل عز الدين مع والده وأخويه إلى الموصل، ولا تُعرف السنة التي رحلوا فيها عن جزيرة ابن عمر. وفي الموصل التي كانت موئلاً للعلم وملتقى للعلماء والأدباء، اتصل عز الدين بالشيخ أبي الحرم مكي بن ريان بن شبّة النحوي المقرىء ولازمه، وشاركه في هذه الملازمة أخوه مجد الدين. وفي الموصل أيضاً أخذ عن خطيبها أبي الفضل عبدالله بن أحمد الطوسي، وخطيبها عبد المحسن بن عبدالله الطوسي، ويحيى بن محمود الثقفي، ومسلم بن علي السخي.

ولمّا شهر عز الدين في العلم ونبه ذكره، اتّصل بحكام الموصل، فأرسله بدر الدين رسولاً إلى خليفة بغداد. والظاهر أن عز الدين وجد في بغداد آفاقاً جديدة، ففي خلال قدومه إليها حاجاً تارة وتارة رسولاً، اتصل بالكثير من علمائها وأخذ

عنهم، مثل عبد المنعم بـن كليب، وعبد الوهاب ابن سكينة، وأبي حفص عمر بن محمد بن طَبْرزَد البغدادي المحدث، ويعيش بن صدقة، سمع على هذا الأخير سنن النسـائي، وأبي محمد عبـدالله بن عليّ بن عبـدالله بن سـويـدة التكـريتي المحدث.

وفي الموصل التي استوطنها، كان منزله محجة أهل الفضل والواردين عليه، وكان هو يتردد إلى صاحب الموصل نور الدين يقرأ له التواريخ في شهر رمضان في حين كان أخوه مجد الدين يكتب لأمرائها، ثم رحل عزالدين من الموصـل إلى حلب ونزل ضيفاً عند الطواشي شهاب الدين طغريل الخادم وكان أتابك الملك العزيز ابن الملك الظاهر صاحب حلب. ثم إنه سافر إلى دمشق سنة ٦٢٧ هـ، وكان صاحبها الملك الأشرف.

وفي دمشق سمع عز الدين الحديث من أبي القـاسم بن صصرى، وزين الأمناء ابن عساكر، ثم أسمع الحديث بجامع بني أمية ودار الحديث النوريّة. ثم عاد إلى حلب سنة ٦٢٨ هـ، وفي أثناء مقامه فيها تردد إليه ابن خلكان، فأكرمه ابن الأثير بالغ الإكرام وأظهر لـه عظيم المودة والمؤانسة، واجتمع هناك أيضاً بياقوت الحموي إبّان لجوء هذا الأخير إلى الوزير القفطي.

بعد هذه اللقاءات وفي آخر سنة ٦٢٨ هـ ترك عزالدين حلب عـائداً إلى المـوصل، وبقي فيهـا يهب العلم لمن تردد إلى داره إلى أن وافتـه المنية سنـة ٦٣٠ هـ، وكان له من العمر خمس وسبعون سنة، ودفن بالموصل ولا يزال قبره يعرف هناك.

تصانيفه

ذكر ابن خلكان أنه كان «إماماً في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق بـه، حافظاً للتواريخ المتقدمة والمتـأخرة، خبيـراً بأنسـاب العرب وأيـامهم ووقائعهم وأخبارهم». وذكر الذهبي أنه «محدث أديب نسّابة، متفنن إخباري، أقبل في آخر عمره على الحديث إقبالاً تاماً وسمع العالي والنازل».

وهكذا نجد أن مصنّفاته دارت وظهرت في علمين جليلين، علم الحديث

وعلم التأريخ، على أن شهرته علت في مؤلفاته التاريخية، وذلك أن تواليفه التي أُثرت عنه هي في التاريخ بمفهومه الإسلامي وما يلحق به.

أمّا مصنفات ابن الأثير فهي:

ـ الكامل في التاريخ.

ـ اللباب في تهذيب الأنساب. في الأنساب.

ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة. ألّفه في الشام بطلب من جماعة من أعيان المحدثين فيها.

ـ تاريخ الدولة الأتابكية. ألفه عن الموصل وأتابكتها.

ـ الباهر، من أخبار الدولة الزنكية، لم تذكره المصادر، وذكره هو في الكامل فقال: «وقد أتينا على كثير من ذلك في كتاب الباهر من أخبار دولتهم[1]».

صنّف ابن الأثير كتابه «الكامل في التاريخ» فابتدأ فيه من أول الزمان إلى آخر سنة ٦٢٨ هـ أي قبل وفاته بسنتين. ولا يذكر عز الدين مصادر مادة كتابه في الكامل سوى الطبري في تاريخه الكبير، ولما كان الطبري قد توفي سنة ٣١١ هـ، وأحداث الكامل تصل إلى نهاية سنة ٦٢٨، فمعنى هذا أنه اعتمد مصادر أخرى، ونلمح هذا الاعتماد من خلال تصفّحنا بعض ما ذكره منها، ككتاب «البرق الشامي في تاريخ الدولة الصلاحية» للعماد الكاتب، وكتاب «مسارب التجارب» للبيهقي، ونجده ينقل عن البلاذري والمسعودي وابن الكلبي وغيرهم. فالكامل إذاً خلاصة انتقاها عز الدين لكتب التاريخ التي وضعت قبل زمنه وفي عصره.

وقد غدا الكامل مصدراً أساسياً للمؤرخين الذين تلوا ابن الأثير، فقد أثّر في من أرّخ بعد ذلك، كأبي الفداء في تاريخه، والذهبي في التاريخ الكبير، وأخذ عنه ابن كثير في كتابه البداية والنهاية، وذيّل عليه ابن الساعي المتوفى سنة ٦٧٤ هـ، ومن ثم نقله نجم الدين الطارمي إلى اللغة الفارسية في القرن التاسع الهجري.

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ١١/١٥١.

القفطي

٥٦٨ - ٦٤٦ هـ

علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الواحد بن موسى الشيباني القفطي، أبو الحسن، جمال الدين. وزير حلب وأحد الكتاب المشهورين، من المؤرخين. كان أبوه القاضي الأشرف كاتباً أيضاً. ولد بقفط من الصعيد الأعلى بالديار المصرية سنة ٥٦٨ هـ[1]، وسكن حلب، وكان يقوم بعلوم من اللغة والنحو والفقه والحديث وعلوم القرآن والأصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل. ولي القضاء بحلب في أيام الملك الظاهر، ثم الوزارة في أيام الملك العزيز سنة ٦٣٣ هـ وأطلقوا عليه لقب الوزير الأكرم.

كان صدراً محتشماً كامل السؤدد، جمع من الكتب ما لا يوصف وقُصد بها من الآفاق، وكان لا يحب من الدنيا سواها، ولم يكن له دار ولا زوجة، وأوصى بكتبه للناصر صاحب حلب، وكانت تساوي خمسين ألف دينار.

توفي علي بن يوسف القفطي بحلب سنة ٦٤٦ هـ.

له من التصانيف:

- كتاب الضاد والظاء، وهو ما اشتبه في اللفظ واختلف في المعنى والخط.
- كتاب الدر الثمين في أخبار المتيمين.
- كتاب من ألْوَت الأيام عليه فرفعته ثم التوت عليه فوضعته.
- كتاب أخبار المصنفين وما صنّفوه.
- كتاب أخبار النحويين.

(١) سنة ٥٦٠ في فوات الوفيات للكتبي م ٣ ص ١١٧.

- كتاب أخبار مصر من ابتدائها إلى أيام صلاح الدين، (ست مجلدات).
- كتاب تاريخ المغرب.
- كتاب تاريخ اليمن.
- كتاب المحلّى في استيعاب وجوه كلّا.
- كتاب إصلاح خلل صحاح الجوهري.
- كتاب تاريخ محمود بن سبكتكين وبيته[1].
- كتاب تاريخ السلجوقية.
- كتاب الإيناس في أخبار آل مرداس..
- كتاب الرد على النصارى وذكر مجامعهم.
- كتاب مشيخة تاج الدين الكندي.
- كتاب نهزة الخاطر ونزهة الناظر، في أحاسن ما نقل من ظهور الكتب.
- كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء[2]..
- كتاب إنباه الرواة على أنباه النحاة.
- كتاب المحمدين من الشعراء، رتبه على الآباء وبلغ به محمد بن سعيد.

---

(١) وردت «بنيه» في معجم الأدباء لياقوت.

(٢) اختصره الزوزني وأسماه تاريخ الحكماء (المنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء).

أبو شامة

٥٩٦ ـ ٦٦٥ هـ

عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان، أبو القاسم شهاب الدين، الإمام العلامة ذو الفنون، أبو شامة[١] المقدسي الأصل الدمشقي الشافعي، الفقيه المحدث المؤرخ. ولد سنة ست وتسعين وخمسمائة بدمشق وبها نشأ، قرأ القرآن وله دون العشر، وجمع القراءات كلها سنة ست عشرة على الشيخ علم الدين السخاوي، وسمع بالإسكندرية من الشيخ أبي القاسم عيسى بن عبد العزيز وغيره، وحصل له سنة بضعٍ وثلاثين عناية بالحديث، وسمّع أولاده وقرأ بنفسه، وكتب الكثير من العلوم وأتقن الفقه ودرّس وأفتى وبرع في علم العربية. وولي مشيخة دار الحديث الأشرفية، وولي أيضاً مشيخة الإقراء بالتربة الأشرفية.

وقف عبد الرحمن مصنفاته جميعها في الخزانة العادلية بدمشق، فأصابها حريق التهم أكثرها. أخذ عنه القراءات الشيخ شهاب الدين حسين الكفري، والشهاب أحمد اللبان، وزين الدين أبو بكر بن يوسف المزي وجماعة، وقرأ عليه «شرح الشاطبيّة» الشيخ شرف الدين الفزاري الخطيب.

دخل عليه اثنان جبليان في بيته الذي بآخر المعمور من طواحين الأشنان ومعهما فتوى، فضرباه ضرباً مبرحاً كاد يتلف منه، ولم يدر به أحد ولا أغاثه، وتوفي في تاسع عشر رمضان سنة خمس وستين وستمائة، ودفن بمقابر باب الفراديس وقيل بباب كَيْسان.

---

(١) لقب أبا شامة، لشامة كبيرة كانت فوق حاجبه الأيسر.

مصنّفات أبي شامة

- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين: الصلاحية والنورية.
- ذيل الروضتين، سماه ناشره «تراجم رجال القرنين السادس والسابع».
- مختصر تاريخ ابن عساكر.
- المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز.
- كتابان في تاريخ دمشق، أحدهما كبير في خمسة عشر جزءاً والثاني في خمسة أجزاء.
- إبراز المعاني في شرح الشاطبية، (شرح نفيس للشاطبية).
- الباعث على إنكار البدع والحوادث.
- كتاب كشف حال بني عبيد.
- كتاب الوصول في الأصول.
- شرح القصائد النبوية للسخاوي.
- شرح الحديث المقتفى في مبعث المصطفى.
- ضوء القمر الساري إلى معرفة الباري.
- شيوخ البيهقي.

ابن العديم

٥٨٦ - ٦٦٦ هـ

عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة، الصاحب العلامة رئيس الشام، كمال الدين العقيلي الحلبي المعروف بابن العديم. مؤرخ محدث من الكتّاب. ولد بحلب سنة ست وثمانين وخمسمائة، وسمع من أبيه ومن عمه أبي غانم محمد وابن طبرزد والافتخار والكندي والحرستاني، وسمع جماعة كثيرة بدمشق وحلب والحجاز والعراق، وكان محدثاً حافظاً مؤرخاً منشئاً بليغاً، درس وأفتى وصنّف وترسل عن الملوك، وكان رأساً في الخط المنسوب ولا سيما النسخ والحواشي.

أطنب الحافظ شرف الدين الدمياطي في وصفه قال: ولي قضاء حلب خمسة من آبائه متتالية، وله الخط البديع والخط الرفيع، والتصانيف الرائقة منها «تاريخ حلب» أدركته المنية، قبل إكمال تبييضه، روى عنه الدواداري وغيره، ودفن بسفح المقطم بالقاهرة. وكانت وفاة ابن العديم سنة ست وستين وستمائة.

قال ياقوت في معجمه: سألته لِمَ سميتم ببني العديم؟ فقال: سألت جماعة من أهلي عن ذلك فلم يعرفوه، وقال: هو اسم محدث ولم يكن في آبائي القدماء من يعرف به، ولا أحسب إلاّ أن جدي القاضي أبا الفضل هبة الله بن أحمد بن يحيى بن زهير بن أبي جرادة - مع ثروة واسعة ونعمة شاملة - كان يكثر في شعره من ذكر العدم وشكوى الزمان، فسمي بذلك، فإن لم يكن هذا سببه فما أدري ما سببه.

تصانيف ابن العديم:

- بغية الطلب في تاريخ حلب، كبير جداً، اختصره في كتاب آخر أسماه «زبدة الحلب في تاريخ حلب».

- كتاب الدراري في ذكر الذراري، صنفه للملك الظاهر غازي.
- كتاب ضوء الصباح في الحث على السماح، صنفه للملك الأشرف.
- كتاب الأخبار المستفادة في ذكر بني أبي جرادة.
- كتاب دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري.
- كتاب تبريد حرارة الأكباد في الصبر على فقد الأولاد.
- كتاب سوق الفاضل.
- كتاب وصف الطيب.
- كتاب التذكرة.

ومن شعره ما كتب به إلى نور الدين بن سعيد:

يا أحسن الناس نظماً غير مفتقر ... إلى شهادة مثلي مع توحّده
إن كان خطي كسا خطاً كتبت به ... إليّ حسناً بدا في لون أسوده
فقد أتت منك أبيات تعلّمني ... نظم القريض الذي يحلو لمنشده
أرسلتها تقتضيني ما وعدت به ... والحر حاشاه من إخلاف موعده
وما نسيت ولكن عاقني ورق ... يجيد خطي فآتيه بأجوده
وسوف أسرع فيه الآن مجتهداً ... حتى يوافيك بدراً في مجلده

ابن خلكان

٦٠٨ - ٦٨١ هـ

بعد أن أسّس الملك المظفر كوكبوري دويلة جعل عاصمتها إربل، أصبحت هذه المدينة في مطلع القرن السابع الهجري مقصد الناس من كل صوب، يفدون إليها لينعموا في كنف هذا الملك، ويسعدون أيام الأعياد التي كان يقيمها مع ما يصحبها من الفخامة والعظمة والأبهة. وكان هذا الملك محبّاً للعلم فأسّس مدرسة سمّيت «المظفّرية» لتدريس علوم الحديث، فكانت محجة العلماء ينزلون فيها وينهلون من علومها، وكان من بين مدرسيها عالم ينتسب إلى البرامكة اسمه محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلّكان. وحيث إن مدرسي المدرسة المظفرية كانوا يقطنون بها، فقد كان محمد يقطن المدرسة في ظل بيئة علمية. وفي سنة ثمان وست مائة رزق محمد هذا طفلاً أسماه أحمد. ولما بلغ هذا الطفل السنتين من عمره توفي أبوه. وكعادة الأبناء في انتهاج مسلك الآباء، فقد وُجّه أحمد في سبيل العلم والدراسة. فبقي في المدرسة المظفرية بين أكابر العلماء، ويذكر أنه أحضر وعمره سنتان في مجلس حديث عند أم المؤيد النيسابورية المحدّثة فأجازته إجازة كتبتها بخطّها[١]، بعد أن سلك أحمد هذا النهج في التحصيل.

عكف أحمد على التحصيل في المدرسة المظفرية، وكان يتولى رعايته، هو وأخوه، أصدقاء أبيه محمد من الشيوخ الأجلاء، وكان الملك المظفر يشملهما بعطفه أيضاً. وكان أحمد ـ كما ذكر ـ يحضر دروس أحمد بن موسى الإربلي، وكان قد تولى التدريس بعد أبيه، وكان معجباً بدروسه، وفي سنة إحدى وعشرين

(١) انظر ترجمة أم المؤيد النسابورية، وفيات الأعيان لابن خلكان.

وستمائة، وكان أحمد إذ ذاك في الثالثة عشرة، سمع صحيح البخاري على الشيخ محمد بن هبة الله الصوفي، وفي السابعة عشرة قرأ الخلاف على المفضّل الأبهري، وكان إضافة إلى هذا يلتقي الأدباء والشعراء والعلماء الوافدين إلى إربل. ويذكر أحمد أنه رأى ابن عُنَيْن الشاعر الأيوبي سنة ٦٢٣ هـ، ورأى عبدالرحمن الواسطي في السنة نفسها، ثم كان يتردد إلى الموصل، وكانت يومها مركزاً علمياً جليلاً، فلقي فيها كمال الدين بن يونس سنة ٦٢٦ هـ، ولما بلغ الثامنة عشرة، عزم أحمد على الرحيل إلى بلدة أكبر وأزهى علماً وتحصيلاً. وما كان له يومئذٍ غير حلب، وكانت حلب على حد تعبيره: «أم البلاد مشحونة بالعلماء والمشتغلين[(١)]». وكان أخوه قد سبقه إليها.

ترك أحمد إربل والمدرسة المظفرية سنة ٦٢٦ هـ قاصداً عالمين من علمائها (علماء حلب) وكانا صديقين لأبيه، أولهما قاضي حلب البهاء أبو المحاسن بن شداد، وثانيهما المؤرخ الشهير ابن الأثير، وكان في سفره حاملاً كتاباً من الملك المظفر إلى ابن شداد القاضي. وهناك استقبل أحمد بالحفاوة والإكرام من صديق أبيه، فانصرف ينهل من العلم ويلتقي كبار العلماء. سمع الحديث على القاضي ابن شداد، وكان يتردد إليه في داره. وقد أثّر ابن شداد في تلميذه أحمد أثراً كبيراً، يقول أحمد عنه: «وكان شيخنا وأخذنا عنه كثيراً، وحصل الانتفاع بصحبته[(٢)]».

ولكن اتصاله بابن الأثير كان قليلاً، يقول ابن خلّكان: «واجتمعت به فوجدته رجلاً مكمّلاً في الفضائل وكرم الأخلاق وكثرة التواضع، فلازمتُ التردداد إليه. وكان بينه وبين الوالد مؤانسة، أكيدة، فكان بسببها يبالغ في الرعاية والإكرام. ثم إنه سافر إلى دمشق في أثناء سنة سبع وعشرين ثم عاد إلى حلب في أثناء سنة ثمان وعشرين، فجريتُ معه على عادة التردداد والملازمة وأقام قليلاً ثم توجّه إلى الموصل[(٣)]».

بالإضافة إلى هذين العالمين الجليلين، كان أحمد يتردد إلى علماء آخرين

---

(١) وفيات الأعيان ٢ : ٤٥٠.

(٢) وفيات الأعيان ٢ : ٤٦٨.

(٣) وفيات الأعيان، ١ : ٤٣٨.

في حلب، فقد قرأ هو وأخوه على الشيخ جمال الدين الماهـاني، ثم تردّد إلى الشيخ نجم الدين بن الخباز الموصلي، وكان يدرّس في المدرسة السيفيّة، وقرأ عليه أول كتاب الوجيز للإمام الغـزالي. وقد كـان لموفق الـدين يعيش بن علي النحوي أثر عظيم في أحمد حيث أخذ عنه في حلب وتأثر به. وبقي ابن خلكان في حلب إلى سنة ٦٣٢ هـ، وهي السنة التي توفي فيها شيخه القاضي ابن شداد، وكان ابن الخباز قد توفي في العام المنصرم. وقد علمنا أن ابن الأثير سافر إلى دمشق سنـة ٦٢٧ هـ، فلم يجد أحمـد بـداً من التـوجـه إلى دمشق في أواخـر سنـة ٦٣٢ هـ، حيث قصد عـالمها ابن الصـلاح وكان يـدرس في دار الحديث الأشرفية فقرأ عليه وانتفع به. ثم من دمشق عاد إلى حلب، ومنها تطلّع إلى مزيد من التحصيـل والقـراءة، فتـرك حلب قـاصـداً مصـر في جمـادى الآخـرة سنـة ٦٣٥ هـ.[1] وفي القاهرة، سكن وطاب له السكن، فتزوج واستقر، والتقى علماء مصر آنذاك. ولم يأتِ ابن خلكان على ذكر شيوخه في مصر كعادته، كمـا ذكر شيوخه في دمشق وحلب، ولكنه لقي هناك الموفق البغدادي وأخذ عنه، فقد ذكر أنه «شيخنا» في الوفيات. ثم تولى نيابة القضاء بعد ذلك، ولم تذكر المصادر سنة توليه نيابة القضاء، والمرجّح أن يكون ذلك قبل سنة ٦٤٦ هـ، لأن أبا عمرو بن الحاجب عالم العربية توفي سنة ٦٤٦، وعنه يقول ابن خلكان في الوفيات: «ثم عاد من دمشق إلى القاهرة وأقام بها.. وجاءني بسبب أداء شهادات، وسألته عن مواضع في العربية مشكلة، فأجاب أبلغ إجابة بسكون كثير وتثبت تام[2]». هذا ممّا يدل على أن ابن الحاجب أدى شهادته أمامه وهو نائب القاضي قبل وفاته.

ذكر ابن خلكان أنه بدأ تصنيف كتابه «وفيات الأعيان» سنة ٦٥٤ هـ، إضافة إلى عمله بفصل القضايا الشرعية والأحكام الدينية، ثم ولي قضاء المحلّة. وفي سنة ٦٥٩ هـ رافق الملك الظاهر بيبرس إلى دمشق، فقلّده بيبرس القضاء بالبلاد الشامية بدل نجم الدين بـن سني الدولة، وكان إذ ذاك لم ينتـهِ بعد من تصنيف كتابه. ثم في يوم عرفة قرىء تقليده في الشباك الكمالي بجامـع دمشق وباشـر عمله.

(١) وفيات الأعيان، ٢: ٤٧٥.

(٢) وفيات الأعيان، ١: ٣٩٦.

وبعودته مع الملك الظاهر إلى دمشق يكون ابن خلكان قد رجع إليها بعد غياب طال ثلاثاً وعشرين سنة، تركها طالباً للعلم والاجتماع بالعلماء للدرس والتحصيل، ثم عاد إليها اليوم قاضياً للقضاة مقلداً في الشباك الكمالي.

وفي دمشق إضافة إلى توليه القضاء، فقد درس ابن خلكان في سبع مدارس هي: العادلية، الناصرية، العذراوية، الفلكية، الركنية، الإقبالية، والبهنسية، ثم تولى نظر الأوقاف والجامع الأموي وبيمارستان نور الدين، وكان في تدريسه حلو المحاضرة جيّد الفتاوى، وكان متفنّناً في المذهب الشافعي، واستمرّ في توليه القضاء بدمشق وسكن المدرسة العادلية، ثم تولّى التدريس في المدارس إلى سنة ٦٦٩ هـ. وفي هذه السنة ورد الصاحب بهاء الدين بن حنّا وزير الملك الظاهر إلى دمشق، وكان يخاف تولي ابن خلكان الوزارة، فعزله وولّى مكانه العزّ بن الصايغ بن طولون. وهكذا لم يطل المقام به في دمشق بعد عزله، فقد تركها متوجهاً إلى القاهرة بعد غياب عشر سنين كاملات، كما ذكر في الوفيات[1].

وفي مصر درّس في المدرسة الفخرية، ووجد فيها بعض الكتب التي تساعد على إتمام كتابه. ثم بقي سبع سنوات من غير عمل، بينما الوزير ابن حنّا يحول دون توليه القضاء عند الملك الظاهر. وكان أن توسّط بعض محبيه لدى الوزير فأعيد إلى تولي القضاء بدمشق في أواخر سنة ٦٧٩ هـ. وكان الملك الظاهر عندما توفي بدمشق سنة ٦٧٦ هـ. خلف ابنه الملك السعيد مكانه، ثم خُلع وتولّى أخوه الملك العادل، ثم خلع أيضاً في السنة نفسها وتولى قلاوون الملك. وكان بدمشق نائب السلطنة الأمير سنقر الأشقر، فلم يرض عن خلع الملك العادل، فاستدعى الأمراء والقضاة فبايعوه على السلطنة، وكان ابن خلكان ممّن بايعه. ولمّا كانت السنة ٦٧٩ هـ، أمر الملك الكامل (سنقر) بأن تضاف البلاد الحلبية إلى قضاء ابن خلكان، ثم تولّى تدريس المدرسة الأمينية مكان نجم الدين بن سني الدولة بعد أن عزله سنقر. لكن قلاوون سلطان مصر جيّش جيشاً واستطاع أن يطرد سنقر من دمشق، ثم اعتُقل ابن خلكان ثم عاد وأطلق وعزل وعُيّن نجم الدين بن سني في القضاء. ثم طلب إلى ابن خلكان أن يترك السكن في المدرسة العادلية ليسكنها

(١) وفيات الأعيان، ٢: ٥٥٧.

ابن سني الدولة، ثم جاء كتاب السلطان من مصر يحمل العفو عنه ويعيده إلى القضاء، ثم في نهاية السنة ورد من مصر كتاب بتقليد ابن خلكان قضاء البلاد الحلبية مرة أخرى. ثم كانت سنة ٦٨٠ هـ عندما قدم السلطان قلاوون لغزو التتر في حمص، فعزل ابن خلكان وأعاد ابن الصايغ إلى القضاء. وعندها انصرف ابن خلكان إلى التدريس في المدرسة الأمينية وحدها إلى أن توفي في المدرسة النجيبية في رجب سنة إحدى وثمانين، ودفن بسفح جبل قاسيون، وكان عمره ثلاثاً وسبعين سنة.

أمّا كتابه «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان مما ثبت بالنقل أو السماع أو أثبته العيان» فهو معجم مرتب على الحروف، ترجم لطائفة من الأقدمين والمعاصرين لابن خلكان، وكانوا قرابة ثمانمائة. وقد تميّز هذا المعجم بأن مؤلفه لم يذكر فيه إلّا من وقف على تاريخ وفاته. وكان دافعه إلى تصنيف هذا المعجم حبه الاطلاع على أخبار المتقدّمين من أولي النباهة وتواريخ وفياتهم وموالدهم.

وقد كانت المصادر التي رجع إليها ابن خلكان كثيرة وفيرة وأكثرها التي نسمع بها ولا نعرفها، من هنا كان لمعجمه قيمة علمية وتاريخية، لأن هذه المصادر التي استقى منها أضحت مفقودة اليوم، ونقله عنها جعل كتابه ذا شأن كبير من الناحية التوثيقية والتأريخية. وهو في كل ترجمة يختار العَلم المشهور، فيبين خصائصه، ثم يضبط الألفاظ التي ترد في الترجمة، للأعلام والنسب أو المكان، بحيث يريح الدارس من عناء الرجوع إلى المصادر. وهو يحاول في ترجمته أن يرسم صورة جلية شاملة للمترجم له، وقد جهد في أمر هذا التوضيح كثيراً فقرأ واطلع وبحث ودقّق وانتقى.

وقد كان ابن خلكان نهج في مصنّفه نهجاً واضحاً بيّناً، فهو لم يذكر من الصحابة والتابعين إلّا جماعة قليلة دعت الضرورة إلى ذكر ترجمتهم لمعرفة حالهم وأحوالهم. ثم هو لم يذكر أحداً من الخلفاء لعلمه بكثير المؤلفات التي تناولت حيواتهم وأخلاقهم. وهو يذكر أيضاً النخبة من المتقدمين الذين شهروا بين الناس ودرجت أسماؤهم بكثرة، فكان يأتي على ترجمة العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء والملوك والوزراء. وهو يترجم لجماعة من الذين عرفهم وشاهدهم ونقل عنهم، ثم الذين كانوا معاصرين ولم يشاهدهم أبداً.

ابن سعيد

٦١٠ - ٦٨٥ هـ

أبو الحسن علي بن سعيد بن موسى بن عبد الملك بن سعيد، ولد في الثاني والعشرين من شهر رمضان سنة عشر وستمائة هجرية في قلعة يحصب من أعمال غرناطة، وكانت هذه القلعة التي ظلت ردحاً من الزمن مقراً لإمارة بني سعيد وكانت تحمل أيضاً اسم قلعة بني سعيد. وكان عبد الملك جد عليّ مولعاً بالأدب والشعر، وكان فارساً ذاع صيته وعلت شهرته في أكثر من موقعة من المواقع الفاصلة التي دارت بين الموحدين والمرابطين. وقد ظل عبد الملك موالياً للمرابطين، في حين بقي موسى على طاعة الموحدين حتى ثار عليهم المتوكل بن هود ورفع لواء العباسيين فانضم إليه موسى فولاه أعمال الجزيرة الخضراء. وكان موسى رجلاً عالماً لا يكاد يفرغ من تصريف شؤون إمارته حتى ينطلق إلى مكتبة قصره التي كانت تزخر بالكتب القيمة فيعكف على الدرس والكتابة. وقد ذكر علي بن موسى شغف والده بالعلم وإيثاره الدرس قال: «ومما شاهدت من عجائبه أنه عاش ٦٧ سنة ولم أره يوماً يتخلى عن مطالعة كتاب أو كتابة ما يخلد له، حتى أن أيام الأعياد لا يخليها من ذلك. ولقد دخلت عليه في يوم عيد وهو في جهد عظيم من الكتب، فقلت له: يا سيدي أفي هذا اليوم لا تستريح؟ فنظر إليّ كالمغضب وقال: أظنك لا تفلح أبداً. أترى الراحة في غير هذا، والله لا أحسب راحة تبلغ مبلغها، ولوددت أن الله يضاعف عمري حتى أتم كتاب المغرب على غرضي[٢]».

---

(١) Alcala La Real، وكانت تسمى قديماً قلعة أسطلير «راجع نفح الطيب للمقري (ج ١ ص ٦٨١).

(٢) نفح الطيب للمقري ج ١ ص ٦٨٣.

كان موسى حريصاً على أن يتيح لعلي تربية وثقافة جيدة تتفق وعادات وتقاليد عائلته، وكانت إشبيلية في ذلك الوقت أفضل بقعة لتحقيق هذا الهدف. وهكذا أرسل علي بن سعيد إلى إشبيلية حيث قضى ردحاً من شبابه يتلقى العلم على رجال من أعلام الأدب واللغة مثل ابن علي الشلوبين والأعلم البطليوسي وابن عصفور وغيرهم.

وعندما رجع علي بن سعيد إلى غرناطة ضمّ جهوده إلى جهود والده واشترك الاثنان في إتمام كتاب «المغرب في حلى المغرب» والذي كان جده عبد الملك قد شرع في تأليفه. ويبدو أن موسى كان يثق بمقدرة ابنه وكفاءته وهو في هذه السن ثقة كبيرة، وذلك أنه إلى جانب إشراكه في هذا العمل الأدبي الكبير، فقد عيّنه خليفة له وسلم إليه مقاليد الإمارة.

في سنة ٦٣٨ هـ قرر والده السفر إلى المشرق لأداء فريضة الحج، وفي ربيع الأول من السنة التي تلت وصلا إلى الإسكندرية ولسبب لم تذكره كتب التاريخ، استقر الشيخ في الإسكندرية بينما واصل علي رحلته مزوداً بنصائح أبيه باتجاه القاهرة حيث أقام فيها. ولعل سمعة علي الشاعر الكاتب قد سبقته إلى القاهرة، فقد استقبل في الأوساط الأدبية والعلمية في الفسطاط بالحفاوة والترحيب، ولم يلبث أن أحاط به نخبة من الأصدقاء من خير من كانت مصر تعتز بهم من الشعراء الأدباء. وكان علي يتردد على منزل أبي المكارم(١) محمد بن عين الدولة قاضي قضاة القاهرة، واختلط بالفقيه القطب أبي بكر محمد بن أحمد القسطلاني(٢)، كما رافق الشاعر ناصر الدين الحسن بن شاور الذي روى له ابن سعيد في كتاب المغرب كثيراً من شعره الجيد، وناصر بن ناهض الحصري اللخمي(٣) وابن مطروح(٤) «والبهاء زهير(٥)» وجمال الدين أبا الحسين الجزار(٦).

(١) أديب كثير النوادر، عزل عن قضاء القاهرة قبل وفاته بشهر سنة ٦٣٩ هـ.
(٢) فقيه شافعي توفي سنة ٦٨٠ هـ.
(٣) من شعراء الفسطاط، توفي سنة ٦٥٢ هـ.
(٤) من شعراء مصر، توفي سنة ٦٥٤ هـ.
(٥) زهير بن محمد الأزدري المصري، توفي سنة ٦٥٦ هـ.
(٦) توفي سنة ٦٧٩ هـ.

وقد أمضى ابن سعيد الفترة الأولى من إقامته في الفسطاط بين زيارة المكتبات والمعالم الأثرية والتردد على مجالس العلماء والأدباء. وكان من الطبيعي أن يشعر ابن سعيد بالحنين إلى الوطن، ونلاحظ أن هذا الحنين كان يتحول إلى زفرات وحسرات في الشعر الذي أنشده في هذه الفترة.

بعد إقامة امتدت بضع سنوات في مصر عزم ابن سعيد على الرحيل فسافر إلى بغداد ووصل هذه العاصمة قبل أن تغزوها جحافل التتار. وفي بغداد أقام سنوات يتردد إلى مكتبات المدينة التي كانت تزيد على الثلاثين مكتبة، ثم رحل بعد ذلك باتجاه حلب برفقة المؤرخ ابن النديم. وعند وصول ابن سعيد إلى حلب توجه إلى قصر الناصر حاملاً معه قصيدة كان نظمها في مدحه جرياً على عادة الشعراء آنذاك، وعندما قدم إليه القصيدة طلب إليه الملك أن يقرأها بصوته الجميل، وكانت هذه المناسبة هي التي أطلق فيها الملك لقب «البلبل» على ابن سعيد. وفي قصر الملك الناصري عاش ابن سعيد سنوات حيث اختلط بشعراء الملك وعلماء حلب. ومن حلب توجه ابن سعيد إلى دمشق ومن ثم البصرة، حيث بلغ في تطوافه هذا إلى حدود مملكة فارس. وفي سنة ٦٥٢ هـ أدى علي فريضة الحج ثم عاد إلى المغرب والتحق ببلاط أبي عبدالله المستنصر حيث أقام نيفاً وعشر سنين. وكان بلاط المستنصر في ذلك الحين مليئاً بالشعراء والأدباء والعلماء الذين كانوا قد هاجروا من البقاع الأندلسية واستوطنوا العاصمة التونسية.

وفي أواخر أيامه بتونس ضاق ابن سعيد بالدسائس والمكائد التي كانت تنسج من حوله، وبلغ به الأمر أن منعه المستنصر الخروج من المملكة حين عزم على ذلك، وفي نهاية الأمر استطاع الخيّرون أن يتموا الصلح بينهما فانطلق ابن سعيد قاصداً مرة ثانية إلى المشرق سنة ٦٦٦ هـ. وفي هذه الرحلة الجديدة زار أرمينية وأقام مدة عند هولاكو.

بعد إقامته في أرمينية تنقطع الأخبار المتعلقة بسيرة حياة ابن سعيد وتنقلاته وذلك عبر فترة تمتد إلى ما يقرب من عشرين عاماً. ولم يأت المؤرخون إلّا على ذكر وفاته بعد هذه الفترة، مع أنهم اختلفوا في مكان الوفاة. فقد روى بعضهم أنه توفي في دمشق، وذهب البعض الآخر إلى أنه توفي بتونس. أما سنة وفاته فقد ذكر

ابن تغري بردي والكتبي أنه مات سنة ٦٧٣ هـ، بينما ذكر المقري في نفح الطيب وابن الخطيب والسيوطي أنه مات سنة ٦٨٥ هـ.

والجدير بالذكر أنه توجد في دار الكتب المصرية نسخة مصورة من كتاب «الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة» مصورة عن الأصل المكتوب بخط المؤلف، وفي آخرها أنها كتبت في سنة ٦٨٣ هـ.

ذكر المقري في نفح الطيب أن علي بن سعيد صنف أربعمائة مؤلف، ولكن أكثرها ضاع ولم يحفظ لنا من تراثه إلّا النزر اليسير من العناوين وقطع من بعض الأسفار وعدد من الكتب القليلة. وهذه الكتب هي:

- كتاب المغرب في حلى المغرب، ذكر علي بن سعيد في مقدمة هذا الكتاب أنه صنّفه بالوراثة في مائة وخمس عشرة سنة أبو محمد الحجازي وعبد الملك بن سعيد وأحمد بن عبد الملك ومحمد بن عبد الملك وموسى بن محمد ثم علي بن موسى الذي وضع صيغته النهائية سنة ٦٤٧ هـ.
- المرزمة.
- نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب. (يتعرض لتاريخ العرب في الجاهلية).
- عنوان المرقصات والمطربات (قطع من الشعر والنثر في أخبار المغرب).
- لذة الأحلام في تاريخ أمم الأعجام (تاريخ الأمم العجمية التي اعتنقت الإسلام).
- الطالع السعيد في تاريخ بني سعيد.
- الغرة الطالعة في شعراء المائة السابعة.
- القدح المعلى في التاريخ المحلى (تراجم لشعراء الأندلس في عصر ابن سعيد).
- النفحة المسكية في الرحلة المكية (رحلته إلى مكة لأداء فريضة الحج).
- كنوز المطالب في آل علي بن أبي طالب.
- كتاب ملوك الشعر.
- المقتطف من أزاهر الطرف.

- نتائج القرائح في مختار المراثي والمدائح.
- ريحانة الأدب في المحاضرة.
- الغراميات.
- عدة المستنجز وعقلة المستوفز (رحلته الثانية من تونس إلى المشرق ٦٦٦ هـ).
- كتاب المحل بالأشعار.
- حيا المحل وجني النحل.
- تاريخ مرتب على السنين.
- المعرب على سيرة ملوك أهل المغرب.
- الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة.
- رايات المبرزين وغايات المميزين.
- الملتقط من السلك من حلى العروس الأندلسية.
- ديوان شعر.
- كتاب الجغرافيا. (نقل عنه القلقشندي وأبو الفدا).

قال ابن سعيد في مقدمة كتابه[1]: الأرض كروية يحيط بها الماء. وهما واقفان بالمركز في قلب الأفلاك ودورها ثلاثمائة وستون درجة. وكل درجة ونصف مائة ميل. والميل أربعة آلاف ذراع. والمعمور منها طوله من الجزائر الخالدات التي بالبحر المحيط بالغرب إلى جزائر السيلي التي بالبحر المحيط بالمشرق مائة وثمانون درجة. والظاهر منها مضرس لاستقرار البحار وسلوك الأنهار. وعرض المعمور من أقصاه في الجنوب إلى أقصاه في الشمال ثمانون درجة. وما بعد ذلك في الجنوب لا يُسكن لقوة حرارة الشمس في الحضيض التي لها هناك. وما بعده في الشمال لا يسكن لقوة البرد. ومجموع المعمور مقسم إلى تسعة أقسام: المعمور خلف خط الاستواء إلى الجنوب والسبعة الأقاليم على التدريج من الخط. ثم يكون القسم التاسع المعمور ما بعدها إلى أقصى العمارة في الشمال.

---

(١) الجغرافيا ص ٧٩.

أبو الفداء

٦٧٢ - ٧٣٢ هـ

إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الإمام العالم السلطان الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء بن الأفضل ابن الملك الظافر ابن الملك المنصور، صاحب حماة. ولد بدمشق سنة ٦٧٢ هـ وبها نشأ، كان مؤرخاً جغرافياً، قرأ التاريخ والأدب وأصول الدين، واطلع على كتب كثيرة في الفلسفة والطب وعلم الشعر وأجاد الموشحات. رحل إلى مصر فاتصل بالملك الناصر فأحبه الناصر وأقامه سلطاناً مستقلاً في حماة ليس لأحد أن ينازعه السلطة، وأركبه بشعار الملك، فانصرف إلى حماة فقرّب العلماء ورتب لبعضهم المرتبات، ومشى الأمراء والناس في خدمته، حتى الأمير سيف الدين أرغون النائب، وقام له القاضي كريم الدين بكل ما يحتاج إليه في ذلك المهم من التشاريف والإنعامات على وجوه الدولة وغيره ولقبوه الملك الصالح ثم لقبوه بعد ذلك بالملك المؤيد.

كان أبو الفداء الملك المؤيد فاضلاً كريم الأخلاق له دراية تامة من فقه وطب وحكمة وغيرها، وأجود ما كان يعرفه علم الهيئة لأنه أتقنه، وإن كان قد شارك في سائر العلوم مشاركة جيدة. وكان محبّاً لأهل العلم، أوى إليه أمين الدين الأبهري وأقام عنده، فرتب له ما يكفيه، وكان قد رتب لجمال الدين محمد بن نُباتة كل سنة ستمائة درهم وهو مقيم بدمشق.

نظم الحاوي في الفقه، ولو لم يعرفه معرفة جيدة ما نظمه. وله تاريخ مليح، وكتاب «الكناش» في مجلدات كثيرة، وكتاب «تقويم البلدان» هذبه وجدوَلَه وأجاد

(١) ترجمة المستشرق الفرنسي رينو Reinaud.

فيه، وله كتاب «الموازين» جوّده وهو صغير. وقد ترجم تقويم البلدان إلى اللغة الفرنسية. وله أيضاً:

- تاريخ الدولة الخوارزمية.
- نوادر العلم. مجلدان.
- أما تاريخه «المختصر في أخبار البشر» ويعرف بتاريخ أبي الفداء، وقد ترجم أيضاً إلى الفرنسية واللاتينية، وقسم منه إلى اللغة الإنكليزية.

وكانت وفاته في دمشق سنة ٧٣٢ هـ وهو في الستين، وبعد وفاته وزّعت كتبه على أصحابه، وأوقف منها جملة.

ومن شعره الجيد:

اقرأ على طيب الحيا ... ةِ سلام صبٍّ مات حزنا
واعلم بذاك أحبّةً ... بخل الزمان بهم وضنّا
لو كان يُشرى قربهم ... بالمال والأرواح جدنا
متجرّعٌ كأسَ الفرا ... ق يبيتُ للأشجانِ رَهْنا
صبٌ قضى وجداً ولم ... يُقضى به ما قد تمنى

وله أيضاً:

كم من دم حللت وما ندمت ... تفعل ما تشتهي فلا عُدِمتْ
لو أمكن الشمس عند رؤيتها ... لثم مواطي أقدامها لثمتْ

ابن شاكر الكتبي

٦٨٦ - ٧٦٤ هـ

محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر، الملقب صلاح الدين[١]، الداراني الدمشقي، مؤرخ بحّاثة عارف بالأدب. ولد في داريا (من قرى دمشق) سنة ٦٨٦ هـ[٢]، ونشأ بدمشق وسمع من ابن الشحنة والمزي وغيرهما من علماء دمشق، على أنه حصّل أكثر ثقافته عن طريق الوراقة والتجارة بالكتب. وقد كان فقيراً جداً قبل أن يمتهن حرفة الاتجار بالكتب، فلما عمل في هذه التجارة ربح منها وتوفر على مال كثير. ولعل جودة خطه ووضوحه ما جعل الناس يقبلون عليه لشراء ما ينسخ من الكتب. وكان حسن معاملته الناس في التجارة سبباً لمزيد من الإقبال عليه، فقد عرف بمروءته وإفادته المشترين بما يعرف.

وقد كانت وفاة محمد بن شاكر سنة ٧٦٤ هـ على وجه اليقين، حيث يقول ابن الأثير، «وفي يوم السبت الحادي عشر من رمضان (من العام المذكور) صلينا بعد الظهر على الشيخ محمد بن شاكر الكتبي، وبعد شهر، وفي ١٠ شوال ٧٦٤ على التحديد، توفي معاصره الشيخ صلاح الدين الصفدي».

ذكر الكتبي في مقدمة فوات الوفيات قال: «وبعد، فإن علم التاريخ هو مرآة الزمان لمن تدبر، ومشكاة أنوار يطّلع بها على تجارب الأمم من أمعن النظر وتفكر، وكنت ممّن أكثر لكتبه المطالعة، واستحلى من فوائده المطالعة والمراجعة، فلما

(١) فخر الدين في كشف الظنون ت ١١٨٥.

(٢) انظر مقدمة فوات الوفيات ص ٣.

وقفت على كتاب «وفيات الأعيان» لقاضي القضاة ابن خلكان، قدس الله روحه، وجدته من أحسنها وضعاً لما اشتمل عليه من الفوائد الغزيرة، والمحاسن الكثيرة، غير أنه لم يذكر أحداً من الخلفاء، ورأيته قد أخلّ بتراجم بعض فضلاء زمانه، وجماعة ممّن تقدم على أوانه، ولم أعلم ذلك لذهول عنهم، أو لم يقع له ترجمة أحد منهم. فأحببت أن أجمع كتاباً يتضمن ذكر من لم يذكره من الأئمة الخلفاء، والسادة الفضلاء، أذيل فيه من حين وفاته إلى الآن، فاستخرت الله تعالى، فشرح لذلك صدري، وتوكلت عليه وفوّضت إليه أمري، ووسمته بـ «فوات الوفيات».

والظاهر أن الكتبي كان يصنف كتبه متكلاً على مصنفات معاصريه من المؤرخين، فقد ذكر حاجي خليفة في كشف الظنون في ترجمته: أنه في عيون التواريخ يتتبع في الغالب ابن كثير، لا سيما في الحوادث، وكثيراً ما ينقل منه صفحة فأكثر بحروفه.

مصنّفات محمد بن شاكر الكتبي:

- عيون التواريخ (ست مجلدات)، ذكره ابن كثير حين قال: «وجمع تاريخاً مفيداً نحواً من عشر مجلدات».
- روضة الأزهار في حديقة الأشعار.
- فوات الوفيات والذيل عليها (اشتمل على ٥٧٢ ترجمة).

ابن بطوطة

٧٠٤ - ٧٧٩ هـ

شمس الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتي، نسبة إلى لواتة إحدى قبائل البربر، المعروف بابن بطوطة، ولد في طنجة سنة ٧٠٤ هـ فقيل له الطنجي، ومكث فيها إلى أن بلغ الثانية والعشرين، ومن ثمّ اندفع بدافع الإيمان والتقوى - وكان رجلاً تقيّاً ورعاً - إلى أداء فريضة الحج سنة ٧٢٥ هـ، ومن هناك ساقته محبته الأسفار إلى حمل عصا الترحال إلى التجوال في أصقاع العالم المعروف في عصره، فطاف في سورية ومصر وجزيرة العرب وإفريقية الشرقية وآسية الصغرى وروسيا الجنوبية فالهند والصين ثم الأندلس والسودان.

قام ابن بطوطة بثلاث رحلات، وقد استغرقت في مجموعها نحو تسع وعشرين سنة، وكان أطولها الرحلة الأولى التي لم يترك في خلالها ناحية من نواحي المغرب والمشرق إلاّ زارها. وكانت أطول إقامة له في بلاد الهند حيث تولّى القضاء سنتين، ثم في الصين حيث تولّى القضاء سنة ونصف السنة، وفي هذه الفترة وصف كل ما شاهده وعاينه فيهما وذكر كل من عرفه من سلاطين وخواتين ورجال ونساء، ووصف ملابسهم وعاداتهم وأخلاقهم وضيافاتهم وترتيب مآكلهم ومشاربهم، وما حدث في أثناء إقامته من حوادث وحروب وغزو وفتك بالسلاطين والأمراء ورجال الدين. وكان ابن بطوطة في خلال إقامته هذه مندفعاً بعاطفته الدينية إلى لزوم المساجد والزوايا، فلم يدع زاوية إلاّ زارها ونزل ضيفاً عليها، ثم إنه قام بزيارة المكان الذي يقال إن فيه أثر قدم آدم في جبل سرنديب.

كان ابن بطوطة أول من ذكر في رحلته جماعة الهنود المعروفين بالجوكية السحرة، ووصف عاداتهم وتقاليدهم ومكاشفاتهم، وهو أول من أتى على ذكر

الأخيّة الفتيان وضيافاتهم، وذكر الإسماعيلية المعروفين بالفداوية وأورد وصف حصونهم وشراستهم. كما كان أول رحّالة تغلغل إلى مجاهل إفريقية ودوّن عنها معلومات قيمة كانت مجهولة. وبعد رحلاته تلك نزل في فاس المغرب وأقام في حاشية السلطان أبي عنان من أمراء بني مَرين، وفي أثناء إقامته كان يحدّث الناس بما رأى وسمع، فاستحسنوا أخباره وقصصه، فأمره السلطان أبو عنان بكتابة أخباره، ولمّا كان الهنود قد سرقوا منه في بعض جولاته في الهند كل ما كان قد دوّنه في مذكراته، فقد أملى ما تذكّره على كاتب السلطان محمد بن جزي الكلبي سنة ٧٥٦ هـ، وهذا ما يفسّر لنا ما يُرى في سياق رحلته من بعض هفوات جغرافية ومبالغات واستطرادات، وأطلق على مجموع أخباره اسم «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» وهو الذي يعرف برحلة ابن بطوطة.

توفي ابن بطوطة في مراكش سنة ٧٧٩ هـ، وقد أطلق عليه الغربيون (جمعية كمبردج) لقب أمير الرحالين المسلمين، وهناك أسرة في نابلس بفلسطين تسمى بيت بطبوط، وتعرف أيضاً ببيت المغربي وبيت كمال، يقال إنها من نسل ابن بطوطة الرحالة.

لم يكن ابن بطوطة في أثناء تدوين رحلاته عالماً لغوياً ولا منشئاً بديعاً، ولكنه كان رحّالة يطوف البلاد والأصقاع، وكان همه الاطلاع على كل عجيب غريب، ولعل ما جُبل عليه من عاطفة دينية وصدق نية جعله يصدق كل ما يُروى عليه من قصص من غير أن يسبر حقيقة القصة، خاصة في ما كان يتعلق منها بالكرامات، فكان يدوّنها تماماً كما أخبر بها، من مثل ما رُوي له عن لحية الشيخ جمال الدين، فسردها كما رُويت، وكذلك تدوينه أخبار النساء ذوات الثدي الواحد، وأخبار العفاريت التي كانت تضرب جزر ذيبة المهل، ونادراً ما كان الشك يدفعه إلى عدم تصديق ما يروى عليه فنجده أحياناً يقول: «يزعمون» أو «هذا في زعمهم» ابتعاداً عن إلصاق التبعة به.

ورغم ما أتى به في رحلاته من عجيب الخلق وغريب العادات، فإن قصص رحلاته كانت من أطرف القصص وأجزلها نفعاً من حيث تسجيل عادات الأقوام وتقاليدهم ولباسهم ومآكلهم ومشاربهم، كما أن هذه الرحلة الطويلة امتازت بفوائد

تاريخية وجغرافية عميمة لما ذكره فيها من وصف البلاد وجوّها وتربتها وجبالها وبحارها، ومن ضبط دقيق لأسماء الرجال والنساء والأماكن والمدن والزوايا وغيرها. وقد اهتم ابن جزي الكلبي بهذه الرحلة اهتماماً شديداً، فقسم الرحلة وجعلها في قسمين أفرد لكل قسم كتاباً خاصّاً به، وقد وقف الأول منهما عند وصول ابن بطوطة إلى نهر السند، ثم أنهى بنهاية الرحلة الثالثة كتابه الثاني. والجدير بالذكر أن المستشرقين في فرنسا وإنكلترا وألمانيا والبرتغال اهتموا بهذه الرحلة اهتماماً عظيماً فترجموها إلى لغاتهم، أو ترجموا أقساماً منها، وكان ابن بطوطة في ترجماتهم يدعى Prince of moslems Travellers.

وقد اختصر محمد بن فتح الله البيلوني كتاب ابن جزي عن هذه الرحلة في جزء صغير.

ابن خلدون

٧٣٢ ـ ٨٠٨ هـ

عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحيم، أبو زيد ولي الدين بن خلدون، اكتسب كنيته من اسم ابنه الأكبر حسب ما جرت عليه عادة العرب في الكنية، واشتهر بابن خلدون نسبة إلى أول من دخل الأندلس من أجداده، وهو خالد بن عثمان الذي عرف باسم خلدون وفقاً للطريقة التي جرى عليها أهل الأندلس إذ كانوا يضيفون إلى أسماء الأعلام واواً ونوناً للدلالة على تعظيمهم لأصحابها. وكثيراً ما كان يضاف إلى اسم ابن خلدون صفة الحضرمي لأن أسرته ترجع إلى أصل يماني حضرمي، ويتصل نسبها بالصحابي وائل بن حجر، وقد نشأ بنو خلدون في قرمونة بالأندلس، وهي التي استقر بها جدهم خالد بن عثمان، ثم نزحوا بعد ذلك إلى إشبيلية، ثم هاجروا إلى المغربين الأدنى والأوسط، واستقر معظمهم في تونس.

وفي تونس ولد عبد الرحمن بن خلدون في غرة رمضان سنة ٧٣٢ هـ، ولما بلغ سن التعلّم بدأ حفظ القرآن الكريم وتجويده وطلب العلم وتحصيله. وكان أول شيوخه أبوه وعدد كبير من مشاهير علماء تونس في ذلك العهد، وعليهم درس العلوم الشرعية والعربية والطبيعية والرياضية وعلوم المنطق والفلسفة. وكان في نيته أن يتفرغ للعلم كما فعل أبوه قبله. ولكنه عندما بلغ الثامنة عشرة عاقه عن الدرس والتحصيل عائقان اثنان، أولهما وفاة أبيه وجلّ من كان يأخذ العلم عنهم من شيوخ تونس بسبب الطاعون الجارف الذي اجتاح الأرض في منتصف القرن الثامن الهجري، وثانيهما هجرة معظم من أفلت من هذا الوباء من العلماء إلى المغرب

الأقصى. ولأجل ذلك تغيرت الخطة التي كان رسمها عبد الرحمن، واتجه إلى تولي الوظائف العامة في وطنه. وكان من الطبيعي أن يخوض في بحر السياسة كما خاض الكثير من أفراد أسرته.

وقد استأثرت الوظائف الحكومية والسياسية بأكبر قسط من وقته ونشاطه في خلال فترة طويلة من عمره استغرقت زهاء خمس وعشرين سنة، أي من سنة ٧٥١ إلى سنة ٧٧٦ هـ، ولكن هذه الانغماسات السياسية لم تكن الهدف الذي صبا إليه، ولم تكن ممثلة لاستعداده الحقيقي الذي خطط له من قبل، ولأجل هذا كان يتحين الفرص المناسبة ليعاود ما بدأه من المداومة على الدرس والتحصيل والقراءة والاطلاع.

وكانت أول وظيفة تولاها سنة ٧٥١ هـ وظيفة «كتابة العلامة» للوزير محمد بن تافراكين. ولما زالت دولة ابن تافراكين سنة ٧٥٣ هـ، ترك ابن خلدون تونس ورحل مطوّفاً في البلاد إلى أن حط عصا الترحال في بسكرة بالجزائر حيث قضى شتاء ذاك العام. ويبدو أنه تزوج في خلال هذه الفترة، أي سنة ٧٥٤ هـ، ثم رحل هو وأهله إلى قسنطينة. وفي سنة ٧٥٥ هـ هاجر إلى فاس بصحبة السلطان أبي عنان سلطان المغرب الأقصى، تاركاً أهله في قسنطينة، وتولى لدى السلطان وظيفة التوقيع والكتابة، وكان لا يتولاها إلّا كبار الكتاب النابغين. وهذا دليل على المكانة التي بلغها ابن خلدون في ذلك الوقت ولمّا يبلغ الثانية والعشرين من عمره، وهذا أيضاً يشير إلى أن شهرته في هذه النواحي أخذت تنتشر وتسمو.

قضى ابن خلدون في وظيفته للسلطان نحو سنتين، ثم سجنه على أثر مؤامرة اشترك فيها ضد السلطان سنتين (٧٥٨ ـ ٧٦٠) ثم عاد إلى الوظيفة وقضى فيها نحو أربع سنوات. وقد ضم إليه السلطان وظيفة ثانية هي وظيفة المظالم، وهي وظيفة تحتاج إلى علو ورهبة.

وقد أتيح لابن خلدون وهو بفاس أن يعاود الدرس والقراءة على العلماء الذين كانوا قد نزحوا من الأندلس وغيرها من بلاد المغرب، كما كان يختلف إلى مكتبات فاس وكانت غنية آنذاك بالكتب الإسلامية، فارتقت لذلك معارفه واتسع اطلاعه وتحققت رغبته ومطامحه الأصيلة. وفي هذه الفترة أيضاً انسابت شاعريته

فنظم الكثير من الشعر، ثم إنه ألّف معظم ما أثر عنه من مؤلفات صغيرة غير مصنّفيه العظيمين المقدمة وكتاب العبر.

وما إن أطلت سنة ٧٦٤ هـ حتى رحل ابن خلدون إلى الأندلس والتحق بحاشية السلطان محمد بن يوسف بن إسماعيل بن الأحمر النصري، فنظمه في أهل مجلسه وقربه إليه، واختصه في العام التالي بالسفارة بينه وبين ملك قشتالة بطرس القاسي، فقام بالسفارة على خير وجه وكافأه السلطان بأن أقطعه إقطاعاً كبيراً من الأرض فزاد رزقه واتسعت أحواله. ثم تكدر صفو العلاقة فغادر الأندلس مع أسرته منتصف سنة ٧٦٦ هـ إلى بجاية بالجزائر حيث تولى منصب الحجابة وهو أعلى منصب سياسي في البلاد، ثم جعله السلطان خطيباً في جامع القصبة وظل ابن خلدون مواظباً على تدريس العلم بجامع القصبة بالإضافة إلى عمله السياسي. ولما سقطت دولة أبي عبدالله وزال ملكه سنة ٧٦٧ هـ أقر خليفته أبو العباس ابن خلدون في منصبه ثم أقاله في السنة نفسها وقضى ابن خلدون بعد إقالته سبع سنين هو وعائلته في بسكرة بعيداً عن الشؤون السياسية عاكفاً على تدبير مؤامرات سياسية ضد أبي العباس. وفي أوائل سنة ٧٧٤ هـ هاجر مع عائلته إلى تلمسان، ثم إلى فاس في منتصف السنة نفسها حيث أقام بها معززاً مكرماً عاكفاً على قراءة العلم والتدريس. وفي سنة ٧٧٦ هـ نشبت فتنة سياسية في المغرب انتهت بخلع السلطان السعيد وتنحية الوزير ابن غازي المستبد بالحكم واستيلاء السلطان أبي العباس أحمد على فاس. وقد وشى البعض بابن خلدون فاعتقل حيناً ثم أفرج عنه، فرحل عبر المغرب الأقصى إلى الأندلس سنة ٧٧٦ هـ تاركاً أسرته في فاس، ودخل غرناطة، ولمّا لم يسمح له سلطان فاس بطلب أهله غادرها عائداً إلى المغرب.

نزل ابن خلدون في ضيافة سلطان تلمسان أبي حمو ولحقت به أسرته إلى هناك، وفيها عزم على التأليف والقراءة. ثم غادر تلمسان في أواخر سنة ٧٧٦ هـ إلى قلعة بني سلامة في الجزائر ولحق به أهله حيث نزلوا ضيوفاً على أولاد عريف، وقضوا هناك نحو أربع سنين حتى سنة ٧٨٠ هـ. وفي هذا المكان البعيد الهادىء المنعزل انصرف ابن خلدون إلى تصنيف كتابه الكبير الموسوم بـ«كتاب

العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، مقدماً لهذا المصنّف ببحث هام في شؤون الاجتماع الإنساني وقوانينه وهو البحث الذي شُهر باسم مقدمة ابن خلدون. وكان الشروع في تأليفه سنة ٧٧٦ هـ وانتهى منه في حلته الأولى سنة ٧٨٠ هـ. ثم رأى ابن خلدون أن تنقيح كتابه وتكملته يقتضيان الرجوع إلى الكتب والمصادر الموفية الوافية، فشخص هو وأسرته إلى تونس، وأكب هناك أربع سنوات أخرى عاكفاً على البحث والتدريس لطلبة العلم حتى أتم مصنّفه ونقحه وهذبه ورفع نسخة منه في أوائل سنة ٧٨٤ هـ إلى سلطان تونس أبي العباس أحمد.

وفي سنة ٧٨٤ هـ استأذن ابن خلدون السلطان في الحج، هرباً من الخوض في السياسة التي عزم من قبل على ترك أمورها، فأذن له، فترك أهله تونس وأبحر إلى الإسكندرية فوصل إليها يوم عيد الفطر سنة ٧٨٤ هـ، ثم قصد القاهرة فوجد من أولياء أمورها وعلمائها أحسن ترحيب، والتف حوله الطلاب ينهلون من علمه. وأخذ يلقي دروسه في الجامع الأزهر. وعظمت منزلته فعينه الظاهر برقوق سنة ٧٨٦ في منصب تدريس الفقه المالكي بمدرسة القمحية، ثم ولاه منصب قاضي قضاة المالكية وكان من أرقى المناصب القضائية والعلمية في مصر آنذاك. ولم يغادر ابن خلدون مصرِ في خلال إقامته التي امتدت نحو أربع وعشرين سنة إلّا ثلاث مرات، أولاها سنة ٧٨٩ هـ لأداء فريضة الحج، وثانيها سنة ٨٠٢ هـ لزيارة بيت المقدس، وثالثها أوائل سنة ٨٠٣ هـ وكانت برفقة السلطان الناصر فرج وكان خرج للقاء تيمورلنك في الشام. وبعد عودة الناصر فرج إلى مصر وتركه دمشق بين يدي تيمورلنك لمصيرها، أتيح لابن خلدون أن يتصل بتيمورلنك وأن يصبح من جلسائه. ثم استأذن بالعودة إلى مصر فأذن له. وفي مصر حيث نقح كتبه وأتمها توفي ابن خلدون فجأة في السادس والعشرين من رمضان سنة ٨٠٨ هـ عن ستة وسبعين عاماً وكان حينئذٍ قاضي قضاة المالكية فيها. ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر.

له من المصنفات بالإضافة إلى المقدمة وكتاب العبر:

- شرح البردة.

ـ لباب المحصل في أصول الدين، وهو تلخيص لكتاب ألفه الفخر الرازي في علم التوحيد.

ـ كتاب في الحساب.

ـ رسالة في المنطق.

قسّم ابن خلدون كتابه العبـر إلى قسمين، درس في القسم الأول أخبـار العرب وأجيالهم ودولهم منذ بدء الخليقة إلى هذا العهد، وفيه الإلماع ببعض من عاصرهم مثل النبط والفرس والسريانيين وبني إسـرائيل والقبط واليـونان والـروم والفرنجة، ودرس في القسم الثاني تاريخ البربر ومن إليهم من زناتة وذكر أوليتهم وأجيالهم وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول.

وقد أجرى ابن خلدون في القسم الأول من مؤلفه تحقيقات علمية هامة على تراث أسلافه من المؤرخين الذين كتبوا في تاريخ العرب والإسلام، ويعد القسم الثاني الخاص بتاريخ البربر أقوى الأقسام وأكثرها تحقيقاً وتجديداً وطرافة معاً، وأكبرها فضلاً على بحوث التاريخ، ذلك أن معظم ما جاء في هذا القسم لم ينقل عن مراجع مدونة عن البربر، وإنما سجّله ابن خلدون لأول مرة بعد مشاهـداته واتصاله بمختلف قبائل البربر وتنقله في معظم بلاد المغرب.

المقريزي

٧٦٦ - ٨٤٥ هـ

أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد بن أبي الحسن بـن عبد الصمد بن تميم، التقي أبو العباس الحسيني العبيدي البعلي الأصل القاهري، ويعرف بابن المقريزي وهي نسبة إلى حارة في بعلبك تعرف بحارة المقارزة. ولد في القاهرة سنة ٧٦٦ هـ، وبها نشأ نشأة حسنة فحفظ القـرآن وسمـع من جمـاعـة من الشيـوخ كـالآمـدي والبلقيني والعـراقي والهيثمي، وحج فسمع بمكة من علمائها، وسمع في الشام من جماعة، واشتغل كثيراً، وطاف على الشيوخ ولقي الكبار وجالس الأئمة، وتفقه حنفياً على مذهب جده لأمه ثم تحول شافعياً. ثم نظر في عدة فنون وشارك في الفضائل، وقال النظم والنثر، وناب في الحكم وكتب التوقيع، وولي الحسبة بالقاهرة غير مرّة، والخطابة بجامع عمرو، والإمامة بجامع الحاكم، وقراءة الحديث بالمؤيدة، وكان محمود السيرة في مباشراته كلها. وكان قد اتصل بالظاهر برقوق، ودخل دمشق مع ولده الناصر وعرض عليه قضاءها مراراً فأبى. وصحب بشيك الدوادار زمناً ونـال من عطاياه. ثم حج غير مرة وجاور، ودخل دمشق مراراً وتولى بها التدريس ثم أعرض عن جميع ذلك، وأقام ببلده عاكفاً على الاشتغال بالتاريخ حتى اشتهر به ذكره وبعد فيه صيته وصارت له فيه جملة تصانيف.

كان المقريزي متبحراً في التاريخ على اختلاف أنواعه، ومؤلفاته تشهد له بذلك وإن جحده حقه السخاوي صاحب الضوء اللامع، فذلك دأبه في غـالب أعيان معاصريه، وكان حسن الخبرة بالزايرجة والأسطرلاب والرمل والميقات. قال ابن حجر في ترجمته: له النظم الفائق والنثر الرائق والتصانيف البـاهرة خصوصاً في تاريخ القاهرة، فإنه أحيا معالمها وأوضح مجاهلها وجدّد مآثرها وترجم أعيانها.

كانت وفاته في عصر يوم الخميس سادس عشر رمضان سنة ٨٤٥ هـ بالقاهرة.

من تصانيفه:

- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ويعرف بخطط المقريزي، زعم السخاوي أن المقريزي ظفر بمسودة للأوحدي في خطط القاهرة فأخذها وزارد فيها زوائد غير طائلة.
- السلوك في معرفة دول الملوك.
- تاريخ الأقباط.
- البيان والإعراب عما في أرض مصر من الأعراب.
- التنازع والتخاصم في ما بين بني أمية وبني هاشم.
- تاريخ الحبش.
- شذور العقود في ذكر النقود.
- تجريد التوحيد المفيد.
- نحل عبر النحل.
- إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع (تسعة مجلدات).
- منتخب التذكرة، في التاريخ.
- اتعاظ الحنفاء في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء.
- الخبر عن البشر، (وهو تاريخ عام كبير).
- عقد جواهر الأسفاط في ملوك مصر والفسطاط.
- درر العقود الفريدة (في تراجم معاصريه).
- الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام.
- الطرفة الغريبة في أخبار حضرموت العجيبة.
- شارع النجاة، في أصول الديانات واختلاف البشر فيها.
- معرفة ما يجب لأهل البيت النبوي على من عداهم.
- التاريخ الكبير، وهو في ستة عشر مجلداً.

وقد وجد بخطه أن تصانيفه زادت على مائتي مجلد، وأن كبار شيوخه بلغوا ستمائة نفس.

ابن عَرَبْشاه

٧٩١ - ٨٥٤ هـ

أحمد بن محمد بن عبدالله بن إبراهيم بن أبي نصر محمد بن عربشاه، أبو محمد شهاب الدين، الدمشقي الأصل الرومي الحنفي، ويعرف بالعجمي وبابن عربشاه وهو الغالب. ولد في ليلة الجمعة منتصف ذي القعدة سنة ٧٩١ هـ بدمشق، ونشأ بها فقرأ القرآن على الزين عمر بن اللبان المقرىء، ثم تحول في سنة ٨٠٣ هـ في زمن الفتنة مع أخوته وأمهم وابن أخته عبد الرحمن بن إبراهيم بن حولان إلى سمرقند، ثم رحل بمفرده إلى بلاد الخطا وأقام ببلاد ما وراء النهر للاشتغال والأخذ عن من هناك من العلماء، فكان منهم السيد محمد الجرجاني وابن الجزري وعصام الدين ابن العلامة عبد الملك وغيرهم. وفي سمرقند لقي الشيخ العريان الأدهمي الذي استفيض هنالك أنه ابن ثلاثمائة وخمسين سنة. وبرع في الفنون ثم توجه إلى خوارزم فأخذ عن نور الله وأحمد بن شمس الأئمة. ثم رحل إلى بلاد الدشت، ثم قطع بحر الروم إلى مملكة ابن عثمان فأقام بها نحو عشر سنين وترجم فيها للملك غياث الدين أبي الفتح محمد بن يزيد مراد بن عثمان كتاب «جامع الحكايات ولامع الروايات» من الفارسي إلى التركي في نحو ست مجلدات وتفسير أبي الليث السمرقندي القادري بالتركي نظماً، وباشر عنده ديوان الإنشاء، وكتب عنه إلى ملوك الأطراف عربياً وشامياً وتركياً ومغولياً وعجمياً. ثم قرأ المفتاح على البرهان الحوافي وأخذ عنه العربية أيضاً. ولما مات ابن عثمان رجع إلى وطنه فدخل حلب فأقام بها ثلاث سنين ثم الشام وكان دخوله إليها سنة ٨٢٥ هـ، فجلس بحانوت مسجد القصب وقرأ بها على القاضي شهاب الدين الحنبلي صحيح مسلم في سنة ٨٣٠ هـ، فلما قدم العلاء البخاري سنة ٨٣٢ هـ

مع الركب الشامي من الحجاز انقطع إليه ولازمه في الفقه والأصول والمعاني والبيان والتصوّف وغيرها إلى أن توفي. وتقدم في غالب العلوم وأنشأ النظم والنثر.

ورحل في أواخر أيامه إلى مصر فأقام في الخانقاه الصلاحية، ثم جرت له محنة من الظاهر جقمق شكا إليه حميد الدين فأدخله سجن أهل الجرائم فدام فيه خمسة أيام ثم أخرج واستمر مريضاً من القهر حتى مات بعد اثني عشر يوماً، وكانت وفاته يوم الاثنين منتصف شهر رجب سنة ٨٥٤ هـ.

مصنفاته:

- كتاب عجائب المقدور في نوائب تيمور (تاريخ تيمور).
- فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء.
- منتهى الأرب في لغة الترك والعجم والعرب.
- التأليف الطاهر في سيرة الملك الظاهر.
- العقد الفريد في التوحيد.
- غرة السير في دول الترك والتتر.

الإسلام والفلسفة

بعد أن ترجمت كتب الفلسفة اليونانية إلى العربية في عهد هارون الرشيد والمأمون، عكف الكثير من المسلمين على دراسة الكتب التي ترجمت إلى لغتهم، وعملوا على تفسيرها والتعليق عليها وإصلاح أغلاطها. وقد انتقلت الثقافة اليونانية إلى المشرق من طريق الكنائس المسيحية التي تأثرت بهذه الثقافة، وخاصة الكنيسة النسطورية التي انتشرت آراؤها في بلاد المشرق عامة وفي فارس خصوصاً، وآراء الكنيسة اليعقوبية والملكانية التي انتشرت في سورية. كما كان لمدارس الرها أثر كبير في نشر الثقافة اليونانية وفي مدارس نصيبين، حيث كانت تدرس العقائد النسطورية والثقافة اليونانية التي نالت تشجيع آل ساسان من ملوك الفرس. ولا تقل مدارس حران في بلاد الجزيرة عن مدارس الرها ونصيبين، إذ كانت تدرس فيها الآراء الفلسفية اليونانية والأفلاطونية الحديثة. وكان الحرانيون ـ الصابئة ـ وهي التسمية التي أطلقت عليهم في القرنين التاسع والعاشر (الثالث والرابع الهجريين) ينسبون حكمتهم الصوفية إلى هرمس المثلث الحكمة وأغاثاذيمون وأورانيوس وغيرهم.

وقد نشط قليل منهم في الترجمة والتأليف الذي يدل على سعة العلم، وكان لكثير منهم اتصال علمي وثيق بعلماء الفرس والعرب. وقد أسس كسرى أنوشروان (٣٥١ ـ ٣٧٩م) في مدينة جنديسابور معهداً تدرس فيه الفلسفة والطب وغيرهما من العلوم، وكان معظم أساتذته من المسيحيين النسطوريين، وكان لتسامح هذا الملك وشغفه بالثقافة العقلية أثر كبير في جذب العلماء، لا من النسطوريين وحدهم بل من اليعقوبيين والسريانيين، الذين ذاعت شهرتهم في الطب، سواء في عهد الساسانيين أو الخلفاء الراشدين، ويدل على هذا التسامح ما لقيه الفلاسفة

الوثنيون من أنصار المذهب الأفلاطوني الحديث من وسائل التشجيع.

ولهذا نجد أن الفلسفة عند العرب المسلمين هي معرفة الأسباب الحقيقة للأشياء بمقدار ما يمكن الوصول إليه عن طريق العقل، وليست فلسفتهم في الجوهر - في الحقيقة - إلّا فلسفة اليونان متأثرة بنظريات الشعوب التي غلبوها وببعض المؤثرات الشرقية. وقد وضعت هذه الفلسفة بصورة توافق العقلية الإسلامية، واتخذت اللغة العربية أداة للتعبير عنها. فقد ظنّ العرب المسلمون أن مؤلفات أرسطو دونت جميع التراث الإغريقي الفلسفي كما دونت مؤلفات جالينوس تراثهم الطبي. واعتبر المسلمون أن كل ما يملكه الغرب من تراث انحصر في الفلسفة الإغريقية والطب الإغريقي، واعتقدوا في الوقت نفسه أن القرآن الكريم وعلم الإلٰهيات الإسلامي يمثلان خلاصة الشرع والاختبار الديني. ومن هنا كان الميدان الذي ظهرت فيه مآثرهم وابتكارتهم ناحية متوسطة بين الفلسفة وعلوم الدين وبين الفلسفة والطب. وعلى مر الوقت أخذ مؤلفو ومؤرخو العرب يطلقون لفظ «الفلاسفة» أو «الحكماء» على أرباب الفلسفة بينهم، الذين لم تتقيد آراؤهم بقيود الدين وقصروا لفظة «متكلمين» أو «أهل الكلام» على أولئك الذين أخضعوا طرقهم التفكيرية لنظم الدين المنزل، ويقابل «أهل الكلام» في الإسلام «الكتاب المدرسيين» في أوروبا المسيحية، وقد أبرزوا نظرياتهم بموجب علم الكلام فسموا بهذا الاسم. وما لبث الكلام أن أدى إلى معنى علم الإلٰهيات، وأصبحت لفظة «المتكلم» تعني «العالم بالإلٰهيات». فالغزالي بالمعنى الحقيقي متكلم، أما أقطاب الفلسفة العربية الأول فهم الكندي والفارابي وابن سينا. إن عملية التوفيق بين الفلسفة الإغريقية والإسلام التي بدأها الكندي تابعها الفارابي وأكملها ابن سينا في المشرق.

لقد كانت الفلسفة كما هذّبها الإغريق وديانة التوحيد كما أنشأها العبريون اثمن تراث خلده الغرب والشرق القديمان، وكان من المفاخر الخالدة لمفكري الإسلام في بغداد والأندلس في العصور الوسطى أن وفقوا بين هذين المجريين الفكريين، وقرّبوا وآلفوا بين أجزائهما ثم أوصلوهما إلى أوروبا. وإن هذه المأثرة لتعتبر في المقام الأول من الأهمية والعظمة إذا ذكرنا أثرها في الفكر العلمي والفلسفي طيلة العصور التي تلت.

عباقرة الفلسفة

السجستاني

٢٧١ - ٣٣١ هـ

أبو يعقوب إسحاق بن أحمد السجزي أو السجستاني الملقب بدندان. ولد سنة ٢٧١ هـ في سجستان، وهي مقاطعة في جنوبي خراسان، يتصل بنسبه إلى أسرة فارسية عريقة هي أسرة بطل الفرس رستم، وقيل إنه من أصل عربي وفد جده من الكوفة وسكن في سجستان.

نشأ أبو يعقوب إسحاق وترعرع في مدارس الدعوة الإسماعيلية في اليمن، ثم التحق بالخدمة الفعلية بعد تخرجه، حيث أظهر نبوغاً عجيباً جعله يصبح في فترة قصيرة من كبار مفكري المذهب الذين ساهموا في النهوض بفلسفة الإسماعيلية، واستطاع أن يرفع راية الدعوة عالياً، وقد أسهم مساهمة فاعلة في المناظرات والمحاورات العلمية التي جرت آنذاك.

أثبتت المناظرات والمدافعات أن أبا يعقوب اتخذ من الفلسفة سلاحاً شهره في وجه خصوم المذهب الإسماعيلي، كما أنه عمل على رقي وإنهاض العقل الإسلامي في ذلك العصر. ويستدل من الوثائق الإسماعيلية السرية على أن السجستاني كان عميد مدارس الدعوة الفكرية في فارس[١] وقد ظهر أثره واضحاً في تلاميذه، خاصة الفيلسوف أحمد حميد الدين الكرماني الذي نهج نهجه وسار على منواله داعياً إلى تعاليمه. وإذا عرفنا أن شيخ فلاسفة الإسماعيلية قد تلقى دروسه الفلسفية على السجستاني تمكنّا من معرفة المركز الفلسفي الطليعي الذي كان يحتله السجستاني بين الفلاسفة العظام المعروفين[٢].

(١) انظر كتاب الينابيع للسجستاني، ت مصطفى غالب، ص ٤٦.

(٢) المصدر نفسه ص ٤٧.

ولأبي يعقوب مؤلفات جمّة لعبت دوراً كبيراً في النهضة العقلية الإسلامية بوجه عام وفي النهضة الإسماعيلية بوجه خاص. ومن أهم مؤلفاته كتاب «إثبات النبوة». وقد قسمه مصنفه إلى سبع مقالات، كل مقالة تشبه الباب، والمقالة تنقسم بدورها إلى اثني عشر فصلاً. وقد تناول السجستاني في كتابه هذا إثبات النبوة من جميع النواحي الروحية والطبيعية، وتعرض بالذكر للأمور التي اتفق عليها الرسل والتي يختلفون فيها. وأهم ما فيه ما ذكره عن أدوار الرسل، والأدلة على إثبات نبوة الرسول محمد (ﷺ). كذلك تعرض لما أسماه عجائب القرآن والشريعة.

ثم كتابه الثاني «الموازين» والذي قسمه إلى تسعة عشر ميزاناً، تكلم في كل ميزان منها عن أمور تمت لأصول المذهب الإسماعيلي بصلات وثيقة، فتناول في أحد موازينه «معرفة الحقيقة» وفي آخر وجوب معرفة «المبدع» وفي ميزان غيره «العقل» ومعرفة أسمائه، كما قصر أحد الموازين على الفروع الثلاثة المتفرعة عن الأصلين، ومن أهم موازينه ما عقده على النطقاء، والأسس، والأئمة، والحجج، والدعاة، وغيرها من المواضيع.

وله من المؤلفات أيضاً.

- كتاب النصرة.
- كتاب الافتخار.
- كتاب الوعظ.
- كتاب المقاليد.
- كتاب أسس البقاء.
- كتاب سلم النجاة.
- كتاب خزانة الأدلة.
- كتاب سرائر المعاد والمعاش.
- كتاب تآلف الأرواح.
- كتاب كشف المحجوب.
- كتاب تأويل الشريعة.

- كتاب الينابيع، والذي تتجلى فيه شخصية السجستاني العلمية الفلسفية المبدعة، التي أتحفت المكتبة الإسلامية بأعمق النظريات وأمتن الآراء التي تفيض بها ينابيعه الدافقة الرائقة. وقد بذّ فيه كل من خاض غمار الفلسفة من الذين وصلوا في علومهم الفلسفية إلى أعلى المراتب. وقد قسم أبو يعقوب كتابه هذا إلى أربعين ينبوعاً، افتتح الينابيع بالحمد والتقديس، ومن ثم ذكر في مقدمته بأنه توخى في الينابيع أن لا يأتي على معالجة الأبحاث والمواضيع التي عالجها من

سبقه من السلف، بل سيكتب في الآراء التي لم يتطرقوا إليها في أبحاثهم، فنسمعه يقول[1] ، «أما بعد، فإن الأولى بالمرء العاقل اللبيب أن لا يستعمل خاطره باستخراج أشياء جرى ذكرها من السلف في الكتب التي ألفوها، فإن فيما دونوه من الكتب من الأغذية الروحانية كفاية وغنية عن إعادة القول فيها، لا سيما والذي أعطاه السلف ـ رحمهم الله تعالى ـ ورفع بالخيرات ذكرهم من الأذهان الصافية الرضية والنفوس الزكية على حسب نياتهم الصادقة وضمائرهم الفاضلة، أكثر من أن يلطخ بضمائرنا زيادة على ما أتوا به وأسسوه، بل الذي سهل لنا من استخراج شيء، فبفضل بركاتهم وصدق نياتهم.

وقد توخيت في هذا الكتاب الموسوم بـ «الينابيع» أن لا أشتغل بشيء جرى ذكره من السلف في الكتب، بل بما بقي ديناً عليهم من الإيضاح والإرشاد لهذا الخلق، رجاء أن يرزقنا الله جل جلاله، وعزّ عزه. . . وقد قسمنا الكتاب. . . إلى أربعين ينبوعاً، كل ينبوع منها في فن من الفنون، وتحرينا الإيجاز والاختصار في القول، ولا يصلح إلا لمن دامت رياضته للمقدمات البرهانية، وصفت نيته لقول الأشياء النورانية، وجانب نفسه من الشهوات الحسية الردية، وسعى سعي الآخرة، فأولئك كان سعيهم مشكوراً».

ولا شك أن هذا الأثر الضخم مع غيره من مصنفات السجستاني قد شغل المفكرين في عصره وبعد عصره فترة طويلة من الزمن، وخاصة في الوقت الذي كان فيه الدعاة والفلاسفة مختلفين حول تفسير بعض النظريات الفلسفية المتعلقة بأصول المذهب.

لقد حاول السجستاني أن يوفق في تآليفه بين المسائل الفلسفية والدين الإسلامي، وعمل على إنارة الطريق والكشف عن كنه الموجودات والوجود والصنعة الإلّهية والنبوية.

وكانت وفاته بعد معاناة واضطهاد شديدين في تركستان سنة ٣٣١ هـ.

(١) الينابيع، تحقيق مصطفى غالب ص ٥٨.

إخوان الصفا

القرن الرابع الهجري

في القرن الرابع الهجري وفي البصرة على وجه التحديد نشأت جماعة لم يُعرف منها سوى خمسة أشخاص يلفهم الغموض والشك، ويتصفون بالاستتار والاكتتام، عرفت أسماؤهم ولم تعرف حقيقتهم، ولم تحمل الأخبار إلينا نبذة عن حياتهم وأحوالهم، وإنما هكذا برزوا جماعة في البصرة لها فرع امتداد في بغداد. قيل إن منهم أبا سليمان محمد بن معشر البستي المعروف بالمقدسي، والآخر هو أبو الحسن علي بن هارون الزنجاني، وأبو أحمد المهرجاني، وقيل إن اسمه محمد بن أحمد النهرجوري، فأبو الحسن العوفي، فزيد بن رفاعة. وقد ذكر أبو حيان التوحيدي صاحب المقابسات أن زيد بن رفاعة كان متهماً بمذهبه، وأن الوزير صمصام الدولة بن عضد الدولة سأله عنه، فقال: «إني لا أزال أسمع من زيد بن رفاعة قولاً يريبني، ومذهباً لا عهد لي به، وكناية عما لا أحقّقه، وإشارة إلى ما لا يتوضح شيء منه، يذكر الحروف ويذكر اللفظ، ويزعم أن الباء لم تنقط من تحت واحدة إلا لسبب، والتاء لم تنقط من فوق اثنتين إلا لعلة، والألف لم تُهمل إلا لغرض، وأشباه هذا». فأطرى أبو حيان ذكاءه وأدبه وعلمه، وتبصره في الآراء والديانات، وتصرّفه في كل فن إمّا بالشدو الموهم وإما بالتوسط المفهم وإما بالتناهي المفحم. وسأله الصمصام عن مذهبه، فقال: «لا ينسب إلى شيء، ولا يعرف له حال، حيث إنه تكلم في كل شيء، وغليانه في كل باب، ولاختلاف ما يبدو من بسطته ببيانه وسطوته بلسانه». وذكر أنه أقام بالبصرة وصادق بها جماعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة، ثم ذكر أسماء الأربعة الآخرين، وأن زيد بن رفاعة صحبهم وخدمهم، مما يدل عى أنه كان دونهم منزلة وعلماً مع ما هو عليه من

المعرفة وسعة الاطلاع. ثم ذكر هذه الجماعة، قال:

«وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة وتصافت بالصداقة واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله. وذلك أنهم قالوا إن الشريعة قد دنست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية، وزعموا أنّه متى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال».

وسأله الوزير صمصام الدولة عن المقدسي، وما يقول في الشريعة والفلسفة، فروى له حديثاً هو: «الشريعة طبّ المرضى، والفلسفة طب الأصحّاء. والأنبياء يطبّبون للمرضى حتى لا يتزايد مرضهم، وحتى يزول المرض بالعافية فقط. وأما الفلاسفة فإنهم يحفظون الصحة على أصحابها، حتى لا يعتريهم مرض أصلاً. فبين مدبّر المريض وبين مدبّر الصحيح مزق ظاهر وأمر مكشوف...».

وقد ذكر الحاجي خليفة في كشف الظنون، قال: «إن لأبي الحسن العوفي رسالة في أقسام الموجودات وتفسيرها.. وهي لطيفة ذكرها الشهرزوري في تاريخ الحكماء».

أرجع إخوان الصفا مصادر علومهم إلى أربعة كتب، أولها: الكتب المصنّفة على ألسنة الحكماء من الرياضيات والطبيعيات، ثانيها: الكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل والقرآن وغيرها من صحف الأنبياء، وثالثها: الكتب الطبيعية، وهي صور أشكال الموجودات بما هي عليه الآن من تركيب الأفلاك وأقسام البروج وحركات الكواكب ومقادير أجرامها وفنون الكائنات من الحيوان والنبات والمعادن وأصناف المصنوعات على أيدي البشر، يرى الناس ظاهرها ولا يعرفون معاني بواطنها من لطيف صفة الباري، وأما الرابعة فهي الكتب الإلّهية التي لا يمسّها إلا المطهرون الملائكة، وهي جواهر النفوس وأجناسها وأنواعها وجزئياتها وتصاريفها للأجسام، وما تصير إليه أمورها من انحطاط أو ارتفاع أو انبعاث وحساب أو جنان أو نيران، أو مكث في البرزخ أو وقوف على الأعراف، فكانت أكثر مذاكراتهم إذا اجتمعوا في

علم النفس والحس والمحسوس، والعقل والمعقول، والنظر في أسرار الكتب الإلّهية والتنزيلات النبوية ومعاني ما تتضمنه موضوعات الشريعة، وينبغي أيضاً أن يتذاكروا العدد والهندسة والتأليف والنجوم(١).

وإن كان إخوان الصفا قد آثروا الاستتار والاكتتام في خلال اجتماعاتهم، ولم يسمحوا لأي غريب عنهم بحضور مجالسهم ومذاكراتهم، أو الاستماع إلى أحاديثهم ومناقشاتهم، فإنهم لم يحجبوا آراءهم وعقائدهم عن جمهور الناس، بل عملوا على نشر هذه المعتقدات في الآفاق لاجتلاب المزيد من الأتباع والمناصرين والمؤيدين ولهذا فقد انتشرت رسائلهم بفضل دعاتهم ومريديهم، فاطلع على أسرارها المثقفون، ودخلت بلاد الأندلس، وكان أدخلها الطبيب أبو الحكم الكرماني القرطبي بعد رحلته إلى المشرق لتحصيل العلم والمعرفة.

تتألف رسائل إخوان الصفا من اثنتين وخمسين رسالة مقسمة على أربعة أقسام: الرياضية التعليمية، والجسمانية الطبيعية، والنفسانية العقلية، والناموسية الإلّهية. يقول إخوان الصفا في مبدأ رسائلهم: «وتليها الرسالة الجامعة لما في هذه الرسائل المتقدمة بها، المشتملة على حقائقها بأسرها»، ولذلك يكون مجموع الرسائل ثلاث وخمسين رسالة في حال أضفنا إليها الرسالة الجامعة المشتملة على حقائق الرسائل الاثنتين والخمسين. أما الهدف في هذه الرسائل فهو، كما يذكر إخوان الصفا في فهرست رسائلهم، يقولون: «والغرض منها إيضاح حقائق ما أشرنا إليه ونبهنا في هذه الرسائل عليه، أشدّ الإيضاح والبيان، يأتي على ما فيها فيتبين حقائقها ومعانيها ملخّصة مستوفاة مهذبة مستقصاة ببراهين هندسية يقينية، ودلائل فلسفية حقيقية وبيّنات علمية وحجج عقلية وقضايا منطقية وشواهد قياسية وطرق إقناعية، لا يقف على كنهها ولا يحيط بحقائقها، ولا يحصّلها ولا شيئاً منها، إلّا من ارتاض بما قدّمنا وحذق وعرف وتدرب فيها وتمهر أو بما يشاكله، إذ هذه الرسائل كلها كالمقدّمات لها والمداخل إليها والأدلة عليها والأنموذج منها، لا ينفتح غلق معتاصها، ولا ينكشف مستور غامضها، إلا لمن تهذب بهذه الرسائل الاثنتين والخمسين أو بما شاكلها من الكتب. والرسالة الجامعة من رسائلنا هي

---

(١) رسائل إخوان الصفا ص ١٣.

منتهى الغرض لما قدّمناه، وأقصى المدى ونهاية القصد وغاية المراد».

تتألف جماعة الإخوان من أربع مراتب، أولاها مرتبة ذوي الصنائع، وتكون من الشبان الذين أتموا الخامسة عشرة، لما هم عليه من صفاء جوهر النفس، وجودة القبول وسرعة التصور، ويسمونهم الإخوان الأبرار والرحماء. والثانية مرتبة الرؤساء ذوي السياسات، وتكون من الذين أتموا الثلاثين، وعرفوا بالحكمة والعقل، ويسمونهم الإخوان الأخيار والفضلاء، والثالثة مرتبة الملوك ذوي السلطان، وتكون من الذي أتموا الأربعين، وعرفوا بالقيام على حفظ الناموس الإلهي، ويسمونهم الإخوان الفضلاء الكرام. والرابعة هي المرتبة العليا التي يدعون إليها إخوانهم كلهم في أي مرتبة كانوا، وتكون من الذي أتموا الخمسين، وأشبهوا الملائكة، بقبول التأييد ومشاهدة الحق عياناً، والوقوف على أحوال الأخرة.

نسب إخوان الصفا إلى القرامطة وهم الإسماعيليون أصلاً، وذكر أن سنان بن سليمان الملقب برشيد الدين من عظماء الإسماعيلية ورؤسائها، كان يكب على مطالعة رسائل إخوان الصفا، وزعم ابن تيمية في فتواه عن طائفة النصيرية أن الإخوان من أئمتهم. وذكر بعض المستشرقين أن آراء إخوان الصفاء ظهرت في جملتها من جديد عند فرق كثيرة في العالم الإسلامي كالباطنية والإسماعيلية والحشاشين والدروز. وقد أفلحت الحكمة اليونانية في أن تستوطن الشرق وذلك عن طريق إخوان الصفا[1]

(١) انظر تاريخ الفلسفة في الإسلام، دي بور، ص ١١٣، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة.

أبو الحسن العامري

ت ٣٨١ هـ

أبو الحسن محمد بن أبي ذر يوسف العامري النيسابوري، من فلاسفة الإسلام في القرن الرابع الهجري. لا تعرف بالتحديد سنة ولادته، ولكن من المعروف أنه تتلمذ لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي المتوفى سنة ٣٢٢ هـ، ولذلك يمكن الترجيح أنه ولد في أوائل القرن الرابع الهجري، أما تاريخ وفاته فقد كان في شوال سنة ٣٨١ هـ. كان من أعلام عصره كما يقول أبو حيان التوحيدي[١]، ووضعه الشهرستاني جنباً إلى جنب مع كبار فلاسفة الإسلام من مثل الكندي وابن سينا والفارابي[٢]. وتحدث عنه أيضاً أبو حيان في كتابه الإمتاع والمؤانسة واقتبس الكثير من «كلماته الشريفة» في المقابسات، كما أخذ عنه مسكويه في كتابه «جاويدان خرد» فصلاً مسهباً في كلماته[٣]. وأخذ عنه أيضاً الشهرزوري في «نزهة الأرواح» وأبو المعالي في «بيان الأديان» وغيرهم.

نشأ أبو الحسن محمد ودرس الفلسفة على يد أبي زيد البلخي، تلميذ الكندي، بخراسان، وقد ورد في «منتخب صوان الحكمة» أن العامري تفلسف بخراسان، وقد قرأ على أبي زيد أحمد بن سهل البلخي، وعرف بعد ذلك بـ «الفيلسوف النيسابوري». وقد كانت نيسابور آنئذ أكبر مركز للثقافة في خراسان، بل كانت مهد المدارس في تاريخ التربية الإسلامية.

بيد أن أبا الحسن لم يمض عمره كله في نيسابور، فقد كان مشغوفاً بالترحال

(١) المقابسات ص ١٦٥.

(٢) الملل والنحل ص ٣٨ الجزء الثالث.

(٣) الحكمة الخالدة ص ٣٤٧.

ومعاينة أحوال الناس وتقلبات الأيام وتغير الدول، ولـذلك قيـل عنه «كـان من الجوالين الذين نقبوا في البلاد، واطلعوا على أسرار الله في العباد[1]». وكان في أثناء ترحاله وتجواله ومعاينته مدفوعاً بمحبة العلم، ولهذا كان يتردد إلى المراكز العلمية الثقافية آنذاك، وخصوصاً في زيارته بغداد والري وبخارى، فقد كان يطيل الإقامة في كل منهما متعلّماً معلّماً مناظراً ومؤلفاً، وقد أثرت ثقافات هذه المدن في أبي الحسن تأثيراً قوياً.

على أن الإقامة في بغداد لم ترق له كثيراً، فقد ساءته أخلاق أهلها وضاق بجوارهم. فقد ورد في «منتخب صوان الحكمة» أن العامري قصد بغداد وتصدّر بها، وإن لم يرض أخلاق أهلها، وعاد وهو فيلسوف تام. . وقيل له لما عاد من بغداد: كيف رأيت الناس بها؟ قال: رأيت عندهم ظرفاً ظاهراً، وشارة معجبة، ومراءاة معشوقة، لكني رأيت من وراء ذلك سخفاً بالغاً، ووداً فاسداً، واستحقاراً لأهل خراسان وجميع البلدان، وأصلح ما يتفق للإنسان أن تكون طينته مشرقية وصورته عراقية، فإنه بذلك يصير جامعاً بين متانة خراسان وظرف العراق، مفارقاً لبلادة خراسان ورعونة العراق.

ويبدو أن المنافسة العلمية التي كانت قائمة بين خراسان وبغداد في ذلك العصر، كانت السبب في سوء استضافة أبي الحسن. يقول التوحيدي[2]: «ولقد ورد العـامري بغـداد سنة أربـع وستين وثلاثمـائة في صحبـة ذي الكفايتين أبي الفتح بن العميد، فلقي من أصحابنا البغداديين عنتاً شديداً ومناكدة، وذلك لأن طباع أصحابنا معروفة بالحدة والتوقد على فاضل يُـرى من غير بلدهم».

أما الري وبخارى فقد ارتاح إليهما أبو الحسن وأحبهما، وكانت إقامته في كل منهما من أخصب فترات حياته الثقافية والفكرية والتأليفية. فقد كانت الري من مدن الإسلام، وكانت تحوي مكتبة كبيرة، وكـانت موئـل العلماء في الحـديث والكلام والزهد. وقد أقام العامري مدة طويلة فيها قاربت خمس سنوات، صنف فيها الكتب ودرّس وأملى.

---

(١) الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي ص ٩٤ الجزء الثالث.

(٢) المقابسات ص ٣٠٧.

وأما بخارى عاصمة السامانيين فقد كانت محجة العلماء والأدباء من كل صوب، بفضل تشجيع السامانيين العلم والأدب، وكان بها مكتبة عظيمة، ذكر الفيلسوف ابن سينا أنه حين دعي للمشاركة في علاج السلطان نوح بن منصور الساماني، سأله يوماً الإذن بدخول المكتبة وقراءة ما فيها من كتب الطب: «فأذن لي فدخلت داراً ذات بيوت كثيرة، في كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض، في بيت منها كتب العربية والشعر، وفي آخر الفقه، وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد. فطالعت فهرست كتب الأوائل وطلبت ما احتجت إليه منها، ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط، وما كنت رأيته من قبل، ولا رأيته أيضاً من بعد».

وقد وضع العامري في بخارى كتابه الموسوم بـ «التقرير لأوجه التقدير» لأبي الحسين العتبي وزير نوح بن منصور الساماني، ثم ألف فيها كتابه «الأمد على الأبد» والذي حوى في مقدمته أسماء مصنفاته الأخرى. وكان الفراغ من تصنيفه ببخارى في شهور سنة خمس وسبعين وثلثمائة، ومن هنا يتضح أنه أمضى فترة طويلة من حياته في بخارى، فقد كانت وفاته بعد فراغه من هذا المؤلّف بنحو ست سنوات فقط، أي سنة ٣٨١ هـ كما أسلفنا. وفيها أيضاً صنّف كتاب «الإعلام بمناقب الإسلام» لأبي نصر بن أبي زيد (من وزراء بني سامان)، وكتاب «السعادة والإسعاد» لأمير من أمراء آل سامان.

وهكذا نرى أن تشجيع السامانيين للعلماء، ووجود المكتبة العظيمة التي حوت مفاخر التواليف، قد شجعت أبا الحسين أيضاً على البقاء مدة طويلة في بخارى مصنّفاً فيها أعظم كتبه التي أثرت عنه. ولكنه في نهاية المطاف آثر العودة إلى نيسابور بعد أن تقدمت به السن ليمضي ما تبقى له من حياة في ربوعها.

مصنفات أبي الحسن العامري:

ليس أدل على وفرة تصانيفه وذكر أسمائها مما ورد في مقدمة كتابه «الأمد على الأبد»، قال: «وبعد، فإن الله - جل جلاله - لما وفقني لتصنيف الكتب المفتنة في إيضاح المعاني العقلية، قصد المعونة لذوي الألباب على تقرير المعالم النظرية، ويسّر لي التأليف في: الإبانة على علل الديانة، وفي الإعلام بمناقب

الإسلام، وفي الإرشاد لتصحيح الاعتقاد، وفي النسك العقلي والتصوف الملي، وفي الإتمام لفضائل الأنام، وفي التقرير لأوجه التقدير، وفي إنقاذ البشر من الجبر والقدر، وفي الأصول الربانية للمباحث النفسانية، وفي فصول التأدب وفصول التحبب، وفي الأبشار والأشجار، وفي الإفصاح والإيضاح، وفي العناية والدراية، وفي الأبحاث عن الأجداث، وفي استفتاح النظر، وفي الإبصار والمبصر، وفي تحصيل السلامة عن الحصر والأسر، وفي التبصير لأوجه التعبير، وغيرها من المسائل والرسائل الوجيزة، وأجوبة المسائل المتفرقة، وشرح الأصول المنطقية، وتفاسير المصنفات الطبيعية».

على أن للعامري مؤلفات غير التي ذكرت في طيّ مقدمته، ومنها:

- شرح كتاب البرهان لأرسطوطاليس. ذكره العامري في «الإبصار والمبصر».
- شرح كتاب النفس لأرسطو طاليس. ذكره أيضاً في «الإبصار والمبصر».
- منهاج الدين.
- الفصول في المعالم الإلهية.
- السعادة والإسعاد. في السيرة الإنسانية.

وهكذا يتبيّن لنا أن أبا الحسن العامري كان ذا ثقافة شاملة متنوعة، فقد تناول في كتبه الفلسفة من جميع جوانبها وخصوصاً فيما يتعلق منها بما وراء الطبيعة والمنطق والأخلاق. ولا ريب أن هذه الشمولية وهذه الثقافة الضاربة في مختلف العلوم نشأت عن انتمائه إلى مدرسة الفيلسوف الكندي على يد تلميذه البلخي، ولذلك اجتمعت له الثقافتان اليونانية والإسلامية مُضافاً إليهما ثقافات الأمم التي اتصل بها الإسلام بعيد فتوحاته.

أبو حيان التوحيدي

٣١٠ ـ نحو ٤٠٠ هـ

علي بن محمد بن العباس التوحيدي، أبو حيان وهي الكنية التي اشتهر بها شهرة أجمع عليها المؤرخون كنسبته «التوحيدي» وهي نسبة إلى المهنة التي عرف بها والده وهي بيع نوع من التمر المسمى «التوحيد» وليس نسبة إلى عقيدة التوحيد كما ادعى البعض. وهي نسبة معقولة كطبيعة الانتساب إلى المهن في القرنين الثالث والرابع الهجريين. وليس في انتسابه إلى مهنة أبيه أي انتقاص كما زعم البعض من المؤرخين القدماء والمحدثين. وهل في انتسابه إلى عامة الناس منقصة، وهل يضرّ به امتهان حرفة بيع التمر، على ما أثر عنه من مؤلفات لا ينكرها إلّا الجاهل. أجل لقد نشأ علي بن محمد نشأة الصبيان من أولاد العامة، جهد وكدّ في سبيل رزقه، وانتصب في السوق يبيع التمر، إلّا أنه عدل عن هذه المهنة إلى حرفة الوراقة بدل بيع التمر، والوراقة مهنة صعبة للطموحين من المثقفين الفقراء.

لم تشر المصادر إلى تاريخ مولده، وهو نفسه لم يأت على ذكر تاريخ ميلاده وظروف حياته، والدليل الوحيد الذي يساعدنا على تأريخ سنة مولده على وجه التقريب، هو الرسالة التي بعثها إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد يخبره فيها بأنه أحرق كتبه[1]. فهذه الرسالة هي الدليل الوحيد على أن التوحيدي كان في قيد الحياة حتى رمضان سنة ٤٠٠ هـ، ففي طيّ الرسالة يشير إلى أنه في عشر التسعين، ومن هنا استدل المؤرخون القدماء والمحدثون على أن ولادته كانت حوالى سنة ٣١٠ هـ، بل جعلها البعض بين ٣١٠ و٣٢٠ هـ[2]، غير أن السندوبي في

(١) وانظر الرسالة عند السندوبي، مقدمة المقابسات ص ١٠٩ ـ ١١٤.

(٢) أبو حيان التوحيدي، عبد الرزاق محيي الدين ص ١٠.

مقدمة المقابسات لأبي حيان جعلها سنة ٣١٢ هـ. أما سنة وفاته فقد ورد أنه توفي سنة ٣٨٠ هـ، كما أشار ابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات، ورأى الذهبي أنه توفي سنة ٤٠٠ هـ، وفي الأعلام حددت سنة وفاته (سنة ٤١٤ هـ). والحقيقة الجلية التي يجب الأخذ بها هي رسالته إلى القاضي أبي سهل سنة ٤٠٠ هـ وتاريخ وفاته الذي حدّده زركوب على الأرجح سنة ٤١٤ هـ، فتاريخ الوفاة يقع بين هذين التاريخين.

ثم إن التوحيدي ينسب إلى المدن التي حلّ بها، فهو البغدادي والواسطي والنيسابوري والشيرازي. وقيل عن موطنه إنه نيسابور، وقيل بل شيراز عاصمة بني بويه، وقيل واسط مدينة الحجّاج، لكنه عاش معظم حياته في بغداد، فدرس النحو على أبي سعيد السيرافي، وعلي بن عيسى الرمّاني، ودرس الفقه على أبي حامد المروزيّ، وأبي بكر الشافعي الشاشي، والفلسفة على يحيى بن عدي، وأبي سليمان المنطقي السجستاني، وجعفر بن محمد بن نصير الخلدي.

على أن افتراض أنه ولد سنة ٣١٠ هـ، يعني أنه شهر في خلال القرن الرابع الهجري، وبداية شهرته كانت بالتحديد سنة ٣٤٧ هـ، فالمعروف أنه كان في الثلاثين عندما تتلمذ لجعفر بن محمد الخلدي، فبعد سبع سنوات يظهر أبو حيان مؤلفاً في الوراقين ببغداد. ومن سنة ٣٤٧ إلى سنة ٤٠٠ هـ، هي فترة الخصب في تاريخ حياته، والتي رسم لنا شخصيته في أثنائها أديباً فقيراً من رواد القصور، مريضاً بجملة من الأمراض النفسية أهمها شعوره بالخيبة وانتقاله من حياة النفاق والمحاباة في أوساط المترفين وعلية القوم، إلى التصوف الذي دلل فيه على أنه وصل إلى اليأس حتى أحرق كتبه تمرداً على الحياة، فانتهى إلى الموت فقيراً في إحدى زوايا شيراز. فخلال هذه الفترة. تعرف على أبي الفضل بن العميد وابنه أبي الفتح ثم الصاحب بن عباد الذي أثر فيه تأثيراً مأساوياً شديداً بالإضافة إلى الوزير ابن العارض، وكلهم أصيب معهم بالخذلان[1].

أما سيرة أبي حيان فيجب أن تفهم على أساس النقاط التالية[2]:

---

(١) أبو حيان التوحيدي، محيي الدين ص ٢٦٢/٢٧٣/٢٩٤.
(٢) أبو حيان التوحيدي، د. الأعسم ص ٦٧.

الأولى: من صباه إلى شبابه، زمن مجهول يصعب التفصيل فيه، وتلك رغبة التوحيدي.

الثانية: في وقت ما من شبابه حتى سنة ٣٣٩ هـ، التي استوزر فيها المهلبي، فكانت علاقته به قصيرة الأجل انتهت بطرده ونفيه من مجلسه.

الثالثة: رحيله إلى الري، إلى مجلس ابن العميد الذي توفي سنة ٣٦٠ هـ، وقد تولى بعده ابنه أبو الفتح الوزارة حتى سنة ٣٦٢ هـ، وقد رجع التوحيدي خائباً من الأب والابن بين عامي ٣٦٠ و٣٦١ هـ. والجدير بالذكر أنه نفي عن بغداد سنة ٣٥٢ هـ لزندقته كما قيل، وكان يعيش فيها من النسخ والكتابة وفيها أضاع قسماً من مؤلفاته.

الرابعة: رحيله مرة ثانية إلى الري إلى مجلس الصاحب بن عباد الذي ولي الوزارة بعد أبي الفتح بن العميد سنة ٣٦٣ هـ، وبقي في عداد حاشيته حتى سنة ٣٧٠ هـ، حيث عاد بخفي حنين إلى بغداد كرة أخرى.

الخامسة: تردّده في بغداد على مجلس ابن العارض الوزير المتوفى سنة ٣٧٥ هـ.

السادسة: تمتد إلى ما بعد وفاة أبي سليمان السجستاني في بغداد حوالى سنة ٣٧٥ هـ إلى سنة ٤٠٠ هـ.

السابعة: هي الفترة المجهولة في شيراز حوالى سنة ٤٠٠ هـ إلى ما بعدها؟.

مصنفاته:

على الرغم من ضياع بعض كتبه التي صنفها، وإحراق البعض الآخر بيده، فإن التوحيدي ترك من الكتب ما يجعله علماً من أعلام الطبقة الأولى من المؤلفين، وإن لم يكن قد توفر على بناء عمارة فلسفية تامة كأفلاطون وأرسطو، أو أنه تشبث بموقف فلسفي لتفسير الكون[1].

---

(١) المقابسات. د. شلق ص ٩.

ذكر ياقوت في معجم الأدباء كتب التوحيدي التي بلغت عشرين كتاباً وهي:

- الإشارات الألُهية.
- الإمتاع والمؤانسة.
- البصائر والذخائر.
- الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي.
- ذم الوزيرين.
- الرسالة البغدادية.
- الرسالة الصوفية.
- رسالة إلى القاضي أبي سهل.
- رسالة في أخبار الصوفية..
- رسالة في تقريظ الجاحظ.
- رسالة في الحنين إلى الأوطان.
- رسالة في صلات الفقهاء في المناظرة.
- رياض العارفين.
- الزلفة.
- الصداقة والصديق.
- كتاب الرد على ابن جني في شعر المتنبي.
- المحاضرات والمناظرات.
- محاضرات العلماء.
- مناظرة بين متى بن يونس القنائي وأبي سعيد السيرافي.
- المقابسات.

وهناك كتب غيرها لم يذكرها ياقوت:

- كتاب الحوامل والشوامل.
- حكاية أبي القاسم البغدادي.
- رسالة الحياة.
- رسالة السقيفة.
- رسالة في علم الكتابة.
- رسالة في العلوم.
- كتاب النوادر.

مسكويه

نحو ٣٢٠ - ٤٢١ هـ

أحمد بن محمد بن يعقوب، أبو علي الملقب مسكويه، ويطلق عليه اسم أبي علي الخازن، أو صاحب تجارب الأمم. وقد اختلف المؤرخون في تحديد اسم مكسويه، وهل كان لقباً له أم لجدّه فإذا كان لجدّه وجب أن يكتب ابن مسكويه، وإن كان له يكتب مسكويه فقط. وقد رجحّ بعض هؤلاء المؤرخين أن يكون مسكويه لقباً له، وإن كان البعض الآخر يرى أن مسكويه قد يكون في الأصل مشكويه وهو لقب لجده. ذكر ياقوت في معجم الأدباء أن مسكويه كان مجوسياً وأسلم. فإن كان ما ذكره صحيحاً فكيف ورد ذكره في المصادر فنسب هكذا: أحمد بن محمد؟ فهل يمكن أن يكون قد غير نسبه كله، أو أن يكون أبوه هو الذي أسلم وكان مجوسياً[1]. ولعل الاحتمال الثاني هو الأرجح خصوصاً وأن المصادر التي ترجمت له لم تذكر خبر إسلامه، وأن مسكويه نفسه يقول عن نفسه في كتابه «تجارب الأمم»: «قال الأستاذ أبو علي أحمد بن محمد مسكويه» أو «قال الأستاذ أبو علي أحمد بن محمد مسكويه صاحب هذا الكتاب[2]».

قرأ تاريخ الطبري على أبي بكر أحمد بن كامل القاضي (المتوفى سنة ٣٥٠ هـ) الذي كان صاحب أبي جعفر الطبري، وقد سمع منه شيئاً كثيراً، وكان ينزل في شارع عبد الصمد ببغداد، وكان مسكويه يجتمع به ويدرس عليه علوم الأوائل خصوصاً على يد ابن الخمار الذي كان واسع الاطلاع على هذه العلوم،

(١) الحكمة الخالدة لمسكويه، تحقيق عبد الرحمن بدوي، ص ١٥.

(٢) انظر تجارب الأمم م ١/ ٣١٠ وم ٢/ ١٣٦.

وخاصة المنطق والطب حتى لقد سمي «بقراط الثاني». ويظهر من كلام أبي حيان التوحيدي[1] أن مسكويه لم يكـن ذا عقلية فلسفية وأنه شغل بالكيمياء عن كتب الفلسفة فدرسها وجدّ في طلبها مع أبي الطيب الكيميائي الرازي وفتن بكتب أبي بكر محمد بن زكريا الرازي وجابر بن حيان. كذلك يـذكر ابن سينـا[2] أنه حاضر أبا علي مسكويه في مسألة ذكرها فاستعادها مسكويه مرات، فقال: «وكان (مسكويه) عسر الفهم فتركته ولم يفهمها على الوجه».

صحب مسكويه أبا الفضل محمد بن العميد وزيـر ركن الدولـة أبي علي الحسن بن بويه الـديلمي، وكان تـولى له الـوزارة في سنة ٣٣٨ هـ، إذ يـروي مسكويه عن نفسه[3] أنه صحب ابن العميد سبع سنين لازمه فيها ليلاً نهـاراً، إذ اتخذه أبو الفضل خازناً لكتبه، فقام على هذا العمل خير قيام، حتى إنه أنقذ خزانة كتبه عندما هجمت الخراسانية على دار الأستاذ الرئيس ابن العميد وقامت «بنهب داره واصطبلاته وخزائنه ـ وكانت موفورة جامّة ـ إلى أن أتى الليل وانصرفوا «وكان إليّ خزانة كتبه» فسلمت من بين خزائنه ولم يتعرض لها، فلما انصرف (أي ابن العميد) إلى منزله ليلاً لم يجد فيه ما يجلس عليه ولا كوزاً واحداً يشرب فيه ماء، فأنفذ إليه ابن حمزة العلوي فرشاً وآلة، واشتغل قلبه بدفاتره ولم يكن شيء أعزّ عليه منها، وكانت كثيرة فيها كل علم وكل نوع من أنواع الحكم والآداب، تحمل على مائة وقر وزيادة، فلما رآني سألني عنها، فقلت: هي بحالها لم تمسها يد، فسرّي عنه وقال: أشهد أنك ميمون النقيبة، ومن هنا كان لقبه «الخازن».

استمر مسكويه في خدمة ابن العميد حتى وفاته ببغداد في سنة ٣٦٠ هـ، ثم خدم بعده ابنه أبا الفتح علي بن محمد بن العميد الملقب بذي الكفايتين. وقد ظل أبو الفتح وزيراً لركن الدولة الحسن بـن بويه والد عضد الدولة ومؤيـد الدولة إلى أن توفي سنة ٣٦٦ هـ وتولى بعده مؤيّد الدولة، وقد آستوزر أبا الفتح أيضاً إلى أن انتهت حياته بتغير مؤيد الدولة عليه. ثم لحق مسكويه بعده بخدمة عضد الدولة بعد وفاة

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ١/ ٣٥.

(٢) أخبار الحكماء ص ٣٣٢.

(٣) تجارب الأمم ١/ ٢٧٦.

مؤيد الدولة سنة ٣٧٣ هـ، واستمر مسكويه في خدمة بني بويه، وكان على صلة وثيقة بهم خصوصاً بهاء الدولة أبي نصر بن عضد الدولة (المتوفى سنة ٤٠٣ هـ).

ويظهر أن مسكويه عمّر طويلاً، وتوفي في تاسع صفر سنة ٤٢١ هـ، ولهذا يفترض بعض المحققين أن ولادته كانت سنة ٣٣٠ هـ، أو قبل ذلك بقليل. على أن المرجح أن يكون تاريخ مولده في سنة ٣٢٠ هـ، وسبب ذلك أنه صحب الوزير المهلبي وزير معز الدولة، وقد ذكر مسكويه عن نفسه بعد أن ذكر معز الدولة أنه كان سريع الغضب بذيء اللسان يكثر سبّ وزرائه ويفتري عليهم. فلا يُرى أثر ذلك في الوزير المهلبي. يقول مسكويه(١): «وكنت أنادمه في الوقت، فلا أرى لما يسمعه فيه أثراً ويجلس لأنسه مسروراً». وبما أن الوزير المهلبي تولى الوزارة سنة ٣٣٩ هـ وتوفي في واسط سنة ٣٥٢ هـ، فلا يمكن أن يكون مسكويه قد نادمه وهو دون العشرين، بل من المرجح أن يكون مسكويه آنذاك في العقد الثالث من عمره، ولهذا يستصوب أن يكون تاريخ مولده في حدود سنة ٣٢٠ هـ.

مصنفاته:

ذكر ياقوت في معجم الأدباء كتب مسكويه، فأورد منها:

- كتاب الفوز الأكبر (في الأخلاق)
- كتاب الفوز الأصغر (في الأخلاق).
- كتاب تجارب الأمم (في التاريخ) ابتدأ فيه من الطوفان وانتهى به إلى سنة ٣٦٩ هـ.
- أنس الفريد (يشتمل على أخبار وأشعار وحكم وأمثال).
- ترتيب العادات (في السياسة والأخلاق).
- المستوفي (أشعار مختارة).
- جاويدان خرد (الحكمة الخالدة).
- كتاب الجامع.
- كتاب السير (وذكر ما يسير به الرجل نفسه عن أمور الدنيا).

---

(١) تجارب الأمم ٢/١١٤٦.

- كتاب في الأدوية المفردة (في الطب).
- كتاب في تركيب الباجات من الأطعمة.
- كتاب الأشربة.
- كتاب تهذيب الأخلاق.
- رسالة في اللذات والآلام في جوهر النفس.
- أجوبة وأسئلة في النفس والعقل.
- الجواب في المسائل الثلاث.
- رسالة في جواب في سؤال علي بن محمد أبي حيان الصوفي في حقيقة العدل.
- طهارة النفس.

ابن حزم

٣٨٤ - ٤٥٦ هـ

أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم. ولد بمدينة قرطبة سنة ٣٨٤ هـ. من أسرة غنية رفيعة الشأن عريقة النسب، كان أفرادها من ذوي المجد والحسب والعلم والأدب. كان والده أحمد بن سعيد من كبار الوزراء، فقد ولي الوزارة للحاجب المنصور بن أبي عامر، ثم وزر أيضاً لابنه المظفر الذي خلفه. وقد نشأ ابن حزم الابن في قصر أبيه نشأه المترفين المنعمين، فلم يعرف في طفولته وصباه الحرمان والحاجة، ولم يضطر إلى بذل نفسه على أبواب السلاطين والأمراء والوزراء. وابن حزم يذكر بنفسه في ما أودعه في كتابه «طوق الحمامة في الألفة والألاف» الرقابة التي فرضها عليه أبوه، ويشير إلى العلماء الكبار الذين استجلبهم لتثقيفه وتعليمه وتهذيبه. وهو يذكر أيضاً أنه تلقى تربيته الأولى في رعاية بعض النساء العالمات من أهل بيته، ولعل هذا الأمر كان له الأثر في رفاهة حسه وثراء وجدانه.

لم يطلب ابن حزم إذاً العلم سعياً وراء الجاه والسلطان، وقد تربى في كنف أبيه في قصره، وإنما كان طلبه لتحصيل المعرفة عن إيمان عميق بها وبقيمتها، وهو أيضاً لمّا ارتمى في لجة السياسة والفتن والمؤامرات، آثر أن يعود إلى ساحة العلم مثخناً بجراح المعارك السياسية ولعل القدر أراد أن يدفع بابن حزم في المعترك السياسي، رغم أن الشاب كان يتطلع إلى كسب العلم. ففي مطلع القرن الخامس هاجم البربر قرطبة، ثم توفي والد ابن حزم بعد هذا الهجوم بقليل حوالى سنة ٤٠٢ هـ، وكان ابن حزم آنذاك قد بلغ الثامنة عشرة من عمره.. فلما مات أبوه تولى ابن حزم زمام المدافعة عن الأسرة الأموية ضد جحافل البربر، فرحل عن قرطبة إلى ألمرية حيث جهد في توحيد الصفوف من أجل استعادة العرش الأموي

المفقود. لكن حاكم ألمرية اعتقله وزجّ به في السجن ثم نفاه، فاضطر ابن حزم عندئذ إلى الهجرة، فتوجه إلى بلنسية. وفي بلنسية صادف المرتضى الأموي وحارب معه في طلائع جيشه بغرناطة، لكنه وقع أسيراً سنة ٤٠٣ هـ، وظل في أسره ولم يتمكن من العودة إلى قرطبة إلّا بعد ست سنوات. وكان أن تولى صديقه عبد الرحمن المستظهر الخلافة في رمضان عام ٤١٤ هـ، فاستوزره، ولكنه لم يبق في هذا المنصب إلّا أياماً معدودة، فقد قتل المستظهر وسجن ابن حزم بعد أربعين يوماً من توليه الوزارة، ثم عفي عنه وأعيد إلى الوزارة بين ٤١٨ و٤٢٢ هـ. لكن الأمور السياسية لم ترق له فآثر ترك الوزارة وعاد أدراجه إلى سبيل العلم ينهل ويحصّل.

وكانت وفاته في الثامن والعشرين من شعبان سنة ٤٥٦، عن اثنين وسبعين عاماً، مخلفاً تراثاً عظيماً من الإنتاج العلمي بلغ فيما روى ابنه الفضل حوالى أربعمائة مجلد تشتمل على ما يقرب من ثمانين ألف ورقة، ضاع بعضها في واقعة الإحراق بإشبيلية في عهد المعتضد بن عباد.

خلف ابن حزم تلامذة عظماء حملوا تراث معلمهم إلى آفاق بعيدة، أمثال أبي عبدالله الحميدي، والإمام الوزير أبي محمد المغربي الذي صحبه وروى عنه، ومنهم أيضاً علي بن سعيد العبدري، والإمام أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد الطرطوشي، ومنهم ابنُ ابن حزم أبو رافع وابناه أبو أسامة يعقوب، وأبو سليمان المصعب.

مؤلفات ابن حزم:

ترك ابن حزم ـ كما أسلفنا ـ حوالى أربعمائة مجلد، ومن أول تصانيفه كتابه «طوق الحمامة في الألفة والألاف» وقد وضعه سنة ٤١٨ هـ وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، تناول فيه ألوان العشق وأوضح فيه آراءه النفسية بأقاصيص استمدها من تجاربه وتجارب معاصريه ومن سبقه. وله أيضاً في خلال هذه الفترة «رسالة في فضل الأندلس» أهداها إلى صديقه أبي بكر محمد بن إسحاق، وقد ألفها إجابة لرغبة حاكم قلعة البونب، وهي رسالة طريفة ذكر فيها أهم تصانيف مسلمي الأندلس المتقدمين.

أما في التاريخ فقد كتب «نقط العروس في تواريخ الخلفاء».

وفي الأنساب «جمهرة الأنساب» أو أنساب العرب. كتبه سنة ٤٥٠ هـ.

لكن أكثر تصانيفه خصوصاً في موضوعات العقائد والفلسفة وعلوم الحديث والفقه. وكان قد تحول سنة ٤٢٠ هـ من المذهب الشافعي إلى الظاهرية، كما أشار بنفسه في رسالة فضل الأندلس، وأظهر رأيه الذي يبطل فيه كل قياس فقهي لا يعتمد على القرآن والحديث وذلك في رسالته «إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل».

وكتب أيضاً مبيناً رأيه واضحاً في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» وخاصة في رسالته «الإحكام لأصول الأحكام». وفي الموضوع نفسه كتب «مسائل أصول الفقه» و«المحلى بالآثار في شرح المجلى بالاقتصار» و «الإيصال إلى فهم الخصال». ثم كتب أيضاً رسالته الأخلاقية «الأخلاق والسير» في مداواة النفوس.

بالنسبة إلى كتبه الفلسفية، فإن كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» يُعد من أرقى كتبه في موضوع الفلسفة، فهو خلاصة دراساته العقائدية، وفيه مجال رحب لتطبيقه أصول الظاهرية على العقائد. وفي هذه المسألة كما بيّنا لم يأخذ إلّا بالمعنى الظاهري للقرآن ثم الحديث النبوي الموثوق به. ولقد كان محط هجوم ونقد الفرق الإسلامية كافة من وجهة نظره هذه، وقد كان لمبادئه وآرائه أثر في المسائل الخلقية، كما كان واضحاً في تمثيله أهل التوحيد الذين انتقضوا على التوسل بالأولياء، ونقد العقائد غير الإسلامية لدى اليهودية والنصرانية، وحكم بتحريف اليهود والنصارى للنصوص، وقد أورد ابن حزم رسالة أخرى في هذا الكتاب، هي رسالة «التقريب في حدود المنطق» وربما كانت من أوائل مصنفاته التي أشار إليها في رسالته «فضل الأندلس».

لقد كان «الفصل في الملل والأهواء والنحل» أشمل عرض لتاريخ الفرق والمذاهب في مختلف الأديان، وقد ذكر ابن حيّان عن علم ابن حزم قال «إنه كان حامل فنون عدة، فمن حديث إلى فقه ومن جدل إلى نسب ومن تاريخ إلى ما يتعلق بأذيال الأدب مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة». ويقول أيضاً: «ولهذا الشيخ أبي محمد مع يهود لعنهم ومع غيرهم من أولي المذاهب المرفوضة من أهل الإسلام قصص محفوظة وأخبار مكتوبة، وله مصنفات في ذلك معروفة».

الجويني

٤١٩ - ٤٧٨ هـ

عبد الملك بن عبدالله بن يوسف بن محمد بن عبدالله بن حيوية، أبو المعالي، إمام الحرمين، كُني بأبي المعالي لما كان عليه طيلة عمره من معرفة بالعلوم الإلٰهية، وجهاده في سبيل إعلاء شأن الدين الإسلامي. أجمع المؤرخون على نسبته إلى جوين، ووحده السبكي فقط عاد بنسبته إلى نيسابور. ونسبته إلى جوين حملها عن أبيه عبدالله الذي ولد بتلك الناحية وقضى بها فترة من حياته، إذ لم يرد عن عبد الملك أنه ولد أو أقام أو توفي في جوين. وأما نسبته إلى نيسابور فلأنه أطال المقام بها فترة طويلة. وقد لقب إمام الحرمين لأنه جاور بمكة أربع سنوات، كان في خلالها يلقي الدروس ويناظر العلماء. كما أنه لقب بضياء الدين لقدرته على إنارة الطريق للمدافعين عن العقيدة الإسلامية.

ولد الجويني بولاية خراسان، والمرجح أن ولادته كانت في بشتنكان في سنة ٤١٩ هـ، وإذا كان والده قد استقر بنيسابور منذ عام ٤٠٧ هـ ولم يرحل عنها إلى حين وفاته، وإذا علمنا أن بشتنكان من قرى نيسابور بل هي إحدى متنزهاتها لقربها منها، فلا يبعد الأمر أن يكون الوالد قد سكن تلك القرية ولو لفترة يسيرة وهي فترة مولد طفله عبد الملك، وذلك لاعتدال هوائها وقربها من مقر عمله نيسابور، ولما عرف عن نيسابور من حرارة الجو ورداءة طعم المياه فيها، وهكذا تكون هذه القرية مسقط رأس عبد الملك خاصة إذا اعتبرنا أنها كانت المكان الذي رغب أن يدفن فيه وقد نقل إليه في مرضه الأخير.

اعتنى والده به منذ صغره، بل قبل مولده، وذلك بأن اكتسب من عمل يده مالاً خالصاً من الشبه اتصل به إلى والدته، فلما ولدته حرص على ألا يطعمه ما فيه

شبهة، فلم يمازج باطنه إلّا الحلال الخالص. وقد أخذ الفقه عن والده، وكان والده يعجب به، فقد جدّ واجتهد في المذهب والخلاف والأصول، ثم أخذ يتلقى الحديث عن مشايخ مثل الشيخ حسان وأبي سعد بن عليك وأبي سعيد النضروي ومنصور بن دامس. وقد ذكر عبد الغافر الفارسي، وهو من تلاميذه، أن الإمام تعلم العربية وكان له منها حظ عظيم وحفظ القرآن، فاجتمع له من المميزات ما أعجز الفصحاء، حتى إنه عند وفاة والده كان من الأئمة المحققين.

بعد وفاة والده جلس الجويني للتدريس في مدرسته، وهو في هذه السن المبكرة، وقد دفعه طموحه في العلم إلى الاستزادة منه: فكان يذهب إلى الأسفراييني يدرس عليه بعض أجزاء الأصول في مدرسة البيهقي، وكان يبكر إلى مجالس الخبازي، وكان هذان متميزين بالسير على نهج السلف، وإذا كان لأسلوبهما هذا من أثر في الإمام الجويني، فيكون في ما قيل عنه في أخريات أيامه من أنه قد رجع إلى دين العجائز. وقد اجتهد في المناظرة، وظل يواظب عليها متخذاً منها وسيلة لنقد آراء الخصوم. ثم كانت الفتنة بين سنة ٤٤٦ و٤٤٧ هـ والتي دفعته إلى مغادرة نيسابور.

خرج إمام الحرمين من نيسابور وقصد العسكر ومنها إلى بغداد، وقد ذكر ابن الجوزي أن دخول الجويني بغداد وافق دخول الغز إليها، فإذا كان دخول الغز، وهم جند من الأتراك، مع طغرلبك سنة ٤٤٧ هـ فيكون دخوله هو في هذه السنة أيضاً. وقد سمع في بغداد على بعض العلماء وأخذ عنهم، كما جلس للمناظرة والدفاع عن أمور الدين حتى ذاع صيته واشتهر. ثم ترك بغداد إلى الحجاز وأقام بها أربع سنوات يناظر ويفتي وينشر ما تعلمه حتى لقب بإمام الحرمين كما أسلفنا. وقد ورد عن الإمام أنه إلى جانب ذلك كان يقضي ليله طائفاً متعبداً في الكعبة الشريفة حتى صفت نيته مع الله.

عاد الجويني إلى نيسابور بعد أن قضى بمكة أربع سنوات، وكان الملك ألب أرسلان قد تقلّد الملك وحكم نيسابور آنذاك، فأعاده إلى عمله بعد إرجاع شيوخ الأشاعرة الذين نزحوا من قبل، وكان ذاك في سنة ٤٥١ هـ. وظل الإمام يدرس بالمدرسة النظامية، ويفتي، فاشتهر أمره وقصده الكثيرون من البلاد يطلبون

العلم على يديه، ثم آلت إليه زعامة الأصحاب ورياسة الطائفة وأسندت إليه أمور الأوقاف وأصبح خطيب الجامع المنيعي. وفي خلال هذه الإقامة صنّف الكثير من كتبه في الفقه والكلام والجدل، ومن خلال معاينة كتبه يظهر أن الجويني كان يجمع إلى جانب الثقافة الدينية ثقافة فلسفية عميقة، ويبدو ذلك في ردوده على الفلاسفة من طبائعيين وغيرهم، وكتابه «الشامل» خير دليل على عنصر الفلسفة في ثقافته. هذا العنصر الذي أشار إليه السبكي إشارة عابرة في سياق ترجمته للإمام، وبالذات حين تعذر على مناظره ـ وكان من الفلاسفة ـ الصمود أمامه واعترف بقدرة الإمام على إفهام خصمه، يذكر السبكي هذه الواقعة ولا يعلق عليها بما يشفي غليل الباحث من ذكر تفاصيل ثقافته الفلسفية. وأغلب الظن أن موقف السبكي وبعض المؤرخين فيما يتعلق بتوفر العنصر الفلسفي في ثقافة الإمام يرجع إلى رغبتهم في تجريحه بوصفه مشتغلاً بالفلسفة لما كان سائداً في عصره من روح معادية للفلسفة والمشتغلين بها.

ثم رحل الإمام إلى أصبهان عندما وقعت الفرقة بين الأصحاب، ثم عاد إلى نيسابور ووجه معظم مجهوده إلى التصنيف في المذهب حتى بلغ فيه درجة عالية من الإتقان[1]. والمرجح أن كتابه الموسوم بـ«نهاية المطلب في دراية المذهب» كان ثمرة جهده وقتئذٍ. ويروى أن الجاشعي النحوي لما قصد نيسابور سنة ٤٦٩ هـ قرأ عليه الإمام، كما ذكر أن الإمام قابل الشيرازي بالحفاوة عندما زار نيسابور. وقد مرض الجويني قبل وفاته بمرض اليرقان، ثم برأ منه، وعاد إلى التدريس والمناظرة، ثم مرض مرض وفاته، فانتقل إلى بشتنكان لاعتدال هوائها، تماماً كما انتقل أبوه إليها، وتوفي بها سنة ٤٧٨ هـ. وقيل إنه نقل إلى نيسابور في الليلة التي توفي فيها ودفن في داره.

مصنّفات الجويني:

ذكر بروكلمان أن للإمام الجويني تسعة عشر كتاباً، ظهر منها أن اثنين ليسا له بل لوالده، كما أجمعت المصادر على وفرة تصانيف الجويني، وقد وردت

---

(١) د. فوقية محمود، الإرشاد للجويني، تراث الإنسانية مجلد ١ ص ٤٧٤.

اسماؤها في فهارس المكتبات، كما ذكر الجويني في سياق أقواله بعض أسماء مصنفات أخرى. أما الكتابان المنسوبان إليه واللذان هما من وضع والده فهما:

- رسالة في إثبات الاستواء والفوقية في تنزيه الباري تعالى عن الحصر والتمثيل والفوقية.
- كتاب الفروق.

وقد بلغ عدد مصنفاته مجموعة سبعة وعشرين مصنّفاً نذكر منها:

- الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد.
- الشامل في أصول الدين.
- العقيدة النظامية.
- لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة.
- مختصر الإرشاد للباقلاني.
- مسائل الإمام عبد الحق الصقلي وأجوبتها.
- كتاب التلخيص في الأصول.
- كتاب المجتهدين.
- كتاب مغيث الخلق في اختيار الأحق.
- الورقات.
- رسالة في التقليد والاجتهاد.
- السلسلة في معرفة القولين والوجهين.
- نهاية المطلب في دراية المذهب.
- غنية المسترشدين في الخلاف.
- الكافية في الجدل.

الغزالي

٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ

محمد بن محمد بن أحمد، أبو حامد الطوسي الغزالي، حجة الإسلام. ولد بطوس، من أعمال فارس، سنة خمسين وأربعمائة، وكان والده يغزل الصوف[١] ويبيعه في دكان بطوس، ولما حضرته الوفاة وصّى به وبأخيه أحمد إلى صديق له متصوف من أهل الخير وقال له: إن لي لتأسفاً عظيماً على تعلم الخط وأشتهي استدراك ما فاتني في ولديّ هذين فعليهما، ولا عليك، أن ينفد في ذلك جميع ما أخلفه لهما. فلما مات أقبل الصوفي على تعليمهما إلى أن فني ذلك النزر اليسير الذي خلفه لهما أبوهما، وتعذر على الصوفي القيام بقوتهما فقال لهما: اعلما أني قد انفقت عليكما ما كان لكما وأنا رجل من أهل الفقر والتجريد، ليس لي مال فأواسيكما به، وأصلح ما أرى لكما أن تلجآ إلى مدرسة كأنكما من طلبة العلم، فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما، ففعلا ذلك وكان هو السبب في سعادتهما وعلو درجتهما. وكان الغزالي يقول: طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلاّ لله.

ويحكى أن والد الغزالي كان فقيراً صالحاً لا يأكل إلاّ من كسب يده في عمل غزل الصوف، ويطوف على المتفقهة ويجالسهم ويتوفر على خدمتهم ويجد في الإحسان إليهم والنفقة بما يمكنه عليهم، وأنه كان إذا سمع كلامهم بكى وتضرّع وسأل الله أن يرزقه ولداً ويجعله فقيهاً ويحضر مجالس الوعظ، فإذا طاب وقته بكى وسأل الله أن يرزقه ولداً واعظاً، فاستجاب الله دعوتيه.

(١) يقول الغزالي: الناس يقولون لي الغزّالي بتشديد الزاي، وإنما أنا منسوب إلى قرية يقال لها غزالة.

قرأ أبو حامد في صباه طرفاً من الفقه ببلده طوس على أحمد بن محمد الراذكاني ثم سافر إلى جرجان فلقي بها أبا نصر الإسماعيلي وعلق عنه التعليقة ثم رجع إلى طوس، وفي أثناء عودته قطعت عليه الطريق وأخذ العيارون[1] جميع ما معه ومضوا، فتبعهم، فالتفت إليه مقدمهم وقال: ارجع ويحك وإلا هلكت. فقال له: أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن ترد عليّ تعليقتي فقط فما هي شيء تنتفعون به. فقال له: وما هي تعليقتك؟ قال: كتب في تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها. فضحك وقال: كيف تدعي أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم، ثم أمر بعض أصحابه فسلم إليه المخلاة. فلما وصل طوس أقبل على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظ جميع ما علقه، وصار بحيث لو قطع عليه الطريق لم يتجرد من علمه[2].

ثم إن الغزالي رحل إلى نيسابور ولازم إمام الحرمين، واجتهد جهده حتى برع في علوم المذاهب والخلاف والأصول والجدل والمنطق، وقرأ علوم الحكمة والفلسفة وأحكم كل أمورها، وفهم كلام أرباب هذه العلوم وتصّدى للرد عليهم وإبطال دعاويهم، وصنّف في كل فن من هذه العلوم كتباً أحسن تأليفها وأجاد وضعها وترصيفها. وقد وصف إمام الحرمين تلامذته قال: الغزالي بحر مغرق، والكيا أسد مخرق، والخوافي نار تحرق.

ولمّا مات إمام الحرمين خرج الغزالي إلى العسكر قاصداً الوزير نظام الملك، وناظر الأئمة والعلماء في مجلسه وقهر الخصوم، وظهر كلامه على الجميع، فاعترفوا بفضله، وتلقاه الصاحب بالتعظيم والتبجيل، وولاه تدريس مدرسته ببغداد وأمره بالتوجه إليها، فقدم بغداد في سنة أربع وثمانين وأربعمائة ودرس بالنظامية، وأقام على التدريس وإسماع العلم مدة، وكان في أثناء إقامته زائد الحشمة عظيم الجاه مشهور الاسم، تضرب به الأمثال وتشد إليه الرحال، إلى أن شرفت نفسه عن متاع الدنيا، فرفض ما فيها من الجاه وترك ذلك وقصد بيت

(١) الذين يقطعون على السابلة الطريق فينهبونهم، وهم قطاع الطرق.

(٢) روى الحكاية أيضاً عن الغزالي الوزير نظام الملك كما في ترجمة نظام الملك من ذيل ابن السمعاني.

الله الحرام، فحج وتوجه بعد أداء الفريضة إلى الشام في ذي القعدة، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة بعد أن استناب أخاه في التدريس، وجاور بيت المقدس، ثم عاد إلى دمشق واعتكف في زاويته بالجامع الأموي المعروفة اليوم بالغزالية. ثم إنه لبس خشن الثياب، وقلّل طعامه وشرابه، وأخذ في التصنيف للإحياء، وصار يطوف المشاهد ويزور الترب والمساجد، ويأوي إلى القفار، ويروض نفسه ويجاهدها جهاد الأبرار، ويكلفها مشاق العبادات، ويبلوها بأنواع القرب والطاعات.

ثم يمّم الغزالي شطر مصر ونزل الإسكندرية حيث لقي الفقيه أبا بكر الطرطوشي صاحب كتاب «سراج الملوك»، وكان الطرطوشي يدرس في هذه المدينة إلى حيث وفاته.

وقد ذكر ابن خلكان أن أبا حامد الغزالي عزم على الرحيل إلى المغرب الأقصى لزيارة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين المرابطي بعد انتصاره في موقعة الزلاقة على نصارى الأندلس، حتى إنه لما طلب إلى الخليفة العباسي إقراره على ملك المغرب والاعتراف له بلقب أمير المسلمين، جمع الخليفة مجلساً ضمّ العلماء برئاسة حجة الإسلام أبي حامد الغزلي الذي أفتى باستحقاق يوسف بن تاشفين لهذا اللقب.

ثم عاد إلى بغداد وعقد بها مجالس الوعظ، متكلماً على لسان أهل الحقيقة، وحدث فيها بكتابه «الإحياء». قال الإمام محمد بن يحيى: الغزالي هو الشافعي الثاني. وقال أسعد الميهني: لا يصل إلى معرفة علم الغزالي وفضله إلّا من بلغ أو كاد يبلغ الكمال في عقله. وقال أبو عبد الله محمد بن يحيى بن عبد المنعم العبدري: رأيت بالإسكندرية فيما يرى النائم كأن الشمس طلعت من مغربها، فعبر ذلك بعض المعبرين ببدعة تحدث فيهم، فوصلت بعد أيام وعلمت بإحراق كتب الغزالي بألمرية.

وقد عزم أبو حامد على ركوب البحر إلى المغرب، ولكنه عدل عن ذلك بعد أن بلغه نبأ وفاة يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠ هـ، فعاد إلى طوس وانصرف إلى الاشتغال بالعلم. ثم طلب إليه الوزير فخر الملك ابن نظام الملك التدريس

بالمدرسة النظامية بنيسابور، فلبى أبو حامد طلبه بعد تردد، وعاد الغزالي إلى خراسان ودرس بالمدرسة النظامية بنيسابور مدة قصيرة، ثم رجع إلى طوس واتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء وخانقاه للصوفية، ووزع أوقافه على وظائف من ختم القرآن، ومجالسة أرباب القلوب والتدريس لطلبة العلم، وإدامة الصلاة والصيام وسائر العبادات، إلى أن انتقل إلى رحمة الله. وكانت وفاته بطوس يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة، ودفن في مقبرة الطابران بطوس.

«إن نوع المعرفة التي توصل إليها هي معرفة ذوقية باطنة، لم تكن وليدة العقل الفطري، ولا وليدة البرهان الكلامي، بل تتفجّر من القلب كينبوع ماء صاف[1]».

فقد كان الغزالي «دائرة معارف عصره، رجلاً متعطشاً إلى معرفة كل شيء، نهماً إلى جميع فروع المعرفة[2]».

وممّا لا شك فيه أن الغزالي نظر إلى أحوال العلماء في عصره نظرة مليئة بالنقد البنّاء، ففكّر بوضع نهج عام يخلّص به الأمة الإسلامية من ضرر الزخارف الكمالية والزيادات الثانوية المفسدة للروح الدينية، وأن يقوي الأثر التهذيبي للشريعة التي تعامى الناس عن مقاصدها وغاياتها[3]. لذلك فالغزالي لم يتكلّم عن الفلسفة إلّا ليبطلها ولم يبحث عن العلوم الأخرى إلّا تحت ضوء الدين.

مصنّفاته:

ترك الغزالي آثاراً علمية خالدة، وقد ذكر أنه صنّف نحواً من مائتين وثمانية وعشرين مصنّفاً، كان جلها في الدين والفلسفة والتصوف والتاريخ. ومن أهم هذه المصنفات:

ـ إحياء علوم الدين. وضعه ليلفت نظر المسلمين إلى أصول دينهم القويم،

(١) تاريخ الفلسفة العربية فاخوري وجرّ ٢: ٢٥٤.

(٢) الغزالي، أحمد فريد الرفاعي، ١: ١٠.

(٣) العقيدة والشريعة في الإسلام، غولدزيهر ص ١٨٠.

مشيراً إلى ما حلّ بالإسلام من انصراف أهله إلى شؤون الدنيا وإهمالهم شعائر دينهم، وما نصّ عليه القرآن الكريم من مثل عليا وآداب وأخلاق كريمة، وما انطوى عليه الحديث الشريف من قواعد دينية قويمة وحكم رفيعة(١).

وقد قسم الغزالي كتابه إلى أربعة أقسام سمّاها ربع العبادات، وربع العادات، وربع المهلكات، وربع المنجيات، وقد صدّرها بكتاب العلم الذي هو غاية المهمّ.

ـ كتاب المنقذ من الضلال. يعرض لمسائل علمية من المسائل المتعلقة بالفلسفة، إذ يتناول موضوعات الشك، انتقاد الفرق، النبوة والإصلاح الديني، مدخل السفسطة وجحد العلوم، علم الكلام ومقصوده وحاصله، الفلسفة وأصنافها ووصمة الكفر، الدهريون، الإلٰهيون، أقسام علوم الفلسفة، الإلٰهيات، السياسيات، الخلقيات، آفتا الفلسفة [آفة الرد وآفة القبول]، مذهب التعليم وغائلته، طريق الصوفية، حقيقة النبوة واضطرار جميع الخلق إليها، سبب نشر العلم بعد الإعراض عنه(٢).

ـ كتاب آداب الصوفية. (طبع في فيينا مع ترجمة ألمانية سنة ١٨٣٨، ١٨٤١).

ـ كتاب أيها الولد. وضعه لبعض تلاميذه، وفيه نصائح ووصايا في الزهد.

ـ كتاب تهذيب النفوس بالآداب الشرعية.

ـ كتاب جواهر القرآن ودرره.

ـ كتاب خلاصة التصانيف (ألفه بالفارسية).

ـ كتاب الرسائل القدسية في قواعد العقائد.

ـ كتاب فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية (ويسمى المستظهري).

ـ كتاب أسرار الحج، في الفقه الشافعي.

ـ كتاب تهافت الفلاسفة.

ـ كتاب معيار العلم في المنطق.

---

(١) تاريخ الإسلام، د. حسن، م ٤ ص ٥٣٤.

(٢) انظر مقدمة المنقذ ص ١٦٧ ـ ١٦٨.

ـ الأدب في الدين، (على هامش تهذيب الأخلاق لمسكويه).
ـ كتاب الأربعين في أصول الدين.
ـ إلجام العوام عن علم الكلام.
ـ الإملاء على إشكالات الإحياء، (الأجوبة المسكتة عن الأسئلة المبهتة) على هامش الإحياء.
ـ بداية النهاية (مع منهاج العابدين).
ـ الحكمة في مخلوقات الله، (ضمن العقود).
ـ الدرة الفاخرة في علوم الآخرة.
ـ رسالة الطير.
ـ الرسالة الوعظية (ضمن العقود)
ـ سر العالمين وكشف ما في الدارين.
ـ فاتحة العلوم.
ـ فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة.
ـ القسطاس المستقيم.
ـ قواعد العقائد.
ـ الكشف والتبيين عن غرور الخلق أجمعين (مع منهاج العابدين).
ـ كيمياء السعادة.
ـ المستصفى (في علم الأصول).
ـ مشكاة الأنوار.
ـ المضنون به على أهله، على هامش الإنسان الكامل للجيلي (المضنون الصغير).
ـ المضنون به على غير أهله (المضنون الكبير).
ـ معارج القدس في مدارج النفس.
ـ المعارف العقلية.
ـ معراج السالكين.
ـ مقاصد الفلاسفة.
ـ المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى.

ـ المنقذ من الضلال.
ـ منهاج العابدين.
ـ ميزان العمل.

وقد أحدثت تصانيف أبي حامد الغزالي في الفلسفة والمنطق والطبيعة وما وراءها أثراً عظيماً بعيداً في المشرق والمغرب، وقد قام بترجمة الكثير منها نصارى طليطلة في القرن السادس الهجري.

ويعد أبو حامد الغزلي. إمام عصره ووحيد زمانه في علوم الدين الإسلامي في الحنيف، ولا سيما في علم الأصول وعلم الكلام، كما عرف بحجة الإسلام. وكان مصلحاً دينياً واجتماعياً، ثائراً على المجتمع منددا به، بعدما آل إليه حال المسلمين في عصره، فعمل على إيقاظ الهمة والفضيلة بين المسلمين، ودعا إلى إصلاح المجتمع الإسلامي إصلاحاً شاملاً[1].

---

(١) تاريخ الإسلام، د. حسن، م ٤ ص ٥٣٢.

ابن باجه

ت ٥٣٣ هـ

أبو بكر محمد بن يحيى الصائغ، ويعرف بابن الصائغ، وبابن باجه، وباجّه (بتشديد الجيم) كما ذكر ابن خلكان لفظة إفرنجية معناها فضة، كما يطلق عليه الأوروبيون اسم «افنبس». لم تذكر المصادر ترجمة كاملة لسيرة حياته، والذي يمكن استشفافه أنه ولد في سرقسطة حين كان القرن الخامس الهجري قد شارف على نهايته. وكان ذاك في ظل دولة المرابطين الذين كان إليهم أمر الحكم في المغرب الإسلامي وقتئذٍ، فقد قضى ابن باجه حياته كلها في هذا العهد الذي كان حكامه متشددين في الدين، مسرفين في أخذ النصوص المقدسة على ظاهر حرفيتها، بحيث لم يكن للفكر الحر هذا من الانطلاق، ولا للبحث العلمي، نصيب في الاتساع عبر الآفاق، الأمر الذي لم تتح معه الحرية للفلاسفة من أهل الفكر بقدر ما أتيحت لغيرهم من أهل الحديث.

في ظل هذا الحكم المتشدّد، كان هناك من أصحاب النفوس المرهفة وأرباب العقول المترفة من كان يرى أنه لا بد من أن ينهل من ينابيع المعرفة، ومن أن يغذي نفسه من الثقافة، لدى الصفوة من أبناء الأندلس، وكان ابن باجه أصفاهم وأثقبهم ذهناً آنذاك، وأصحهم نظراً وأصدقهم روية، على ما ذكره ابن طفيل عنه. ومن هنا نجد أن أبا بكر بن يحيى صهر على الأمير المرابط[1] ـ وكان حاكماً لسرقسطة زماناً ما، يتخذ من ابن باجّه جليساً ووزيراً، مما أوغر صدور

(١) د. محمد حلمي، تدبير المتوحد لابن باجه، تراث الإنسانية مجلد ٣ ص ٨١٩.

الحاسدين عليه، وأطلق ألسنتهم بالإرجاف به، على نحو ما ذكره الفتح بن خاقان[1].

بعد سقوط سرقسطة رحل ابن باجه إلى إشبيلية سنة ٥١٣ هـ. وفي إشبيلية صنّف الكثير من مؤلفاته. ثم يمّم شطر غرناطة، ومن ثم إلى فاس حيث وفد على بلاط المرابطين فيها. وهناك عادت الدسائس لتحاك حوله، فدبروا له المكائد إذ ألّب خصومه ـ ومن بينهم الفتح بن خاقان ـ السلطان والعامة عليه، فنسبوه إلى المعطّلة، واتهموه بإشاعة الأباطيل، مما انتهى به إلى التكفير، وقُضي عليه بسوء المصير، إلاّ أنه كتبت له النجاة، ثم لم يلبث بعد ذلك حتى دبر له الطبيب ابن زهر ـ وكان من الحاقدين عليه ـ ميتة بالسم، فكانت وفاته في رمضان سنة ٥٣٣ هـ، وذلك كما ورد عند كل من القفطي وابن خلكان.

كتب فيه أبو الحسن علي بن عبد العزيز ابن الإمام الكاتب الغرناطي الذي صحبه زمناً واشتغل عليه: «هذا مجموع ما قيد من أقوال أبي بكر بن الصائغ رحمه الله في العلوم الفلسفية، وكان في ثقابة الذهن ولطف الغوص على تلك المعاني الشريفة الدقيقة أعجوبة دهره ونادرة الفلك في زمانه». وبعد أن وازن ابن الإمام بين ابن حزم ومالك بن وهب، استطرد فقال عن ابن باجّه: «وأما أبو بكر بن باجه فنهضت فطرته الفائقة، ولم يدع النظر والتنتيج والتقييد لكل ما ارتسمت حقيقته في نفسه على أطوار أحواله، وكيفما تصرف به زمنه، وأثبت في الصناعة الذهنية، وفي أجزاء العلم الطبيعي، ما يدل على حصول هاتين الصناعتين في نفسه، صوته ينطق عنها، ويفصل ويركب فيها فعل المستولي على أمرها». «وله تعاليق في الهندسة وعلم الهيئة تدل على بروعه في هذا الفن. وأما العلم الإلهي فلم يوجد في تعاليقه شيء مخصوص به اختصاصاً تاماً، إلاّ نزعات تستقرأ في «رسالة الوداع»، واتصال الإنسان بالعقل الفعال، وإشارات مجددة في أثناء أقاويله».

«ويشبه أنه لم يكن بعد أبي نصر الفارابي مثله في الفنون التي تكلم عليها من تلك العلوم، فإنه إذا قرنت أقاويله فيها بأقاويل ابن سينا والغزالي، وهما اللذان فتح عليهما بعد أبي نصر بالمشرق في فهم تلك العلوم، ودوّنا فيها، بان لك

(١) قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ص ٣١٥/٣١٦.

الرجحان في أقاويله، وفي حسن فهمه لأقاويل أرسطو[1]».

مصنّفاته:

أورد ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء، والقفطي في أخبار الحكماء، وغيرهما، طائفة كبيرة من المصنفات لابن باجه في علوم وفنون شتى شارك فيها هذا الفيلسوف، والتي تظهر ما كان عليه من ثقافة علمية وفلسفية، على أن أكثر ما صنف ابن باجه من مؤلفات كان في شروح وتعليقات على مذهب أرسطو وغيره من الفلاسفة، ولا سيما ما كان من مؤلفات المعلم الأول في المنطق والطبيعيات. ذكر ابن طفيل الفيلسوف المعاصر لابن باجه مؤلفات أبي بكر، قال: «وأكثر ما يوجد له من التآليف إنما هي غير كاملة ومجزومة من أواخرها ككتابه «في النفس» و«تدبير الموحد»، وما كتبه في المنطق وعلم الطبيعة. وأما كتبه الكاملة فهي كتب وجيزة ورسائل مختلسة، وقد صرح هو نفسه بذلك، وذكر أن المعنى المقصود برهانه في «رسالة الاتصال» ليس يعطيه ذلك القول عطاء بيناً، إلّا بعد عسر واستكراه شديد، وأن ترتيب عبارته في بعض المواضع على غير الطريق الأكمل، ولو اتسع له الوقت مال لتبديلها[2]».

أما المصنفات الكاملة أو المجزومة أو الوجيزة، فهي:

- تعاليق في الهندسة وعلم الهيئة.
- شرح كتاب السمع أو السماع الطبيعي لأرسطوطاليس.
- قول على بعض كتاب الآثار العلوية لأرسطوطاليس.
- قول على بعض كتاب الكون والفساد لأرسطوطاليس.
- قول على بعض المقالات الأخيرة من كتاب الحيوان لأرسطوطاليس.
- كلام على بعض كتاب النبات لأرسطوطاليس.
- جواب على سؤال عن هندسة ابن سيد المهندس وطرقه.
- كلام على شيء من كتاب الأدوية المفردة لجالينوس.
- كتاب اختصار الحاوي للرازي.

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، لابن أبي أصيبعة ص ١٠٠/١٠٢.

(٢) حي بن يقظان ص ٦٢.

ومن مصنفاته العلمية:

- كتاب التجربتين على أدوية ابن وافد.
- كلام في الأسطقسات.
- كلام في المزاج بما هو طبي.

ومن شروحه وتعليقاته الفلسفية:

- تعاليق على كتاب أبي نصر الفارابي في الصناعة الذهنية.
- تعاليق حكمية متفرقة.
- شرح على مدخل فرفوريوس.

أما مؤلفاته الفلسفية فهي:

- قول في التشوق الطبيعي وماهيته.
- قول على القوة النزوعية.
- أسباب البرهان وحقيقته.
- كتاب النفس.
- رسالة الوداع، وقد سميت بهذا الاسم لأن ابن باجه كان على وشك سفر طويل، وكان يريد أن يودع بعض آرائه لصديق من أصدقائـه، وكان يخشى ألا يلتقي بعد عودته بهذا الصديق فترك له هذه الرسالة، ولهذه الرسالة قيمة فلسفية خاصة، لأن فيها آراء ابن باجه عن المحرك الأول في الإنسان أي العقل، وعن الغاية الحقيقية للإنسان والعلم والبحث الفلسفي، وهي القرب من الله والاتصال بالعقل الفعال الذي هو فيض من الله، وسبيل هذا الاتصال إنما يختلف عند ابن باجه عما هو عليه عند الصوفية لأنه عند هؤلاء عبارة عن وجد وشوق وذوق، وعنده ليس إلاّ المنهج العلمي والبحث النظري والتعقل الفلسفي.
- كتاب تدبير المتوحد، وهو أهم كتبه، ذلك أن ابن باجه يختط فيه نهجاً يسير عليه الإنسان من حيث هو فرد في نفسه، ومن حيث هو عضو في جماعة، كما يرسم هذا المنهج لهذه الجماعة من حيث هي مؤلفة من جملة أفراد كلهم متوحد وكلهم متشابه وكلهم ينبغي أن يحقق الغاية القصوى من وجود الإنسان المتوحد أو الجماعة المتوحدة، وهذه الغاية هي الاتصال بـالعقل الفعـال الذي يستلزم في تحققه به وتحقيقه له أن تقدم مقـدمات وأن تؤدى واجبات، مما تتبين معه القيمة النظرية والعملية لمذهب ابن باجّه.

ابن رشد

٥٢٠ ـ ٥٩٥ هـ

أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، ينتمي إلى أسرة من أكثر الأسر العربية شهرة في بلاد الأندلس، إذ كانت أسرة علم وقضاء. وقد ولي ثلاثة أجيال منها وظيفة قاضي القضاة في مدينة قرطبة هم الجد والابن والحفيد. أما الجد وهو أبو الوليد محمد بن رشد، فقد كانت له شهرته في الأندلس وشمالي إفريقية بسبب فتاويه وخدماته السياسية والاجتماعية، تقلّد القضاء بقرطبة، وسار فيه بأحسن سيرة ثم استعفى، فكان الناس يلجأون إليه ويعوّلون في مهماتهم عليه. ثم والد ابن رشد الفيلسوف وهو أحمد بن محمد، وقد ولي القضاء في قرطبة، وتوفي سنة ٥٦٤ هـ، في الوقت الذي بدأ فيه ابن رشد الحفيد طريقه إلى الشهرة.

ولد ابن رشد في سنة ٥٢٠ هـ، وكان لا بد من سلوك مسلك جده وأبيه، فحصّل العلوم العربية والإسلامية، ثم درس الطب والحكمة على غرار مفكري الإسلام من مثل الفارابي وابن سينا، وقد عاصر ابن رشد فيلسوفاً آخر هو ابن طفيل صاحب «حي بن يقظان»، وكان على صلة وثيقة بابن زهر الطبيب المعروف. وابن طفيل هو الذي قدّمه إلى الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الذي كان مهتماً بتشجيع العلماء وتقريبهم إليه في بلاطه، كما كان مهتماً بجمع كتب العلم والفلسفة من أقطار المغرب والأندلس.

على أن ابن رشد كان معروفاً من أسرة الموحدين، فقد سبق أن رحل إلى مراكش لأول مرة سنة ٥٤٨ هـ تلبية لدعوة عبد المؤمن بن علي أول ملوك الموحدين لكي يدلي برأيه الخبير في إنشاء عدد من المدارس في مراكش. وقد ذكرنا في ترجمة ابن طفيل في عرض سابق قصة تقديم ابن رشد إلى الخليفة أبي

يعقوب والذي أراد أن يختبره في مسألة من مسائل الفلسفة، فأظهر ابن رشد الحرج وذعر، حتى طمأنه الأمير، وفتح أمامه باب الحديث وإبداء الرأي في المسألة، فأظهر إذ ذاك ابن رشد ما عنده فأعجب به الأمير ثم ما لبث أن عهد إليه مهمة شرح كتب أرسطو.

قام ابن رشد بمهمة الشرح هذه خير قيام، وخصص جزءاً وافراً من وقته وجهده لإعداد هذه الشروح الوافية التي شهرته وعرف بها في دول أوروبا باسم «الشارح الأكبر». وإلى جانب هذه الشروح العلمية، عهد إليه أبو يعقوب بأن يلي منصب القضاء في إشبيلية سنة ٥٦٥ هـ، فبقي في هذه المدينة في هذا المنصب سنتين ثم عاد إلى قرطبة وتابع شروحه لكتب أرسطو. وهكذا يكون المثلث «الجد والابن والحفيد» قد تولوا مناصب قاضي القضاة في الأندلس على التوالي.

وكان الخليفة أبو يعقوب يستعين به إذا احتاج الأمر للقيام بمهام رسمية عديدة، ولأجلها طاف في رحلات متتابعة في مختلف أصقاع المغرب فتنقل بين مراكش وإشبيلية وقرطبة. ثم دعاه أبو يعقوب في سنة ٥٧٨ هـ إلى مراكش فجعله طبيبه الخاص، ثم ولاه منصب القضاء في قرطبة، «فحمدت سيرته وتأثلت له عند الملوك وجاهة عظيمة لم يصرفها في ترفيع حال، ولا جمع مال، وإنما قصرها على مصالح أهل بلده خاصة، ومنافع أهل الأندلس عامة».

ثم مات أبو يعقوب يوسف، وخلفه ابنه أبو يوسف المنصور، فزادت مكانة ابن رشد في عهده مكنة ورفعة، وقرّبه الأمير إليه على نحو أفزع الفيلسوف، إذ كان ابن رشد يخشى خصومه من الفقهاء الذين كانوا يتألبون على الفلاسفة والعلماء للإطاحة بهم وإبعادهم، وذلك في سبيل استعادة المكانة التي كانوا عليها أيام حكم المرابطين. ولما كان ابن رشد لا يظهر الود لهؤلاء الفقهاء ولا يمالئهم، فقد نجح هؤلاء المكيدون في الكيد له عند الأمير، وسنحت لهم فرصة ذهبية بقدوم المنصور إلى بلاد الأندلس لمحاربة جيوش ألفونس ملك الإسبان في سنة ٥٩١ هـ، فلمّا وصل الأمير منتصراً أمر باعتقال ابن رشد ونفاه إلى قرية كانت لليهود وأحرق كتبه، وأصدر منشوراً إلى المسلمين كافة ينهاهم فيه عن قراءة كتب الفلسفة أو التفكير في الاهتمام بها، وهدّد من يخالف أمره بالعقوبة.

اختلف المؤرخون في تحديد سبب هذه المحنة التي نزلت بابن رشد في أواخر حياته العلمية والسياسية، فقد علل بعضهم أسباب غضب الأمير عليه وأسره ثم نفيه وإحراق كتبه، إلى تبسّطه مع خليفة المسلمين في الحديث، وعزا بعضهم الآخر السبب إلى ميل ابن رشد إلى حاكم قرطبة وكان أخاً للمنصور أبي يوسف، وأرجع البعض منهم السبب إلى أن أعداءه ممّن حسدوه لمكانته ورفعته في بلاط الخليفة دسّوا عليه بعض العبارات التي تشهد بإلحاده، فقيل إنه أنكر بعض ما ورد من القصص عن الأمم التي خلت وجاء ذكرها في القرآن الكريم. والمرجح أن السبب الأساسي في نكبته تلك هو موقف الفقهاء منه، وعملهم على إبعاده وتنحيته من طريق البلاط، طمعاً في استعادة المكانة التي كانوا عليها أيام حكم المرابطين. وممّا يزيد في ترجيح هذا السبب أن المنصور عاد فاستدعاه إلى مراكش، فلما وفد عليه عفا عنه وأحسن إليه. ولو كان السبب كما ذكر البعض ممّن أعاد أسباب محنته إلى الإلحاد وإنكاره لقصص الأولين ممّا له صلة بالقرآن والدين، لما عفا عنه ولكان من المستحيل أن يعود عن قراره.

مصنفات ابن رشد الفيلسوف:

ترك ابن رشد مؤلفات وفيرة، ذكرها ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء وقال إنها خمسون كتاباً، وذكر رينان[1] أنها ثمانية وسبعون بين كتاب ورسالة، على أن عامل الزمن والنكبة التي ألمت به أواخر حياته أدت إلى ضياع الكثير من هذه الكتب، وإحراق البعض الآخر، وإذا كان الفارابي وابن سينا قد جهدا فاكتفيا بتلخيص كتب فلاسفة اليونان من مثل أرسطو وأفلاطون وأفلوطين والإسكندر الأفروديسي، فإن الفيلسوف ابن رشد لم يكتف بالتلخيص، بل عدا إلى شرح أفكار هؤلاء الفلاسفة، وهذا ما دفع دانتي في «الكوميديا الإلّهية» إلى تسميته «الشارح الأكبر».

وممّا يميز ابن رشد في شروحه هو شرحه كتب المعلم الأول أرسطو، فابن رشد لم يكن يحسن اللغة اليونانية، ولذلك لم يقرأ فلسفة أرسطو في مصادرها الأصلية، وإنما قرأها من ترجمات ونقول كان أغلبها محرّفاً ومشوّهاً، ولكنه استطاع بفضل ما

(١) ابن رشد والرشدية.

أوتي من عقلية فلسفية أن يصل إلى الكثير من الآراء الصائبة وذلك بوساطة المقارنة والمقابلة التي اتبعها في فهمه لهذه الآراء والنصوص. وقد كان لهذه الشروح أثر كبير في انتشار فلسفة أرسطو في أوروبة في العصور الوسطى، تماماً كما تأثرت بفلسفة ابن رشد ذاته، فقد شغلت فلسفة ابن رشد الأوروبيين حوالى أربعمائة سنة. وقد اتبع فيلسوف قرطبة مناهج في شرحه لكتب فيلسوف أثينا، وكان يميل إلى الوصول في تحقيق ما هدف إليه. وكان أول منهج منها الشرح الأكبر الذي أورد فيه ابن رشد فقرة من كلام أرسطو ثم ذكر شروحه عليها. والثاني الشرح الأوسط، وفيه اكتفى بإيراد مطلع الفقرة فقط ثم بدأ في الشرح. وثالث المناهج الشرح الأصغر وفيه يعرض ابن رشد كتاب أرسطو عرضاً حرّاً، فيحذف منه أحياناً وأحياناً يزيد، وفي ثالثة يوازن بين آراء أرسطو في الكتاب المشروح وآرائه في كتبه الأخرى، وبهذا يغدو الشرح كتاباً مستقلاً.

أما كتبه فهي:

الكتب المشروحة: أفلاطون ـ

ـ جوامع سياسة أفلاطون (تلخيص كتاب الجمهورية).

الكتب المشروحة: أرسطو ـ

ـ جامع الطبيعيات والإلّهيات (لخص قسماً من «الحيوان»).

ـ تلخيص كتاب المنطق.

ـ تلخيص كتاب البرهان.

ـ تلخيص كتاب السماع الطبيعي.

ـ تلخيص كتاب السماء والعالم.

ـ تلخيص كتاب العقل والمعقول.

ـ تلخيص كتاب الكون والفساد.

ـ تلخيص كتاب الآثار العلوية.

ـ تلخيص كتاب الخطابة وكتاب الشعر.

ـ تلخيص كتاب ما بعد الطبيعة.

ـ تلخيص كتاب الأخلاق.

- تلخيص كتاب النفس.
- شرح كتاب القياس.
- شرح كتاب البرهان.
- شرح كتاب النفس.
- شرح كتاب السماء والعالم.
- شرح كتاب السماع الطبيعي.
- تفسير ما بعد الطبيعة.
الكتب المشروحة: إسكندر الأفروديسي -
- شرح مقالة في العقل.

وله من الشروح والتلخيصات أيضاً:

- تلخيص كتاب الإلٓهيات لنيقولاوس الدمشقي.
- تلخيص كتاب المجسطي في الفلك لبطليموس.
- تلخيص كتاب القوى الطبيعية لجالينوس.
- تلخيص كتاب العلل والأمراض لجالينوس.
- تلخيص كتاب الحميات لجالينوس.
- تلخيص كتاب المزاج لجالينوس.
- تلخيص المقالات الخمس الأولى من كتاب الأدوية المفردة لجالينوس.
- تلخيص كتاب الأسطقسات لجالينوس.
- مقالة في ما خالف أبو نصر (الفارابي) لأرسطو في كتاب البرهان من ترتيبه وقوانين البراهين والحدود.
- التعريف بجهة أبي نصر (الفارابي) في كتبه الموضوعة في صناعة المنطق التي بأيدي الناس وبجهة أرسطو فيه.
- الفحص عن مسائل وقعت في العلم الإلٓهي في كتاب الشفاء لابن سينا.
- الرد على ابن سينا في تقسيمه الموجودات إلى ممكن على الإطلاق وممكن بذاته وإلى واجب بغيره وواجب بذاته.
- شرح أرجوزة ابن سينا في الطب.

ـ مختصر المستصفى للغزالي.
ـ شرح رسالة اتصال العقل بالإنسان لابن باجّه.

أما كتبه التي ألّفها في الفقه وعلم الكلام والمنطق والجدل الفلسفي فهي:

ـ فصل المقال وتقرير ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال (في علم الكلام).
ـ بداية المجتهد ونهاية المقتصد (في الفقه).
ـ مقالة في أن ما يعتقده المشّاؤون وما يعتقده المتكلمون في كيفية وجود العالم متقارب في المعنى (في علم الكلام).
ـ الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملّة وتعريف ما وقع فيها بحسب التأويل من الشبه المزيفة والبدع المضلة (في علم الكلام).
ـ شرح عقيدة المهدي (في علم الكلام).
ـ الضروري في المنطق.
ـ مقالات شتى في القياس والمقدمة المطلقة والمقاييس الشرطية.
ـ تهافت التهافت:

وضع الغزالي كتابه «مقاصد الفلاسفة» لعرض مذاهبهم والرد عليها وتبيين تهافتها، ثم فنّد هذه المذاهب في «تهافت الفلاسفة» ووصف الفلاسفة بالغباء والزيغ والظن بالله ظن السوء والغرور العقلي، وحاول إبطال ما يدعون وبيان ضعف عقيدتهم، فيرد ابن رشد على الغزالي في «تهافت التهافت» فيصفه بالسفسطة والقصور والمكابرة وباللجوء إلى التشويش على الفلاسفة. لقد تحدث ابن رشد في هذا الكتاب عن التوفيق بين الدين والفلسفة وعن الفلسفة الطبيعية وعن الفلسفة الإلّهية.

الآمدي

٥٥١ - ٦٣١ هـ

علي بن أبي علي بن محمد بن سالم، أبـو الحسن، التغلبي، المشهور بسيف الدين الآمدي. ولـد في آمد، في ديـار بكر، سنـة ٥٥١ هـ، ولا تذكـر المصادر شيئاً عن نشأته في آمد، ولكن بعضها يفيد أنه تلقى تعليمه الأول فيها، ثم انتقل وهو في سن الشباب إلى بغداد حوالى سنة ٥٧١ هـ، وهناك تلقى تعليمه العالي فيها، وتخصص في العلوم العقلية والجدل والمنـاظرة، فقـد صحب في بغداد ابن بنت المنى المكفوف وأخذ عنه[١]. وتعرّض الآمدي في بغداد لاتهامات الفقهاء وجفوتهم إيّاه لتطرفه في دراسة العلوم العقلية، فشككوا في عقيدته، ممّا دفعه إلى ترك بغداد، إلى مصر، سالكاً طريق الشام، بعد عشرين عاماً من الحياة العلمية والتحصيل في مختلف الدوائر العلمية ببغداد. وقـد وصل الآمـدي إلى القاهرة سنة ٥٩٢ هـ، وفيها تولى التدريس في مدرسة «منازل العزّ[٢]»، ثم غدا أستاذاً لمدرسة «القرافة الصغرى»، ثم انتهى شيخاً للجامع الظافري في القاهرة. وقد دامت إقامته في مصر مدة ثلاث وعشرين سنة، زاول خلالها بالإضافـة إلى التدريس كل أنواع التأليف في الفقه والأصول والكلام والأديان والفلسفة والمنطق. وبحلول سنة ٦١٥ هـ، تعرّض الآمدي مرة ثانية لاتهام الفقهاء مدفوعين بالحسد، فتعصبّوا عليه ونسبوه إلى فساد العقيـدة، لغلوّه في دراسة الفلسفـة وتدريسهـا، «فخرج مستخفياً إلى حماه[٣]».

(١) أخبار الحكماء لابن القفطي ص ١٦١.

(٢) أخبار الحكماء لابن القفطي ص ١٦١.

(٣) انظر الفيلسوف الآمدي، للدكتور الأعسم ص ١٧.

وفي حماه بقي الآمدي حوالى السنتين في خدمة الملك المنصور أبي المعالي محمد بن عمر المظفر، وكان صاحب حماه، وكان محباً للعلماء جمع في بلاطه الكثير من المشهورين منهم وكان الآمدي من بينهم. ثم انتقل إلى دمشق بعد وفاة المنصور، وكان قد تلقى دعوة من الملك المعظم شرف الدين عيسى بن أبي بكر محمد بن أيوب صاحب دمشق، وفيها تولّى مرتبة الأستاذية في المدرسة العزيزية، حيث بقي حوالى ست سنوات إلى أن عُزل سنة ٦٣٠ بأمر الملك الأشرف أبي الفتح موسى بن أبي بكر محمد بن أيوب شقيق المعظّم وكان الأشرف شارك أخاه الملك الكامل أبا المعالي في فتح آمد سنة ٦٣٠ هـ، وظهر لهما أن الأرتقي صاحب آمد قد راسل الآمدي سرّاً، وسكت هذا عن دعوته إلى استلام القضاء هناك، فنزل عليه غضب البلاط الأيوبي وعزل عن المدرسة العزيزية[١]، وكان قد بلغ الثمانين من عمره، وأقام بعد ذلك شهوراً قليلة بمنزله ومات، وكانت وفاته في يوم الثلاثاء ٣ صفر سنة ٦٣١ هـ.

تصانيفه:

ذكر ابن القفطي تصانيفه، قال: «فكانت تصانيفه في الآفاق مرغوباً فيها[٢]». وكان له نحو عشرين مصنّفاً ما بين مطبوع ومخطوط، نذكر منها:

- الإحكام في أصول الأحكام.
- أبكار الأفكار، في الأصول.
- غاية المرام في علم الكلام.
- كتاب الجدل.
- كتاب المآخذ على الرازي، في شرح الإشارات لابن سينا.
- منتهى السؤل، وهو مختصر الأحكام.
- كتاب كشف التمويهات في شرح التنبيهات، ألّفه للملك المنصور صاحب حماه.
- كتاب المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلّمين.

(١) أخبار الحكماء لابن القفطي ص ١٦١.
(٢) أخبار الحكماء ص ١٦١.

- كتاب الباهر في علم الأوائل.
- كتاب الحقائق في علوم الأوائل.
- كتاب دقائق الحقائق.
- كتاب رموز الكنوز.
- كتاب لباب الألباب.
- كتاب غاية الأمل في علم الجدل.
- شرح كتاب شهاب الدين المعروف بالشريف المراغي، في الجدل.
- كتاب منتهى السالك في رتب الممالك.
- دليل متحد الائتلاف وجاد في جميع مسائل الخلاف.
- كتاب الترجيحات في الخلاف.
- كتاب المؤاخذات في الخلاف.
- كتاب التعليقة الصغيرة.
- كتاب التعليقة الكبيرة.
- كتاب منائح القرائح.
- كتاب عقيدة تسمّى «خلاصة الإبريز تذكرة الملك العزيز بن صلاح الدين.

ومن خلال هذه الأسماء التي طبعت كتب الآمدي، نلاحظ أن الطابع العقلي هو السائد في مصنّفاته، وأن هذه المصنّفات تتصل اتصالاً وثيقاً بأصول الفقه والجدل والفلسفة[1]. وكان الآمدي في المنطق أستاذاً كبيراً ومن أشهر أتباع المدرسة الشرقية السينويّة.

---

(١) مقدمة كتاب غاية المرام، حسن عبد اللطيف ص ١٢.

الطوسي

٨١٧ - ٨٨٧ هـ

علي بن محمد بن البتاركاني الطوسي، الحنفي، علاء الدين المعروف بالمولى عرّان. نسبته إلى طوس، وهي بلدة بخراسان، ويقال إنه من أهل سمرقند، وهي البلدة التي قضى فيها أيامه الأخيرة، حتى وفاته. ولد حوالى سنة ٨١٧ هـ، وتلقى العلم على علماء عصره في بلاد العجم، فحصّل العلوم العقلية والنقلية، وكان عالماً ذا باعٍ ممتد في التفسير والحديث والفنون، وكان مشاركاً في العلوم كلها، مهر فيها وفاقَ أقرانه. ولمّا بلغ رتبة الكمال في هذه العلوم وفد إلى بلاد الروم فأكرمه السلطان العثماني مراد خان وسلّمه مدرسة السلطان في بروسّة وعيّن له كل يوم خمسين درهماً. ولمّا تولى السلطنة محمد بن مراد خان، الذي كان يرى في كثرة العلماء دليلاً على تقدم الدولة الإسلامية، استقدم إلى سلطنته علماء كثيرين وأنفق عليهم وندبهم للتدريس، وكان علي بن محمد الطوسي أوفرهم حظّاً لديه، فقد ميّزه السلطان وأنفق عليه أكثر مما أنفق على بقية العلماء[1].

وبعد أن فتح محمد خان القسطنطينية جعل ثماني من كنائسها مدارس، وأعطى واحدة منها للمولى الطوسي، وعين له كل يوم مائه درهم، كما وهبه قرية هي أقرب القرى من مدينة القسطنطينية، ولقّبت تلك القرية بقرية مَدْرَس. ثم لمّا بنى السلطان ثماني مدارس حديثة، ونقل التدريس إليها، عين للطوسي موضعاً يعرف حالياً بجامع زيرك، وكان حوله مقدار أربعين من الحجرات يسكن فيها الطلبة. ثم إنّ من المدارس المهمة التي تسلّمها الطوسي أيضاً مدرسة السلطان

(١) تهافت الفلسفة، تحقيق د. سعادة ص ١٢.

محمد في أدرنة. ولمّا شُهر وعظمت مكانته أمره السلطان، هو والخواجة زاده مصلح الدين مصطفى بن يوسف، أن يصنّفا كتاباً للمحاكمة بين الغزالي والحكماء، فكتب الخواجة زاده كتابه في أربعة أشهر، وأتمّ الطوسي كتابه في ستة أشهر وسمّاه «الذخر» أو «الذخيرة في المحاكمة بين الغزالي والفلاسفة» وقد أمر السلطان لكل واحد منهما بعشرة آلاف درهم، لكنه زاد الخواجة زاده خلعة نفيسة، مظهراً بذلك تفضيل كتابه على كتاب المولى عزّان.

بعد هذا التفضيل الذي أظهره السلطان لكتاب خواجة، عزم الطوسي على الاعتكاف والعزلة مؤثراً الاهتمام بأمور الآخرة، وكان رفض من قبل تلك المناصب التي عرضها عليه السلطان، مكتفياً بالتدريس الذي نبغ فيه وبه علا شأنه وارتفع اسمه. ثم إنه ترك بلاد الروم بعد هذه الحادثة عائداً إلى وطنه، فوصل تبريز في مطلع عودته، وهناك لقي الشيخ عبدالله الإلٰهي الذي رحب به وأقام له ضيافة في أحد بساتين تبريز. ومن ثم رحل الطوسي إلى ما وراء النهر وأوى إلى مجلس الشيخ العارف عبيدالله السمرقندي، وكان من مشايخ الطريقة النقشبندية، فحصل عنده على مقام مرموق، وكان وسيلة الشيخ بالعثمانيين. وبقي في سمرقند إلى أن توفي في سنة ٨٨٧ هـ.

مصنّفاته:

ذكر البغدادي في هدية العارفين أن له ثمانية كتب هي:

- البداية في المحاكمة بين الحكماء.
- حاشية على التلويح.
- حاشية على شرح العضد لمختصر المنتهى.
- حاشية على لوامع الأسرار.
- حاشية على شرح المواقف للإيجي.
- حواشٍ على حاشية الكشّاف للزمخشري.
- شرح مطالع الأنوار.
- كتاب الذخيرة في المحاكمة بين الغزالي والفلاسفة.
- حاشية على شرح الدواني للعقائد العضدية.

مسرد المراجع والمصادر

١ ـ **أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب**: د. صلاح الدين المنجد، ٣/١، الطبعة الأولى الجزء الأول، ١٩٥٩، الثاني، ١٩٦٠، الثالث ١٩٦١، مؤسسة التراث العربي.

٢ ـ **الإمتاع والمؤانسة**: أبو حيان التوحيدي، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٩/ ١٩٤٤، مصر.

٣ ـ **إنباه الرواة على أنباه النحاة**: أبو الحسن علي بن يوسف الشيباني القفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى ١٣٦٩ هـ، لجنة التأليف، القاهرة ـ مصر.

٤ ـ **تأريخ ابن عساكر (التاريخ الكبير)**: علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الشافعي، اعتنى بترتيبه وتصحيحه الشيخ عبد القادر بن أحمد الدومي المعروف بابن بدران ٧/١، دمشق ١٣٢٩ ـ ١٣٥١.

٥ ـ **تاريخ الأدب العربي**: كارل بروكلمان، عرّبه د. عبد الحليم النجار، الطبعة الرابعة ١٩٧٧، دار المعارف، القاهرة ـ مصر.

٦ ـ **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي**: د. حسن إبراهيم حسن، الطبعة السابعة ١٩٦٤، مكتبة النهضة المصرية.

٧ ـ **تاريخ بغداد**: أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ١٤/١، طبعة ١٣٤٩/ ١٩٣١، مصر.

٨ ـ **تاريخ الحكماء**: (مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات الملتقطات) جمال الدين أبو الحسين علي بن يوسف القفطي، أوفست عن طبعة ليبزيغ ١٩٠٣، مكتبة المثنى، بغداد ـ العراق.

٩ ـ **تاريخ الفلسفة في الإسلام**: ت. ج. دي بور، تعريب د. محمد عبد الهادي أبو ريدة. الطبعة الخامسة ١٩٨١، دار النهضة العربية، بيروت ـ لبنان.
١٠ ـ **تجارب الأمم**: أبو علي أحمد بن محمد المعروف بمسكويه، ١/٣، مطبعة شركة التمدن الصناعية بمصر سنة ١٣٣٣ هـ و ١٩١٥ م، مكتبة المثنى بغداد.
١١ ـ **تذكرة الحفاظ**: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، ١/٤، طبعة ١٩٥٥، حيدرآباد الدكن، الهند.
١٢ ـ **جذوة المقتبس**: الحميدي، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، طبعة ١٩٥٢، مصر.
١٣ ـ **الجغرافيا**: علي بن موسى بن سعيد المغربي، تحقيق إسماعيل العربي، الطبعة الأولى ١٩٧٠، المكتب التجاري للطباعة، والتوزيع والنشر، بيروت ـ لبنان.
١٤ ـ **الحكمة الخالدة (جاويدان خرد)**: أبو علي أحمد بن محمد مسكويه، تحقيق وتقديم د. عبد الرحمن بدوي، بدون تاريخ، دار الأندلس، بيروت ـ لبنان.
١٥ ـ **ذم الهوى**: أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق مصطفى عبد الواحد، مراجعة محمد الغزالي، الطبعة الأولى ١٩٦٢، دار الكتب الحديثة، مصر.
١٦ ـ **رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء**: إخوان الصفاء وخلان الوفاء، ١/٤، دار صادر، بيروت ـ لبنان.
١٧ ـ **سير أعلام النبلاء**: شمس الدين محمد بن أحمد بن عفان الذهبي، تحقيق د. صلاح الدين المنجد وإبراهيم الأبياري ود. محمد أسعد طلس ١/٣، ذخائر العرب ١٩، ١٩٥٦ ـ ١٩٦٢، القاهرة ـ مصر.
١٨ ـ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**: عبد الحي بن العماد الحنبلي بدون تاريخ، (١/٨): المكتب التجاري للطباعة، والتوزيع والنشر بيروت ـ لبنان.
١٩ ـ **طبقات الأطباء والحكماء**: أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي المعروف بابن جلجل، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٥٥.

٢٠ ـ **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**: أحمد القاسم السعدي المعروف بابن أبي أصيبعة، شرح وتحقيق د. نزار رضا، طبعة ١٩٦٥، مكتبة الحياة، بيروت ـ لبنان.

٢١ ـ **فتوح البلدان**: أحمد بن يحيى البلاذري، ط ليدن ١٨٦٥ م.

٢٢ ـ **فضائل القدس**: أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، حققه الدكتور جبرائيل جبور، الطبعة الأولى ١٩٧٩، دار الآفاق الجديدة، بيروت ـ لبنان.

٢٣ ـ **الفهرست**: محمد بن إسحاق النديم، بدون تاريخ، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان.

٢٤ ـ **فوات الوفيات**: محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق د. إحسان عباس، طبعة ١٩٧٤، دار صادر، بيروت ـ لبنان.

٢٥ ـ **الفيلسوف الآمدي**: الدكتور عبد الأمير الأعسم، الطبعة الأولى ١٩٨٧، دار المناهل، بيروت ـ لبنان.

٢٦ ـ **قلائد العقيان**: الفتح بن خاقان، أوفست عن طبعة باريس ١٨٦٠ م، تحقيق سليمان الحسيني.

٢٧ ـ **الكامل في التاريخ**: عز الدين علي بن محمد بن محمد المعروف بابن الأثير ١٣/١، طبعة ١٩٦٥، منشورات دار صادر ودار بيروت، بيروت ـ لبنان.

٢٨ ـ **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**: حاجي خليفة، طبعة سنة ١٣٦٠ هـ. استانبول.

٢٩ ـ **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**: سبط ابن الجوزي ٨/١، طبعة ١٩٥١ ـ ١٩٥٢، حيدرأباد الدكن، الهند.

٣٠ ـ **مروج الذهب ومعادن الجوهر**: علي بن الحسين بن علي المسعودي ٤/١، تدقيق يوسف أسعد داغر، الطبعة الثالثة ١٩٧٨، دار الأندلس، بيروت ـ لبنان.

٣١ ـ **معجم الأدباء (إرشاد الإريب إلى معرفة الأديب)**: ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي، ٧/١، باعتناء د. س. مرجليوث، الطبعة الثانية (١٩٢٣)، مطبعة هندية بالموسكي ـ مصر.

٣٢ ـ **معجم البلدان**: ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي، ١/٥، طبعة ١٩٨٠، دار بيروت. بيروت ـ لبنان، .
٣٣ ـ **المغرب في حلى المغرب**: أبو محمد الحجازي وعبد الملك بن سعيد وأحمد ابن عبد الملك ومحمد بن عبد الملك وموسى بن محمد وعلي بن موسى، تحقيق د. شوقي ضيف، الطبعة ٢ ١٩٦٤ م دار المعارف ـ مصر.
٣٤ ـ **المنقذ من الضلال**: أبو حامد الغزالي، حققه د. جميل صليبا ود. كامل عياد، الطبعة السابعة ١٩٦٧، دار الأندلس، بيروت ـ لبنان.
٣٥ ـ **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**: للمقري التلمساني ١/٨، تحقيق د. إحسان عباس، طبعة ١٩٦٨، بيروت.
٣٦ ـ **وفيات الأعيان** : أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، طبعة ١٩٧٣، بيروت.

الفهرس